kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@dl10d

إبراهيم الكوني

سِنفيوم

رواية

دار سؤال
DAR SOUAL

إلى خلّ الزمن الضائع صادق النيهوم، سليل قورينا، الذي عجّلَ بالرّحيلِ عن عالمنا منذ ربع قرن، ليقينه بأننا بالوجود فقط نحن فانون، أمّا بالموت فإننا خالدون.

«شئت أن أضيف أن سكّان هذا الجزء من العالم »ليبيا« هم أربعة أجناس حسب علمي: اثنان منهما أصليّان في البلاد، والاثنان الآخران دخيلان: الليبيون والإثيوبيون أصليون، في ليبيا، والفينيقيون واليونانيون دخلاء »

هيرودوت

التاريخ ميلبومينا:

(4 - 197)

«وحيداً يحيا، ووحيداً يموت في الصحراء، فلا نعرف رؤى هذا الإنسان، أو وصيّته الأخيرة. ولكن الشِّعر وحده يستطيع أن يخترق عمق الصحراء، بسلطان شعاع الضوء، ليوقفنا شهود عيانٍ على حال إنسانٍ وحيدٍ، يلفظ أنفاس النزع الأخير»

جان بول

مدرسة علم الجمال»»

«آورليد، إيهاك آورّيد »[1]

آنهي

(كتاب الطوارق الضائع)

في يومٍ مّا، من شهرٍ مّا، من سنةٍ مّا، من القرن السابع قبل الميلاد

السيرة كلّها من إبداع ربّات الوحي اللائي ألهمن عرّافات المعبد فتخضخضن، وتمخّضن، وسفحت شفاههنّ الزَّبَد، وهنّ يتشدّقن بمديح أرض ليبيا، في زمن حمّى تحريض أهل المكان على ركوب البحر، والاستيطان في الأرض البكر الوحيدة التي تشهد موسماً أبديّاً يتقاسم فيه الناس الأراضي، لنيل نصيبهم من الوطن الذي كان منذ الأزل الملاذ الأخير لكل طريدٍ، أو شريدٍ، أو عابر سبيلٍ أضاع السبيل إلى الوطن.

في حِمَى الشطر الشرقي من هذا الوطن الأسطوري، في البرزخ الفاصل بين الصحراء والبحر، اعتلى الشبح المدعو «يوساس» رأس السلسلة الجبلية، ليستعيد وصية الزعيم «إيدكران» يوم أعجزه زحف جيوش الدخلاء وابتلاعهم لأراضي القبائل، سيّما في المرحلة التي تمّ فيها اكتشاف «الكنز المشؤوم» كما ينعت الزعيم عشبة «آسيار»، الملقّبة في رطانة الأغراب بـــ «سِلْفيُوم»، فلم يجد سبيلاً لصدّ هذا الغزو سوى طلب النجدة من «خفرع» المتربّع على عرش مزر (مصر) المجيد: نجدة لم تفلح في ردع الزحوف، لأن حمّى طلب الكنوز كانت أقوى من سيوف الجنود، فانتهت الحملة بهزيمة منكرة، كما انتهت انتفاضة القبائل ضدّ الدُّخَلاء، قبلها بهزيمة مماثلة، فلم يبق للزعيم سوى الاستعانة بالدُّهاة طلباً للحيلة، يقيناً منه أن المكيدة وحدها تستطيع أن تحقق ما أخفقت في تحقيقه أنصال الحديد. تلك كانت المذبحة التي رفقت به الحظوظ فلم يقدّر له أن يكون فيها شاهد عيان، وإلاّ لما أتيحت له الفرصة أن يشهد المذبحة التالية التي قرّر فيها الزعيم أن يتنصّل من كل نجدة، واعتمد على النفس، فأنزل بالعدوّ هزيمة سقط فيها ما زاد على السبعة آلاف محارب عدا الجرحى. ولكن هذه الغلبة لم تحقق له نصراً برغم كل الهول الذي نزل بصفوفهم، لأن القوة القابعة وراء البحور التي دفعتهم إلى الوطن في الماضي، وبثّت فيهم روح الجشع لنيل نصيبهم من أرض ليبيا السخيّة، ليقيموا في رحابها الكيان المدهش المسمّى «قورينا»، ما لبثت أن زوّدتهم بالعون هذه المرّة أيضاً، فتزاحمت على الشطوط السفن المحمّلة بجيوش الجند من جديد، فيتجدّد النزاع مع أهل الأرض.

قورينا إسمٌ مستعارٌ من «قور». وهي كلمة تعني في لغة الليبيين «الصّلد» أي ذلك الكيان الجبلي المكابر المنتصب فوق امتداد البحر الهاجع في الحضيض الذي اختاره أسلاف المستوطنين نواةً لفردوسهم الموعود، كما تغنّت به عرّافات معبد دلفى في وجه كل من ارتاد رحاب المعبد تلك الأزمان طلباً للنبوءة. عرّافاتٍ عرفن كيف يستدرجن الروّاد بصنوف المديح في حقّ الفردوس الموعود مبثوثاً في أوصاف مغرية مثل: «أرض الأحلام»، أو «الأرض السخية التي تطعم

اليتامى بالمجّان»، أو «مرضعة الحملان»، أو «ملاذ كل شريدٍ فقد في الأوطان الملاذ». وهي معزوفةٌ لم تكن لتجد صدىً في آذان

أُناسٍ أقبلوا على المعبد لاستجلاء حوائج أخرى لا علاقة لها بالهجرة أو ارتياد الآفاق، مثل الشقيّ «باتوس» الذي أقبل على حرم الإله طلباً لمشورةٍ بشأن عطبٍ في اللسان، ليكون أنسب ضحيّة للقيام بدور رسول المجهول الذي سخّرته الآلهة ليضع حجر الأساس للفردوس الموعود على أرض ليبيا. ولم تُجدِ محاولات «باتوس» المستميتة في التنصّل من قدره، على طريقة كل الرسل في الفرار من نبوءةٍ هي في عُرفهم دوماً وزرٌ ثقيل، لأنه كان يجد نفسه في كل مرة مكبّلاً بمشيئة القدر، ولم يجد مفرّاً إلاّ الاستسلام أخيراً والذهاب في أول حملة لتوطين أهل يونان على الشاطئ الجنوبي لبحر ليبيا، لينال لقب «باتوس الأول» مكافأة له على قصب السبق، واعترافاً بفضله كأوّل ملك على المستوطنة «قورينا».

في عهد «باتوس» هذا قام العهد مع القبائل بزعامة «إيدكران الأول» الذي قضى للمستوطنين المقام في حدود يابسةٍ حرّم اجتيازها نحو الشرق أو الغرب أو الجنوب لمسافة تزيد على الثلاثة أيام سيراً على الأقدام، ولكن خَلَف «باتوس الأول» الملقّب باسم «أركسيلاي» ما لبث أن نقض العهد بالسماح للمهاجرين بالانطلاق في عمق البلاد فوقع الصِّدام وسال الدم لأول مرة بين الفريقين.

ولكن الشائعات التي تحدّثت عن عشبة الشؤم، المسمّاة سِلْفيُوم، كسبب لهذا النهم للاستحواذ على مزيد الأرض، لم تنتشر إلاّ في المرحلة التي تلت الحرب الكبرى الأولى، ويقال في أوساط القبائل إنها السبب الذي غذّى الحرب الكبرى الثانية التي حصدت من جيش الاحتلال السبعة آلاف مقاتل، دون أن تكسر شوكتهم، أو تجبرهم على الجلاء، لأن مفعول الحصول على أكبر نصيب من عشبة السوء، كان في يقين القوم أقوى مفعولاً حتى من الموت.

يوساس لم يملّ في سرّه ترديد وصيّة الزعيم يوم استدعاه لحضور محفل العقلاء: «لا يجب أن تنسى أننا ندافع اليوم عن آخر شبرٍ من أرضنا، وقد دعوتك لا لتشارك هؤلاء المكابرين البلهاء جَدَلهم العقيم حول ما يلزم وما لا يلزم، ولكن لأنك أعرف الناس بهذه الأرض وخبايا هذه الأرض، ومن وقف على سرّ الأرض وحده يستطيع أن يهتدي إلى حيلة يستطيع أن يبارز بها خبث الدسيسة التي يتّخذها الأغراب اليوم ذريعةً لامتلاك الأرض!».

هو أدرى الناس بالأرض وبخفايا الأرض؟

يا له من حُسن ظنٍّ بمواهب شخصه المسكين الذي لا يدري جناب الزعيم مدى حاجته إلى أتفه نصيب من مواهب أغبى دابّة في قطيع أنعامه سيّما إذا تعلّق الأمر بسرّ الأرض وما يخفيه جوف الأرض. فأن يتطاول في الأرض، ليشقّ بفأسه بطن أمّه الأرض، طلباً للقوت، فتلك خطيئة الحظّ الذي أضاع به السبيل يوماً ليجد نفسه مقطوعاً في واحة، وعليه أن يحصل على قوت يومه بعرق جبينه إذا شاء ألاّ يهلك جوعاً. أم أن الزعيم أراد أن يقول إن معرفة خفايا الأرض رهينة التنقّل في أرباع الأرض؟ أيُعقل أن يكون التيه في ربوع الأرض فطنةً كافية لمعرفة سرّ الأرض إلى حدٍّ يجعل زعيماً يُحسن الظنّ

بمن لم يجد ما يفعله بنفسه في هذه الأرض سوى احتراف الرعي فيرفعه إلى مصاف كهنة الزمان الذين يستطيعون منازلة مجهول الأرض الذي دسّ في بطن الأرض البذرة التي أبدعت نبتة كـ آسيار اللئيم ليكون الطعم الذي استجلب الأغراب ليستبيحوا بكارة الأرض؟

تساءل يوساس مراراً، ولكنه لم يجد مفرّاً من تلبية نداء الزعيم، لا لغرورٍ في نفسه، ولكن لأنه لم يشأ أن يخذل حسن ظنّ إنسانٍ في مركز جلالة الزعيم. حسن ظنٍّ ما لبث أن تحوّل في يقينه إحساناً، فاستعاده وهدهده حتى تحوّل بمرور الزمن إحساناً. والإحساس بالإحسان ينقلب هاجساً أليماً، ينقلب دَيْنَاً يستوجب دفع المكوس، اعترافاً بالإحسان. هذا كان سرّ هوسه بهذه النبتة الشريرة التي اكتشف الأسلاف مفعولها الخبيث فتولّى أمرها كهنة القبائل قبل أن يستصدروا في حقّها حكم التحريم!

نبتة اختارت الصحراء مهداً، أم اختارتها الصحراء لنفسها، لتكون لها في عزلتها أحجيةً، في وقتٍ كانت فيه الصحراء لأبنائها قدراً اختارته لهم، ولم يختاروه لأنفسهم، فاندسّت بين نباتاتها الشحيحة شاحبة اللون، هزيلة الساق، معتدلةً طولاً وحجماً، بلا جمال، أو خصال، أو ميزة أو صفات يمكن أن تنمّ عن إغواء، كأنها بهذا الجرم البائس تتنكّر لحقيقتها، أو تنفي عن نفسها الطبيعة المشؤومة التي تسري في أوراقها سمّاً زعافاً. فكم مرّة اجتثّها من جذورها وتفحّصها بين يديه، باحثاً في أوراقها أو سيقانها عن سرّ القوّة الجنونية المخفية في سائلها إلى الحدّ الذي يطيح بأعتى الأنعام فتتعثّر في سعيها، وتلفظ الرغوة من فمها، قبل أن تسقط أرضاً وهي تحشرج بأنفاس النزع الأخير!

كان في بعض الأوقات يناجيها. كان يسائلها. يستنطقها بصوتٍ عالٍ مستجدياً أن تبوح له بسرّها. وفي مرّاتٍ يتحسّسها. يلثمها كأنها بين يديه معشوقة تتمنّع وتتدلّل ولا تنوي أن تستسلم بلا ثمن مثلها مثل الأنثى، لأن الأنثى وحدها لا تهب نفسها بالمجّان أبداً!

وقد دفع به الفضول مرّة شوطاً أبعد فقضم منها ورقةً مستطيلةً باهتة استبقاها في فمه لحظات وانتظر. انتظر الأمر الجلل. انتظر أن يعصف به مارد الخفاء، أو تتزلزل به الأرض، أو أن تطيح

به السماء بصاعقة، أو يتلاشى فجأة من ساحة الصحراء، ولكن الصحراء لم تبتلعه، والسماء لم تتخطّفه، والمارد لم يعصف به، كل ما استشعره في تلك الوقفة الآثمة هو القشعريرة. قشعريرة تحوّلت مسّاً. والمسّ انقلب حمّى. حدث ذلك قبل أن يستطعم النبتة. قبل أن يطبق فكّيه ليسحقها بين أسنانه. فكيف إذا تجاسر ومضغها مضغاً؟ كيف إذا سال منها السائل، وسرى في اللعاب سمّها؟

.تزعزع برعدة، ولفظها من فمه

ولكن هل استسلم؟

!هيهات**!** كان الإغواء في حرفها أعظم سلطاناً من كل ألم، ومن كلّ قصاص

والسبب؟ السبب هذه المرّة كان الإحساس بالعار**!** فكيف يستطيع أن يدّعي البطولة في نجوع القبائل إذا خاف أن يقتحم باب المجهول المحشور في قمقم نبتة مجهولة لمجرّد أن الأوصياء على ناموس الأجيال سنّوا في شأنها ختم التحريم؟ كيف يخطف قلوب الصبايا، أو يتباهى في حضرة العذارى، إذا أدبر أمام بعبعٍ نصّبه الأسلاف فزاعةً مبثوثةً في عشبة شقية اسمها آسيار، دون أن يذهب بنفسه ليجرّب حظّه في اكتشاف حقيقة البعبع؟

لن ينسى أبداً كيف خرج في غزوة للمراعي يوماً لاستجلاب عيّنة من روح الغول؛ لأن الحصول على النبتة لم يكن عملاً هيّناً، لا في تلك الأيام، ولا في أيّ يوم. فنموّها رهين مواسم استثنائية، ترتوي فيها الصحاري بمياه أمطار خريفٍ مبكّر، أو مياه أمطار ربيعٍ متأخّر. وليست كل أمطار أيضاً، ولكنها الأمطار ذات المزاج الجنوني التي تنهال بغزارة كأنها تجلد اليابسة جَلداً، مصحوبةً بثالوث: الرياح والرعود والبروق. ولمّا كانت الأرض جنيّةً ماكرةً ألهمت حتى الزواحف أو الطير كي يبدع في اختيار الحصون التي يخفي فيها صغاره أو بيوضه، بعيداً عن الأنظار، فليس لها أن تحتار في أمر إخفاء كنوزها أيضاً إذا كانت هي أمّ الحِيَل التي ألهمت الكائنات الحيلة. لهذا السبب اختارت الأرض يبيساً ذا طبيعة مختلفة، ليكون عشّاً يحمي فاكهتها النفيسة**!** وهو يبيس طينيّ، غليظ، أحمر الأحشاء، يعتلي هامات بعض المرتفعات، أو يتشبّث بقيعان بعض الشعاب المسالمة، .على طول المدى الصحراوي المتاخم لشريط الشمال

من أحد هذه المواقع المنيعة انتزع يوساس فاكهته في تلك الرحلة، ونزل الحضيض كي يجرّب .حظّه مع التنّين

..تأهّب طويلاً قبل أن يقتحم الحرم، ويحطّم ختم التحريم

التقم حفنة أوراق دفعة واحدة، ولكنه لم يستَبْقِها في فمه وينتظر كما في المرة السالفة، بل طحنها بأسنانه وشرع يمضغ. مضغ بلا تردّد. مضغ. مضغ، إلى أن استشعر رحيق العشبة يدرّ السائل، المشوب بمرارة، ويندفع ليتماهى مع اللعاب.

لم يستشعر قشعريرة هذه المرة، كما لم يحترق بالحمّى، ولكنه أحسّ بخدرٍ لئيمٍ يزحف ببطء مع اختلاط الرحيق بالرضاب في فمه ليستولي على كل عضوٍ في جسده. لذّة؟ تخلٍّ؟ تسليم؟ أم أنه.. غياب؟

ربّما كان غياباً، وربّما وَجْداً من الجنس الذي يستولي عليه إذا تمادى الحنين المستفزّ بنغم اللحون فيشتطّ ويسبح في رحاب الرؤى السماوية. هذه المرة سرح أيضاً في ساحات الرؤى السماوية، وفي مداراتٍ أبعد من منازل وطن الرؤى السماوية. لا يستطيع أن يجزم اليوم، ولا في أي يوم، كم من الزمن استغرقت هذه الشطحة، ولكن ما لم ينسه أبداً هو الشحنة النارية التي التهبت في جوفه تالياً، ليفزّ من المكان بقفزة خرافية، وينطلق. انطلق فلم يلامس بقدميه الأرض، كما خُيّل له لحظتها، ليدرك يقيناً أنه لا يعدو، ولكنه يطير، يطير، يطير، إلى أن اختفت من الدنيا الصحراء واختفى هو من دنيا الصحراء.

لا يدري ماذا حدث بعد ذلك. كل ما يعلمه أنه، عندما استيقظ من الغيبوبة، وجد نفسه طريح أرضٍ لم يعرفها، مبلبلاً، ومشوّشاً وخائر القوى، وناسياً حتى اسمه. ظلّ يستلقي على ظهره، محدّقاً في الفراغ ببلاهة، محاولاً قدح الزند في ذاكرةٍ مشلولة كي يستجلي ماذا حدث، ولكن عبثاً. أعجزه الزند، وخذلته الذاكرة فانتابه يأسٌ مُخزٍ، فاستسلم وغيّبه النعاس. لم يدرِ كم استغرقت نومته، ولكنه عندما استيقظ شعّت الذاكرة بقبسٍ ضئيل رغم هيمنة الظلمة. ولكن القبس في الذاكرة تسلّل من موقعه في الذاكرة البائسة ليخترق ظلمة المكان بسهمٍ نحيلٍ من نور. لحظتها دبّ فيه دفءٌ كالإلهام. إلهامٌ انساب به، أو فيه، وئيداً، مخاتلاً، موحياً بما يضمر أكثر من إيمائه بما استظهر، إلى أن استوقفه أمام فم مغارةٍ عميقةٍ قرأ على صلدها الأخرس مخطوطاً محفوراً برموز اللغة المنسيّة عرففيه مخلوقاً اسمه: يوساس!

عندما عاد على عقبيه باحثاً عن الوطن الذي انطلق منه يوماً، ليهتدي إلى المكان بعد عناءٍ وجيع، استقبلته النجوع بحفاوة استهجنها. ولكن الرعاة حدّثوه فقالوا إنهم فتّشوا الصحراء كلّها لأمدٍ استغرق الأسابيع، وعندما فقدوا الأمل نصبوا خباء المأتم، لأنهم أيقنوا أنه ربّما جُنّ، فانتهك الناموس والتهم عشبة الجنّ!

وصيّة الزعيم الموجعة سبقتها وصيّة أخرى يوم أخذه من يده وسرح به في الفلوات نهاراً كاملاً، قبل أن يكشف له عن نيّته في الاحتيال الطفولي على أفواجهم التي ظلّت تتدفّق في سبيل الغرب بلا توقّف، فقال: «اخترتك من بين كل الدهاة لتكون لهم دليلاً، ولكنه الدليل الذي كُتب عليه أن يضلّل. ضلّلهم لئلاّ يهتدوا في طريقهم إلى أراضينا الخصبة، فيقيموا فيها، ليصيروا لنا فيها وتداً، وفي الوطن سادةً!».

سخّر له ثلاثة فرسان ليكونوا له عوناً في عبور المسافة التي ستنطلق من مشارف «برقا» بعد أيام. في الطريق إلى هناك استرجع سيرة العشبة الشقيّة التي غَدَت فجأة غصّةً في حلق الوطن. فالدُّخلاء جرّبوا مفعول النبتة على الجياد المستخدمة في السباق. ويقال إنهم لم يكتشفوا مفعولها السحري إلاّ في حلبة السباق. ثم استغلّوها تالياً في حفلات المجون بسبب فعاليتها في ممارسة الفحولة مع غانياتهم اللاتي يروقهم أن يصفوا شبقهن فيقولوا إنهنّ بلا قاع. ولكن الهوس الحقيقي بالعشبة لم يبدأ إلاّ يوم سوّقها الخبثاء كترياقٍ لكل الأمراض، بل والدواء الشافي لوباء المخلوق الفاني وهو: الشيخوخة.

بعدها عمّت الحمّى الصغار والكبار، الرجال والنساء، فانتشر الخلق في السهول المجاورة في حملاتٍ جماعية لجني المحصول النفيس الذي صار، منذ تلك الحقبة، يباع في أسواق قورينا وبرقا، وعبر إلى الجزر، قبل أن يقتحم أبواب حاضرة الزمان الهاجعة على شواطئ اليمّ في الشمال.

حمّى البحث عن آسيار، أو سلفيوم، برطانة الأغراب، غذّت النهم إلى الأرض فتدافع القوم شمالاً في أفواج. ليس هذا وحسب، ولكن مرسوماً ما لبث أن صدر في عهد أركسيلاي الأول قضى بتحريم تداول العشبة وجعل تسويق الكنز ثروة وطنية بيعها حكر على جلالة الملك وحده. ولم يمضِ وقت طويل على هذا المرسوم حتّى غزت الأسواق مسكوكة ذهبية متوّجة بصورة الملك جالساً برأس مطوّق بأوراق النبتة الأسطورية بدل إكليل الغار، ممسكاً بربطة أخرى بيده اليمنى إمعاناً في وصم سيمائها بالقداسة، ممّا استنزل فيها قوّة شرائية خيالية. وقد حالفه الحظّ فوقع بصره على العملة في يد أحد التجّار مرّة، فتأمّلها مليّاً مفتوناً بجمال الصنع، ولكن الرجل كشّر في وجهه بشراسة بلسان حالٍ يقول إن مشاهدة العامّة لعملة كتلك تجديف في حقّ الملك، وفي حقّ الآلهة التي خلقت الملك، لأن ثمن مسكوكة واحدة يكفي لشراء صفّ رجال على شاكلته!

أمّا «برقا» التي وقف على مشارفها لاستجلاب القطيع الخارج في غزوة صيد الكنز النفيس فقد شيّدها شقيق أركسيلاي الذي فرّ من وجه شقيقه بسبب النزاع على العرش، ولكن الملك لاحقه

بالجواسيس ليكتم أنفاسه بأياديهم في عقر داره التي اختطّها لتكون له عرشاً بديلاً لعرش قورينا في منتصف الطريق زمن فراره. وقد أطلق عليها اسم «برقا» تيمّناً بالطريق، لأن

برقا» في لغة السكان الأصليين إنّما تعني «الطريق». وقد بدأت تنتعش وتنمو في الأعوام» الأخيرة بفضل قربها من مراعي الكنز النفيس حتّى نافست في العمران، وفي تعداد السكان، قورينا .الأمّ. وهو ما ضاعف حقد الملك على المدينة وعكّر صفو العلاقة بين المستوطنتَين

.خارج أسوار المدينة وجد ترجمان القوم في انتظاره

كان في قامته مارداً، ببشرة صافية، وسيماء تنضح بالعافية. قال إن اسمه «آغافون»، أتقن الرطانة المحلية بفضل وقوعه أسيراً في عهدة إحدى القبائل في إحدى المعارك التي لم تنقطع منذ نزل .«ضيفاً على المستوطنة قادماً من جزيرة «ثيرا

لاحظ يوساس كيف ضحكت في الرجل السيماء عندما استقبله مرحّباً، فاستبشر، لأنه آمن دوماً أن الإيماء الخفيّ، الذي قرأ فيه دوماً طفولةً، هو الذخيرة التي لا تقدّر بثمن في ملامح أي رجل، والضحكة المكتومة في وجه الترجمان بشارة. لم تهلّل في الرجل السيماء وحدها، ولكن هلّل فيه :اللسان أيضاً

!يسعد التائه الأبدي «أوليس» أن يلتقي الدليل الذي سينتشله من ظلمات الحضيض السفلي

:ثم تضاحك ببراءة وهو يضيف

نحن لا نحسن القول، بل لم نكن لنحسن الحياة، ما لم يهرع لنجدتنا هوميروس؛ لأن الإلياذة !ناموسنا، تماماً كما كان «آنهي» ناموسكم

أدهشه أن يتحدّث سليل أغرابٍ أقبل بالأمس القريب من أوطان المجهول القابعة وراء البحار عن أمرٍ حميمٍ، وفوق كل شيء محاط بمراسم التحريم، كما هو الحال مع الناموس المفقود «آنهي»، بل ربّما لم تكن الأجيال لتحيطه بمثل هذه الهالة الكثيفة من السريّة لو لم يكن مفقوداً. ولكن مجرّد ورود هذا الاسم المقدّس على لسان إنسان الأغراب مسّ في نفسه وتراً سحريّاً ترجم إحساساً يقول إن الغرباء أيضاً أناسٌ يستطيعون أن يؤمنوا بوجود الناموس، ويستطيعون أن يعترفوا بوجود اللوح الأسطوري المفقود «آنهي». وهو ما سيعني أنهم يستطيعون أن يفهموا، ويفكّروا، ويطلبوا الصواب، إذا أخطأوا، من خزنة الحكمة المخبوءة في الألواح المنسيّة مثلهم في ذلك مثل قومه

تماماً. وليس له أن يقف في وجه جموعهم التي لم تكن لتهجر قدس الأقداس المسمّى وطناً لو لم تدفعها الحاجة: الحاجة إلى القُوْت، أو الحاجة إلى الأمان، أو الحاجة إلى النجاة من الوباء.

لقد استشعر إثماً عميقاً في طريقه إلى المكان. إثم الذهاب لجلب أغرابٍ جاءوا ليستبيحوا أرضه. إثم العمل دليلاً لقومٍ جاءوا ليفتضّوا بكارة وطن! لم يكن ذلك إحساساً بالإثم وحسب، ولكنه إحساسٌ بإثمٍ مجدوح بالعار، بل بأشنع أجناس العار. ولكن.. ولكن مزحة هذا الضيف في شأن الناموس هوّنت في قلبه الحريق، وأيقظت فيه ما كان له دوماً قرون استشعار: الفضول!

في تلك الوقفة، قبل أن يأمر «آغافون» رجاله بالانطلاق، لاحظ وجود مخلوقٍ صغير، يتخطّى وراء قامة الترجمان، متشبّثاً بتلابيب ثوبه الفضفاض، ظلّ يسارق إليه النظر خفيةً طوال حواره مع الرجل. كانت تلك طفلة لم تجتز عتبة الاثني عشر، أو الثلاثة عشر عاماً، ترتدي ثوباً جلدياً زاهياً، مطرّزاً في الحواشي بحبّات الخرز التي تجسّم رموزاً شبيهةً برموز الربّة «تانّيت». كانت تبتسم له في كل إطلالة، ثمّ تعود فتتوارى خلف قامة الرجل. ابتسم لها أيضاً في إطلالة تالية، وعندما لاحظ «آغافون» الاستفهام في عينيه تطوّع بإيضاح:

هذه «ثيراسين» ابنة أختي. اخترنا لها الاسم تيمّناً بجزيرة «ثيرا» وطننا الذي أجبرتنا الآلهة على تركه دون أن ندري أي خطيئة اقترفنا في حقّها.

طأطأ. في السيماء غاب الصفاء واغترب في الوجه إيماء الطفولة، قبل أن يضيف:

لا أحد يدري أي بلاء هو أن يضطر الإنسان لهجر الوطن. الآلهة وحدها لا يجب أن تجهل ما معنى أن يحيا الإنسان بلا وطن، لأنه القصاص الذي لا تشتريه آثام السلف مهما عظمت. أعرف أن منطق الآلهة منطق يختلف عن منطق الأمّة الفانية، وأعرف أن حُجّتها أقسى من أن يعترف بها البشر، ولكني أعرف أن الحكم الغيابي جرمٌ غيابيّ في حقّ الجاني!

شيّع نحوه سحنة شاحبة ممهورة بالختم الوحيد الجدير بأن تتلا الصلوات من أجله: الإحساس بالجور.

أهلك لا يدرون أننا نزلنا أرضهم تلبيةً لنداء إله المعبد، لا تلبيةً لرغبتنا، ولو علموا حقاً لما رفعوا الأنصال في وجهنا!

منطق الرجل شلّ لسان يوساس في وقفة ذلك اليوم، لأنه أيقظ فيه نقطة ضعفه القديم: الشفقة!

الشفقة هي المرض الذي لم يعترف يوماً لا بحجّة عقل، ولا بحقيقة مترجمة في حرف منطق، ولهذا كانت السلطان الأقوى من كل سلطان، وإلاّ لما استسلم في حضرتها الجبابرة. في تلك اللحظة انتشله قدوم امرأة لفظها جوف الحصن قدّمها له «آغافون» قائلاً:

«هذه أختي «سيراس» أمّ الشقيّة «ثيراسين»!

حيّته الأخت بإيماءة فاترة، فأضاف الأخ بلهجة ذات معنى:

«سيراس» أرملة! قُتل رجلها في حرب السبعة آلاف شهيد، آمل ألاّ تكون أحد أبطالها حتى لا تتوهّم أنّك قتلت رجلها!

حشرج بضحكة، في حين أمسكت المرأة بيد وليدتها قبل أن تدبر. أدبرت فتابعها وهي تدبر. امرأة فخمة، ممتلئة، ثريّة البدن، مكابرة القامة، تتفلّت خصلات شعر ذهبية من العصابة التي تحكم الطوق حول رأسها. لاحظ كيف استدارت عند باب السور لتهدي له نظرة. الصبية أيضاً التفتت وهي ترطن بكلام، وتشير نحوه بسبابتها. في الجوار جعجع صوت «آغافون»:

ألا يروق الفارس أن يغتنم الحسناء التي ترمّلت بحدّ سيفه؟ ألم تكن الحروب هي التي سنّت الناموس الذي يقول إن قدر امرأة الفارس المهزوم، أن تنام في مخدع المنتصر الذي قتل رجلها؟

عاد يختنق بحشرجته التي لا تتناسب أبداً مع سيماء الصفاء في وجهه.

فأجابه قائلاً:

إذا قبلت العرض، وشاركت امرأة الأغراب مخدعي، فلمن سأترك بنات جلدتي؟

تضاحك الترجمان مرّة أخرى. مازح بخبث:

ليس لك أن تخشى على بنات جلدتك بوجود الترياق! بوجود بلسم كـ سلفيوم سوف تحتاج كل ليلة إلى سرب نساء في المخدع!

عاند ضحكته المكتومة قبل أن يستدير ليأمر الأعوان بحلول ساعة الانطلاق.

في الطريق إلى مراعي الغرب تحدّث «آغافون» فقال إن أكثر من ثلاثة أرباع نساء المستوطنات فقدن رجالهنّ في حرب السبعة آلاف شهيد. وعندما استفهم منه عن سبب زهده في اختيار قرينة في مثل هذا المرتع السخيّ أجاب ضاحكاً أن سبب عزوفه إنّما يكمن في كثرتهنّ، لأن الرجل في هذه الحال لن يختلف عن تيس الماعز الذي يفضّل أن يتنقّل بين قطيع الإناث في المرعى، على أن يجد نفسه أسير أنثى واحدة في المربط!

في الأمسيات التي تعقب حطّ الرحال، واستسلام أهل القافلة للاسترخاء، يروق الرجل أن يستلقي بجواره بعد تناول طعوم العشاء، ليناجي النجوم ويتجلّى. قال إنه محظوظ لأنه استأسر لفارس من قبيلة «ناسامون» نزل به واحة «أوجله» ليستخدمه في استصلاح الأرض، والقيام بشأن زروع له هناك. وقد وقع في حبّ امرأة نارية أقل ما يمكن أن توصف به أنها جنّية. ولكنها ما لبثت أن كشّرت في وجهه باحتقار ورفضته يوم ارتكب خطأً مميتاً واعترف لها بأنه أسير، لأن الأسير في عرف القبيلة أحطّ شأناً من عبد! لأن العبودية، في يقينها، ذلّ الجسد على سبيل الميلاد، أمّا الأسر فهو ذلّ الروح أيضاً إلى جانب ذلّ الجسد، لأنه وليد الجُبن.

رفضته قريناً، ولكنها أحسنت إليه أسيراً، لأنها لم تتردّد بعد ذلك في أن تفعل المحال كي تدبّر له حيلة للنجاة من الأسر. وهو ما لم تكن لتفعله أبداً فيما لو لم تعلم حقيقة وقوعه في الأسر لأنه لن يكون في نظرها عبداً آنئذٍ، كما اعترفت في الليلة التي سبقت الفرار.

سكت الترجمان أمداً. سرح في رحاب ثوب العجب المعتم، المرصّع بنثار الجوهر، المطروح في الأعالي كحجاب أبديّ سخيّ بلا بداية، وبلا نهاية، غامضاً في وجوم الليالي، واعداً في مرح النهارات، فلم يجد المريد الملقى على طين الأسافل سبيلاً للتعبير عن عجزه، وعن شجنه سوى البيان الخجول المبثوث في حرف التجلّي: «فقدتُ الحبّ في ذلك اليوم، ولكني لم أتخيّل أنّي بفقد الحبّ سأنال الحرية!».

الحرية!

الحرية من سجنٍ اسمه الواحة هو الخلاص الذي عرفه يوساس يوماً، لأنه سبق ووقع أسيراً في قبضة هذه الجنيّة أيضاً. كل ما هنالك أنه سبق إليها بمشيئة قدر، لا بمشيئة بشر، كما هو الحال مع الترجمان. كم بلغ من العمر في ذلك العام؟ ستّة أعوام؟ أم سبعة أعوام؟ أم أنها أكثر؟ لا يدري. من أين له أن يدري إذا كان القوم أنفسهم لا يدرون يقيناً، لأنهم إن اعترفوا بوجود الفصول، إلاّ أنهم أنكروا وجود الأعوام ما لم يتوّج حلولها مصاب جسيم كنشوب حرب، أو نزول جدب، أو حلول

وباء، أو هجوم طوفان، أو وفاة حكيم أو زعيم أو بطل. يلتئم محفل العقلاء في الليالي التي يكتمل فيها القمر بدراً لتبدأ الصلاة. تبدأ صلاة استجواب الذاكرة لاستخراج شهادة الميلاد. يوساس إيوا آوتاي

وان الزمّة تاتزّارت (يوساس انبثق عام المحنة الأولى)، أو: يوساس إيوا آوتاي واديبا آمغار وان أمزّاغ (يوساس انبثق عام وفاة زعيم القبيلة). والشقيّ بالطبع هو مَنْ بخلت عليه الأقدار بشهادة ميلاد فلم ينبثق لا في عام محنة، أو الجدب، ولا في عام وفاة زعيم القبيلة أو بطل الحرب، ولا في عام طوفان أو وباء. إنه في هذه الحال لم يولد، لأن أعواماً يسود فيها السلم، وينعم فيها الناس بالبحبوحة، ويتمتّعون بالعافية، ولا يهلك فيها زعماء القبائل أو أبطال الحروب، ليست أعواماً، هي في ناموس القوم زمنٌ ضائع، لأن الناس لا يحسّون بوجودها بسبب غياب الألم. لأن الناس في مسيرتهم الفانية لا يعترفون إلاّ بالشدائد، ولا يخجلهم أن ينكروا الزمن المسالم، الزمن الحميم، الزمن الوديع الذي لا يُقبل ليَطعن بالحراب. الناس لا يعترفون إلاّ بالزمن المعادي. أمّا الزمن المسالم فهو زمنٌ بلا هوية. زمنٌ بلا اسم. زمنٌ لقيط. زمن اللازمن. وهو قدر كل مَن عبست في وجهه الحظوظ وتزامن نزوله من بطن الأمّ مع وجود فسحةٍ هيمن فيها الزمن الآمن، الزمن اللقيط، لأن الوليد في هذه الحال ستصيبه عدوى هذا الزمن، وسوف ينال اسماً، ولكنه سوف يفقد بالمقابل ما هو أنفس من الاسم: سوف يفقد فحوى الاسم. سوف يفقد تاريخ الاسم. سوف يفقد شهادة الوجود. كم مرّة تناطح الأشياخ برؤوسهم في الخلوات تحت ضياء البدر ليستنطقوا الذاكرة العصيّة علّها تجود عليهم بعلامة في الأيام الخوالي تصلح حجّةً لاستخراج شهادة ميلاد؟ تناطحوا مراراً، وغمغموا بصلواتهم كثيراً، لأن ذاكرة الزمن الآمن كانت ختماً مطلسماً، رقعةً ممحوّةً، نسياً منسيّاً، رغم حداثة العهد، فبخلت على القوم بالعلامات الخبيئة في بطن الزمن الأبعد، الزمن الأبعد الأسبق على زمن الميلاد، للاستدلال بها على عام الميلاد، ولكن الأمد الأقدم عهداً امتنع أيضاً، فيئسوا.

يئس القوم، ولكن القدر لم ييأس، لأنه ما لبث أن تولّى الأمر بالإنابة عنهم فاستخرج له شهادة ميلاد. شهادة ميلاد مختلفة في الاسم وفي الفحوى، لأنها شطبت شهادة الميلاد من بطن الأمّ، وسطّرت شهادة أخرى بالميلاد من بطن الألم. بطن الألم هو بطن القدر. بطن الألم هو بطن ربّة الأرباب «تانّيت» التي حكّمت في شأنه الصحراء وحدها لتكون له أُمّاً سيّما بالنسبة لمخلوقٍ مثله لم يعرف لنفسه أمّ بطن، لأن أُمّ البطن اختفت من رحاب الصحراء قبل أن يتبيّن لها وجهاً.

لم يفلح في إجبار الذاكرة على البوح تفصيلاً، ولذا ظلّ المستهلّ الذي قطع به السبل مجهولاً. قيل إن الجداء التي خرج بها إلى المرعى المجاور استدرجته بعيداً، وروى آخرون أن أهل الخفاء الخبثاء الملقّبون في ألسنة القبائل باسم «آلهينن» (الجنّ) هم من اختطفه في نيّةٍ لاستبداله بسليل من طينتهم، ولكن قوى مجهولة أخرى تدخّلت في آخر لحظة فأفسدت خطّتهم. تدخّل رسول الربّة وانتزع منهم وديعته، لأن ربّة الأرباب اختارت له مصيراً آخر. اختارت له أُمّاً أخرى عندما

استودعته بطن التّيه، لتلده سليلاً بهويّة أخرى هي هويّة بطن التّيه. ففي التّيه وحده تختفي الأنساب، وتتبدّد شهادات

.الميلاد، وينقطع حبل السرّة بكلّ ما حسبه المخلوق في دنياه ملاذاً

.لا ينسى أبداً المواجهة الأولى مع المساء الذي أدرك فيه أنه ضاع

تزامن الاعتراف الرهيب مع المغيب، فاستعار كل شيء بُعداً آخر. لم تعد الصحراء صحراء، لم تعد السماء سماءً، لم يعد الأفق أفقاً، لم يعد هو نفسه المخلوق الذي عرفه قبل تلك المواجهة يدبّ على قدمين حافيتين، يرتدي ثوباً مهلهلاً، ويستجير من الأرواح الشريرة بأحجيتين سحريّتين مدسوستين في رقعتين مستقطعتين من جلد حيوانٍ سحري هو الغزال. اغترب كل ما عرف عن معناه لا لشيء إلاّ لأنه اغترب. وعلّ أقسى شيء اغترب عن فحواه هو الاتّجاه. الأركان الأربعة تبدّدت في غمضة لا لشيء إلاّ لأنه فقد القدرة على اختيار الوجهة، فتلاشى المعنى ولم يعد الشرق يعني شرقاً، ولا الغرب يعني غرباً، ولا الشمال يعني شمالاً، ولا الجنوب يعني جنوباً. اغتراب الجهات عن الجهات غرّب الصحراء كلّها عن الصحراء، فتنكّر له المكان أيضاً. ولو لم يشاهد في قوس الأفق المزموم شطر الشمس الغارب قبل أن ينطفئ ويختفي لأيقن أنه لا يدبّ في أرض، ولكنه يخطو في الحدّ الفاصل بين السماء والأرض. ولكنه برغم الإحساس بالسباحة في الهواء دبّ. سلّم زمام الأمر لقدميه فسعى في الأرض بلا وجهة، وبلا نيّة في تحديد وجهة، لأن كل الجهات بالنسبة له صارت دائرة معادية وفوق ذلك خاوية. تنزّل الغروب، ولكن الضوء لم يمت في الأفق، لأن عمر الضياء في فصل الشتاء يطول بعد الغروب كأنّه تعويض على قصر عمر النهارات في الشتاء، فسار متشبّثاً بالأثر الوحيد في الصحراء الدّال على وجود اتّجاه وهو الغروب، حيث شاهد آخر شطر من قرص الشمس وهو ينطفئ، لينطفئ معه آخر دليل يمكن أن يحيي فيه الإحساس بوجوده في مكانٍ مشهود، لأن اليابسة الموروثة عن أجيال الأسلاف، والمسمّاة «تينيري» (الصحراء) سكنته، منذ تلك الرحلة، كبُعدٍ مفقود، وكلّ ما مَتَّ لها بصلة أيضاً صار غنيمة في هذا البُعْد المفقود. قطع في الليل مسافةً ميمّماً صوب مسقط القرص الناري. مع هيمنة الظلمة هيمن الصقيع أيضاً. صقيع البريّة الذي يغزو الأبدان ليفترس في الأبدان العظام، ولكنه مضى يستعين على نهم الصقيع بترياقٍ وحيدٍ هو المشي، كما استعان على الظلمات في الطريق بطغيان النجوم السخيّ. ولكن ما لم يجد لمواجهته حيلة هو خطرٌ آخر لا يدري لماذا صار له وسواساً لجوجاً منذ .أدرك أنه أضاع السبيل إلى الخباء، وهو: الوحوش

لقد نسي الظمأ، ونسي الجوع، ونسي الصقيع، ولكنه لم ينسَ في طريقه أنه أمسى ضحيّةً تنتظر الوقوع بين أنياب الوحوش: أُسودٌ وضباعٌ وذئابٌ تجوب البريّة وتتّخذ من الصحراء بيتاً، فبأيّ حيلةٍ يستطيعُ طفلٌ أعزل أن ينجو من شرّها؟

ناله الإعياء فتوقّف. توقّف فاستشعر في قدميه رطوبة. تفقّدها فوجدها تنزف دماً. حزيز البرّ سلخ الجلد ونهش القدمين الحافيتين في حمّى سبّاقة نحو الأفق الدّامي حيث هوى القرص. استوى واقفاً. رسم بالبدن دائرة حول

نفسه، ولكن كل الأركان تنكّرت له وعبست في وجهه، لأن المتاهة فيها بلا وجه، والسيماء المحتجبة بالعتمة خرساء، بعد أن انقطع فيها امتداد المدى، وتعرّت من الجبال أو الروابي، وانقشع، في فلواتها الشجر، وغاب في الأنحاء حتى الحجر، ولم يبق في رحاب اللامتناهي، المتوالد عبر المدى، سوى حزيز مسعور، تشظّى يوماً بانفجارٍ خرافيّ، ليكسو اليابسة برؤوسٍ معادية منتصبة كالحراب، كأنها شراك أسطورية ملفّقة من أنصال الحديد.

وقف مذهولاً لأنه لم يعرف ماذا عليه أن يفعل بنفسه. ركع. ثم استلقى فتلقّفت الأرض المفروشة بالسكاكين جسده الهزيل. تطلّع إلى الأعلى فهرعت لملاقاته حشود النجوم. تعجّب لأنه لم يرها بهذه الكثافة، وهذه الفتنة، قبل اليوم. أنصت فسمع الصمت. صمتٌ يدمدم، في سكونه الخفيّ بصوتٍ مبهم، ولكنه عميق. في صوت الصمت سمع وصيّة الأرض التي سكن إليها فتخلّلته وسكنته. سمع الوصيّة حرفاً برغم أنه لم يسمعها قبل ذلك اليوم إلاّ حَدَساً، وربّما وَحْياً، فصمّم أن يستسلم، ويسكن، ويتخلّى استجابةً لنداء الأرض.

سرى فيه خدرٌ لئيم، مستعارٌ من جوف الأرض، فغاب عن الأرض مسكوناً بحكمة الأرض. تماهى بالأرض عملاً بوصيّة الأرض، فتبدّد الخوف من كل ما متّ بصلةٍ للأرض، لأن كل ما أخاف، وكل ما يخيف، رهين الأرض، ولا عاصم من شرور ما دبّ في الأرض إلاّ الأرض. غاب. وعندما استيقظ في السَّحَر، المجلّل بفيوض القبس، لم يصدّق ما رأى: كان الاستواء الصحراوي المميت في قسوته، المستميت في فراره من حدوده، مستوراً بقناعٍ ساطعٍ في بياضه كأنه كفن. أنكر الرؤيا، فأغمض عينيه. انتظر أن يهرع لنجدته الحلم، ولكن الأضغاث لم تَجُد بغير إحساسٍ بالصقيع. تحسّس أطرافه فلسعه البلل. استوى جالساً ليكتشف أنه يرتجف. انتصب واقفاً فاستقام في وجهه البساط الموجع، الناصع. انحنى ليتفقّد فرشة الكفن المطروحة فوق شظايا الحزيز بالجوار فخذلته الأصابع التي تصلّبت أيضاً وشلّها الجمود. شيّعها في وجهه ونفخ فيها من روحه، متمتماً بالامتنان لربّة الأرباب التي لم تجرّده من الأنفاس أيضاً إلى جانب الماء والطعوم والمأوى. نفخ حتى زعزعه دوار، ثمّ همّ بأن يخطو فخذلته القدم أيضاً. كانت ممزّقة بالجروح، ملطّخة بالدم الذي استنزفته منها ألسنة الحجارة الشرهة، فتيبّس، بفعل الصقيع، في كتلٍ حول القدم، فهوى أرضاً وانهمك يحكّ جوانبها في حذرٍ كي لا ينتهك الجراح فيستفزّ الدم. عاند أطرافه طويلاً، مستجيراً بالوجار الذي احتفره بجسده في جسد الأرض، بإلهامٍ من أمّه الأرض.

في تلك الأثناء كان الأفق قد تمخّض عن الضوء العصيّ، ولم تمضِ لحظات حتى تحرّر المارد ليغزو العراء الأليم بشعاعٍ جسورٍ بدّد غلالة الغيهب، وسطا على الكفن المنكر الذي حجب الصحراء عن الصحراء، لينقشع البياض، وتتحوّل طبقة الجليد إلى بلل، يتلامع فوق الحجارة المسعورة، تحت شعاع الشمس، قطرات ندى.

بدأ نهارٌ جديد، كأنه بداية عهدٍ جديد، ولكن امتداد الصحراء لم يستسلم.

كان عليه أن يروّض قدميه الجريحتين على اعتياد الألم في المرحلة الأولى، لأن إماتة الألم في الجسد لا تتحقّق إلاّ بمضاعفة الألم، فانطلق. انطلق صوب الغرب، أو صوب ما خمّن أنه غرب، إلى أن وقف في رحلته على أوّل أثر! أثر الظلف الذي لم يُكتب له أن ينساه أبداً، لأنه صار له الدليل الذي استعاده من التّيه، وذهب به إلى الخلاص.

لم يدرِ عمّا إذا كان أثر جاموسٍ برّي، أو بقرٍ وحشيّ، أو غزال، أو ودّان، أو تيس ماعز، لأن الكسوة الطينيّة، المتوّجة بحجارة الحزيز، تعيق وقع الظلف على الأرض، وتزوّر وضوح البصمة، أو حجم الظلف. ولكن ما لم يخامره فيه شكّ هو عهد البصمة، أو حداثة عهد البصمة، استشهاداً بأثرٍ آخر كانت البهيمة تحتفره في طريقها عند اصطدام ظلفها بالحجارة، فتتكشّف عن جرحٍ بكر مبثوث في طينة الأرض لم يستبحه مزاج الصحراء المبلبل بالرياح أو الأمطار أو حملات الغبار أو القدمة، فيفقد بشرته سريعاً.

الحدس ترجم له في ذلك اليوم سرّ البشارة التي رآها أهل الصحراء دوماً في العثور على الأثر. فبمجرّد عثوره على الأثر استشعر أماناً خفياً كأنه عثر على كنز أو ما هو أعظم شأناً من كل كنز ليقينٍ غامض بأن الأثر حبل نجاة، في حين لم تعرف الصحراء إنساناً واحداً عثر على كنز ثمّ جاد بكلمة مديح في حقّ الكنز. يكفي الأثر مجداً أنه يقود إلى الواحة، إلى الماء، إلى الإنسان، إلى أي قشّة تصلح أن تكون حُجّةً بوجود المكان، قشّة تستطيع أن تبعث الروح في المكان، وتعيد الثقة في وجودٍ ملموسٍ قيد مكان.

مضى الظلف العنيد، المشقوق إلى ظلفتين، يختطّ، في المفازة الحجرية المعادية، طريقاً بالأثر. يتوارى حيناً بفعل الوعورة، ويتجسّد حيناً آخر بظهور الوعوثة، إلى أن أفضى، بعد مسافةٍ أبعد، إلى أثرٍ أعمق وَسْمَاً، وأعظم شأناً، استقام في دربٍ احتفرته أنعام البريّة في صميم اليابسة الجاحدة، في سيرها إلى المراعي، أو في طريق عودتها من المراعي. هناك، في عرض هذا الدرب الجريء، المرسوم بعمق في قلب الصلد، بفضل السطوة الخفيّة المبثوثة في حرف الظلف، عثر على البعر. بعر طريّ، طازج، مما يعني أن أنعاماً عبرت حديثاً؛ ربّما في الصباح الباكر، وربّما البارحة، فتشبّث بالدرب. ولم يخذله الدرب، لأن استكبار المدى الحجري المعادي انكسر بعد مسافة

لينتشر الكلأ على جانبيه في بطون شعابٍ هزيلةٍ في البداية، ولكنها ما لبثت أن قادت إلى سهلٍ فسيح، مكتظّ بالعشب وشجيرات البر، ترتع في أنحائه أنعام داجنة. في البُعد تراءت أيضاً أشباح الرعاة.

في الواحة التي حمله إليها الرعاة لم ينسَ الظلف. لم ينسَ الأثر المسحور، المشقوق إلى نصفين، الذي تحدّى غطرسة المدى المديد، المسلّح بالوعورة، ليحفر في صلده الغاشم العلامة الحميمة التي انتشلته من برثن الكابوس، وبعثته من عدم. فكيف لا يعبد بصمة الأثر، ولا يذهب إلى الحدّاد لكي يسكّ له قطعة الحديد تميمةً مجسّدةً على هيأة ظلف؟ حدث ذلك قبل أن يُقبل الأب

من الصحاري ليستودعه صديقاً له أقام في الواحة منذ أمد ليكون له عوناً في حرث الحقول، لأنه لا ينوي أن يعيده إلى الصحراء من جديد بدعوى أنه هشّ، والصحراء لم تُخلق لأمثاله. وكان عليه أن يجرّ المحراث في حقل وليّ أمره الجديد كل يوم، ويجرّب أيضاً أن ينفخ الكير في أفران الحدّاد في سويعات الفراغ، ليعدم في حياته الجديدة أي متعة باستثناء رؤية الصحراء في المنام. صحراءٌ تفرّ به إلى الأبد، ممهورةً بختمٍ مهيب، يجسّد ظلفاً مشقوقاً إلى نصفين.

لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، كم استغرق مكوثه في ذلك الحبس الخانق بحساب السنين، ولكن العزاء كان دوماً في أحلام الليالي التي يتنقّل فيها بحريّة في الخلاء. حريّة ظلّت في يقينه معبوداً خفيّاً حتّى لو قادت إلى التّيه. بل ربّما لم تكن حرية حقيقية تلك الحرية التي لا تقود إلى التّيه. ولكن العزاء وهمٌ لا يلبث أن ينقشع، ليعود الإحساس بمكوثه في حدود الواحة البغيضة شَرَكَاً، سجناً، كابوساً ظلّ يكتم فيه الأنفاس إلى أن جاء اليوم الذي لم يعد يطيق فيه فسقط صريع المرض. فَقَد الشهيّة قبل يوم السقطة، وأجهش مراراً بالبكاء بلا سبب، وعاند غصّة لم يعرف ماذا يسمّيها أيّاماً، وغاب عن الحقل وعن فرن الحدّاد بسبب الحمّى، لتنتهي كل تلك الأعراض بالإغماءة التي أسقطته أرضاً. حام حوله وليّ الأمر ليسقيه رحيق العقاقير الغريبة الرائحة، المستحضرة من أعشابٍ مريبةٍ، قبل أن يستدعي ساحر الواحة الذي توضّحه مليّاً قبل أن يلتفت إلى وليّ الأمر ليقول:

!أَعِد النبتة التي اجتُثّت من تربتها إلى منبتها

ثم استدار خارجاً، ولكن وليّ الأمر لم يقنع بالترياق فلاحقه ليتشبّث بتلابيبه مستفهماً، فلم يزد الساحر أن هتمل بازدراء:

!إذا استبقيتموه هنا فسوف يموت

انسلّ الساحر ليتوارى خلف دغل النخيل، في حين وقف وليّ الأمر يتابعه حائراً. في تلك اللحظة أطلّت كاهنة عجوز برأسها من جوف الكوخ المجاور لتخاطب الرجل المنتصب فوق رأسه:

ألاَ ترى أن الشقيّ مصابٌ بداء الصحراويين إذا اغتربوا عن صحاريهم كأنّك لا تدري أنهم أشباح مثلهم مثل الجنّ الذين يصاهرونهم، ولا يطيقون مقاماً سوى الفلوات التي أنجبتهم؟

لم تكن تلك المرّة الأولى التي سمع فيها لغواً مماثلاً يجري على ألسنة أهل الواحة الذين لم يعرف لماذا ناصبوه العداء. عداءٌ مكتوم، ولكنه أبشع من العداء الصريح، لأنه لئيم. كانوا يتصرّفون كأنهم مخلوقاتٌ من طينة أخرى تنزّلت من السماء على هذه الحفرة الوضيعة ليشرّفوها بحضورهم فيها، لا لتشرّفهم هي باحتمال وجودهم فيها.

هذا الاستعلاء الزائف هو ما استفزّه في مسلك القوم الذين لا يدرون كم هم مدينون لهذه الأرض المضيافة التي قبلتهم في حَرَمها، وصبرت على

انتهاكاتهم لبكارتها لنيل المزيد، بدل أن يقنعوا بما وهبته لهم طوعاً، وآمنتهم بحضنها. ولكنهم لم يكتفوا أيضاً، فأثقلوا كاهلها بتشييد الحصون في نيّةٍ لكتم أنفاسها. ولم يتردّدوا في أن يحتقروا أهل الصحراء لأنهم متسوّلون في يقينهم، يعيشون عالة على ما تهبه لهم الصحراء لمجرّد أنهم لم يستبيحوا عرضها بفؤوسهم لينالوا منها غصباً ما لم تهبه لهم طوعاً، ولم يدروا أن الأرض التي استخفّوا بها خدعتهم وانتقمت منهم، لأنها استدرجتهم عندما استخدمت طمعهم في المزيد طُعماً أوقعهم في العبودية دون أن يدروا، لأن العبودية الأرذل من عبودية الأغلال هي العبودية التي نمارسها طوعاً على سبيل الاحتراف، فنتباهى بها ظنّاً منّا أنها موهبة اصطفتنا بها الحظوظ.

الفرار؟

لماذا على أهل الواحة أن يعيّروه بحياة الفرار إذا كانت هذه الخصلة التي يرونها رذيلة هي البرهان الوحيد على وجود الإنسان في هذه الحياة إذا قورنت بحياةٍ نسفح فيها العمر متشبّثين بالمكان في انتظار أن نبتةً تهبنا أُكلها على نحوٍ يقلب رحلتنا كلّها إلى مِيتةٍ حقيقية قبل أوان الميتة الختامية؟ هل جئنا لنسرح في الأرض، أم جئنا لنتوسّد صدر الأرض قبل ميعاد الاستسلام لصدر الأرض؟ إذا كانت نهاية مطافنا أن نتوسّد، فليس علينا أن نسبق العهد، لأننا لا نولد إلاّ لنفرّ، لا لنستقرّ، ما دام يوم الاستقرار آتياً، كل ما هنالك أنه آجل، والفطنة أن نعبر فيه فسحةً اسمها الأرض، لا أن نمتلك فيه أمّنا الأرض. لأن الفرار في الأرض الواسعة حرية، أمّا امتلاك الأرض فقبول بعبودية. فماذا أيضاً؟ المقايضة؟ تبادل السلع مع تجّار القوافل؟ اقتناء حوائج لسنا في حاجة إليها مقابل الغلال ومحاصيل الأرض؟ تلك محافل ابتدعها مدمنو الاستقرار سمّوها أسواقاً ليتبادلوا

فيها المكائد وغشّ بعضهم البعض، أغنتنا الصحراء عنها، لأننا لا نلتقي بأغيارٍ في رحاب معشوقتنا المفتوحة على اللامحدود إلاّ لنتبادل الحبّ المشفوع بأنبل قيمة في الدنيا وهي الزهد، فلا نتلهّف لسماع أخبارٍ لا تعنينا كما هو الحال في أسواق الواحات، ولكن لنستنطق السكون، فإن أعجزنا الصمت استعنّا عليه باللحون. بلى! اللحون هو ما يروقنا أن نتبادله، لأنه ترياق الوحشة، وبلسم عزلتنا، وصلوات دنيانا الموجّهة إلى حرم ما غاب عنّا، ولكنه يحيا عميقاً فينا، ولا حيلة لنا للتنفيس عن توقنا إلى البعد المفقود سوى التغنّي والتغنّي والتغنّي. ولهذا السبب حرّمنا العبث باللحون بابتداع أنساقٍ جديدة على طريقة أبناء الواحات، لأن ذاك في ناموسنا دنسٌ لا يختلف عن دنس ممارسة مكيدة اسمها التجارة.

نخالط أهل الخفاء ولا نتردّد في مصاهرتهم؟

ما يسمّيه أهل الواحات أشباحاً تسكن الخفاء هم الأمّة التي سبقتنا في استيطان الصحراء، وليس لنا كأضياف نزلوا عليهم لنقيم بينهم إلاّ أن نعمل بموجب العهد المبرم بين أسلافنا وأسلافهم، فنكتفي بأن نحيا كما يليق بأضياف، أي أن نمتنع عن المساس بكل ما من شأنه أن يخدش حياء هذا الحرم، فلا نخرّب، على سبيل المثال، عشّاً لطير، ولا نكسر عوداً أخضر لشجرةٍ.

بلا حاجة، ولا نقتنص طريدةً ما لم يضطرنا إلى ذلك جوع. وإذا اضطررنا لجوعٍ فليس لنا أن نغالي فنطلب المزيد، أو أن نبخل بالأضحية فلا نقتسمها مع ذوي القربى. ولكن هذا ليس ليس كل شيء في العهد المبرم بين الفريقين، لأن الخطيئة التي لا تغتفر هي الحفر. ليس الحفر في طلب جرعة ماءٍ بالطبع، ولكن الحفر الآخر، الحفر المنكر، الحفر في بطن أرضٍ هي في العرف أمّ طلباً للكنوز، سيّما معدن النحوس المسمّى في ألسنة القبائل ذهباً! لأن تعاطي الحفر إذا كان إثماً، فإن امتلاك معدن الشؤم بمثابة جرم يستوجب القصاص بموجب العهد. هذا العهد الذي أمسى بمرور الزمن ناموساً يحرس القوم من سلطان الإغواء، ويتربّص ليجيرهم من الدنس.

الاقتران بنساء الأشباح؟

ما يضيرنا أن نستجيب لرغبة نساء الخافية، فننجب من أرحامهنّ ذريّةً، إذا كنّ أكثر نساء الأرض فتنةً، أو أعظمهنّ حُسناً، وأتقنهنّ لفنون الحبّ قاطبة، وأقدرهنّ أيضاً على التنكّر في أجرام نساء الإنس، في وقتٍ لم ننكر فيه يوماً هوسنا بالنساء، لا استسلاماً لشهوة، ولكن عبادةً للجمال الذي لم يوجد إلاّ لتكون له المرأة تاجاً، بل له حَرَماً؟

لقد سجنه الأب في هذه البؤرة كي يلقّنه درساً. حبسه ليعلّمه ما معنى أن يفقد الإنسان وطنه الذي يستهين به عادةً لا لشيء إلاّ لأنه تلقّاه هبةً، ولا يعرف كم هو سعادة إلاّ عندما يغترب عنه في

منفىً كريه كهذه الواحة. لهذا السبب لم يتماثل للشفاء إلاّ في اليوم الذي أقبل فيه الرسول الذي انتشله من الهاوية وعاد به إلى الصحراء. هناك وجد في خباء الأب امرأةً أخرى لم يدرِ ما إذا كانت من بنات الإنس، أم من حسان الجنّ. كل ما يدريه أن مقامه هناك لم يدم طويلاً، لأن الأب ما لبث أن ذهب به إلى صحراء الجوار ليستودعه أحد أصحاب القطعان لكي يحترف الرعي. هناك تعلّم ركوب الخيل، ووطّد علاقة عميقة مع الظلف الذي ظلّ، منذ سيرة التّيه، محفوراً في قلبه وَسماً حميماً هيهات أن يمحوه الزمن.

هنا، وهناك، في هذا المرعى أو ذاك، في هذه الناحية من الصحراء الشاسعة، أو تلك، عايش الأنعام المسلّحة بلغزٍ اسمه الظلف، ليقف على سطوته الخفية التي استطاعت أن تقهر صلد اليابسة في عراء الحزيز، فتخطّ فيه الأثر رغم أنف الحجر.

في تلك الأعوام التي أخلص فيها لملل الظلف ربّى لربّ القطيع ثروةً، وربّى بفضل الظلف لنفسه ثروةً أيضاً. كانت الرؤوس التي تلقّاها من ربّ القطيع مقابل عمله تنتج في العام مرّتين، وفي كل مرة توأماً، إلى أن تنامت الرؤوس في قطيعٍ وفير استقدم له راعياً ليكون له عوناً بعد أن انفصل عن ربّ القطيع القديم.

في هذه الأثناء عرف النساء أيضاً. صبايا التقى بهنّ في المراعي قلن إنهنّ بنات القبائل التي تسكن الجوار. كنّ فاتناتٍ حقّاً، بعضهنّ شاعرات أيضاً، يتقنّ

العزف على أوتار «إمزاد» الذي استخلفته ربّة الأرباب «تانّيت» ليكون لها ترجماناً وصوتاً ينطلق بالإنابة عنها في الصحراء. وقد استهوته إحداهنّ مرّةً فأحبّها، ولكنها خذلته لتنقشع في أحد الأيام. بحث عنها في ربوع مضارب الجوار، ثم ساءل رعاة القطعان في الفلوات القريبة، بلا جدوى. تذكّر أن كلمة «جوار» (سيديس) في لغة القوم مفردة لئيمة تتكتّم عن دلالات ثريّة أكثرها تمويهاً ولؤماً هو معنى «الخفاء» لاجتناب تسمية الأشياء بأسمائها، لأن النطق بالاسم الحقيقي دوماً نداء، استدعاء، إستحضارٌ لصاحب الاسم لا تحمد عقباه في حال لم تصاحبه قراءة التعاويذ اللازمة إذا تعلّق الأمر بأهل الجوار الأبديين الذين اختاروا أن يستجيروا من شرور الإنس بالمقام في الخفاء، مما يعني أن الحسناء الضائعة لم تخطئ عندما استعملت كلمة «سيديس» للتعبير عن هويّتها الحقيقية، لأن زلل اللسان هو الخطيئة التي لا تعترف بها الأمّة الخافية، ويقال إن رذيلة الكذب كانت من ضمن الأسباب التي كفّرت أخيار تلك الأمّة بالمقام في رحاب البادية، والاعتصام بديار الخافية، لأن مَن اختار المقام في الخافية وحده يستطيع أن يشاهد دنيا البادية، بل ويستطيع أن يستعير جرم سليل البادية، ليرتاد ربوع البادية. أمّا سليل البادية فهيهات أن يفلح في ارتياد مملكة الخافية، ثم يعود إلى دنيا البادية سالماً!

في الرحلة نحو الغرب تنازعت الجبال والسهول امتداد المسافة، تماماً كما تنازع الليل والنهار أمد المسافة. فكلّما هوى الطريق إلى القيعان لتتسامح الأرض قليلاً، هرع لملاقاتها عرقٌ جديد ليقود الركب إلى الوعورة الجبلية من جديد. ولكن العزاء ظلّ في الحضور السخيّ لمياه الأنهار المطوّقة دوماً بصنوف النبوت وأنواع الشجر. أشجارٌ عنيدة تستميت في نزاعها مع الصّلد. وتتمرّد على طبيعتها السفليّة، وتتحدّى قسوة الحجارة الجبلية بالتطاول في القمم، وبسط نفوذها على الأعالي. تلك الأعالي المكابرة، الممتدة طوال اليابسة المحاذية لسواحل بحر ليبيا الجنوبية، كأنها سدٌّ خرافيّ شيّدته الطبيعة ليكون حدّاً فاصلاً بين الغمر والبرّ، لئلاّ يصيب اليمّ مسّ، فيفقد صوابه وينهدّ ليلتهم يبيس البرّ. ولكن استكبار الأعالي، ووعورة الدرب الذي يخترق السلسلة، لم يمنع «آغافون» من استخدام مركبته المهيبة التي تجرّها أربعة جياد. وكلّما سخر «يوساس» من مواهبه في ترويض الجياد، أو في حركاته لاجتناب الصخور المعادية، مازحه الرجل مردّداً:

ليس العار أن يقترف الفارس خطايا في سبيل يعبره للمرّة الأولى، ولكن العار أن يجهل من يدّعي الفروسية وصايا أسلافه في شأنٍ له علاقة بالفروسية!

«كرّر «آغافون» مزحته المبطّنة ثلاث مرات، وعندما استوضح «يوساس»، تنازل «آغافون:

ألا يدري فارس الصحراء أن هذه المركبة التي تجرّها الجياد الأربعة هي اختراع فرسان الصحراء القدماء عندما كانوا آلهة أركان الدنيا الأربعة بلا منازع؟

تطلّع إليه يوساس بشكّ، وعندما لاحظ في سيمائه إيماء الجدّ، غصّ بعبرة مفاجئة عاندها لحظات قبل أن يلفظ استفهاماً مكتوماً:

«أحقّاً يقول «آغافون؟

كان يوساس قد طوّع اسم «آغافون»، العسير في منطق ابن الوطن، ليحوّله إلى «آغّوف» الدّال في اللسان المحلّي على «الفزّاعة»، ففرح «آغافون» بالمعنى وتحدّث عن مزايا الفزّاعة قائلاً إنها حارس حقول، وحامية حمى القطعان، ولا تكتفي بهذه البطولة، ولكن لها فضيلة أخرى أعجب وهي قيامها بواجبها ليل نهار، فلا تعترف بتعبٍ، ولا يغمض لها في وقفتها جفن أبد الدهر. وهي بطولات أعجزت حتى بطل الأبطال هرقل، فما أحوجني في عملي إلى خصال هذه الجنّية.

توضّحه «آغافون» في مواجهة اليوم، تماماً كما توضّحه يوساس في مناجاة ذلك اليوم، ثمّ ابتسم:

لو علم جيلكم شيئاً عن أفضال أجدادهم التي فاضت يوماً على هذه الدنيا،

لكان لأهل هذا الوطن شأنٌ آخر، لأن بصماتهم مطبوعة على كل رقعة أرض، ولكن البليّة أنّكم تفعلون، ولكنكم تستكبرون، وتستهينون بتدوين ما تفعلون!

القول أيقظ في يوساس شجناً، فطأطأ. كانت القافلة قد حطّت الرحال في فسحةٍ محصورةٍ بين جبلين، محفوفة بالشجر، قبيل الغروب، فعاند الرجال الأثقال والقطعان والجياد، في حين دبّت النساء والأطفال في الأنحاء لجلب الحطب ومغالبة المواقد لإعداد طعوم العشاء.

آغّوف ترجّل أيضاً عن مركبته ليسلّم زمام أمرها لخدمه، ثمّ تنحّى به جانباً. سارا عبر شعبة احتفرها هطول الأمطار من شعفة الجبل لتغدو شقّاً يهوي إلى الأسفل، تنمو نبوت البريّة على جانبيه، ويغمر الرمل المستجلب بمشيئة رياح الجنوب حضنه، لتتبدّى في هذا المسرب البكر آثار كائنات البرّ: فئران وقنافذ وجعلان.

أمّا في حاشيتَي الامتداد فانتصبت صفوف حجارة تتواضع في حجمها وفي لونها وفي شراستها كلما اقتربت من الأخدود حيث مجرى المياه التي نالت منها في المواسم السخيّة، فهذّبتها وشتّتتها لتصير غنيمة الطير الذي شيّد منها أكفاناً حصينةً لبيوضٍ تتشبّث بالأطراف. ولم يجدوا مفرّاً في مسيرهما إلى الأعلى إلاّ اقتحام حرم هذه البكارة.

لاذا بالصمت زمناً قبل أن يعود يوساس إلى عرين الجرح الذي عاد ينزف منذ استيقظ فيه مارد الشجن، فلم يجد حيلة يهوّن بها الغصّة سوى الفرار إلى حرم اللسان بدل أن يستجير بالترياق الوحيد الشافي في مثل هذه الأحوال وهو: الغناء.

في النهاية تكلّم فقال:

نحن لا نهرع لنبثّ أشجاننا أو بطولاتنا حصن التدوين، لأننا ببساطة لا نثق بجدوى التدوين!

ابتسم «آغوف». تضخّم في آذانهما صوت ارتطام أقدامهما بحجارة السبيل من فرط الصمت الذي لم تنتهكه سوى أصوات النساء وصراخ الصغار في البُعْد. تكلّم «آغّوف»:

التدوين هو الحيلة الوحيدة التي ابتكرها الإنسان لقهر أخبث عدوّ اعترض مسيرة الإنسان منذ الأزل وهو: النسيان!

:صمت ثم أضاف

.لا أظنّك تشكّ في أن آفة هذا اللغز الذي نسمّيه الزمان هو النسيان

تخلخلت الحجارة تحت الأقدام وتدحرجت إلى الأسفل. في الغرب اكتمل المغيب وزحفت العتمة لتكتسح قمم الجبال بغيهبٍ لعوبٍ، فاتنٍ في عراكه مع فلول ضوءٍ يرفض الاستسلام. يوساس أيضاً :رفض الاستسلام

ماذا إذا كنّا لا نؤمن، ولم نؤمن يوماً، بوجود البعبع الذي تسمّيه زماناً؟

بلغا الذروة. انتصبا فوق القمّة فتبدّى امتداد السلسلة، وهي تتقنّع بمسوح

غياهب المغيب في الغرب، بهيّةً وغامضة وواعدةً في آن. فهتف «آغافون» بالكلمة السحرية التي :كانت في لسان أهل المكان أنفسهم دوماً لغزاً

ميدّييياغز! أليس كذلك؟

:قالها بلسانٍ فصيح زعزع كيان يوساس، كأنه نداء أسلاف، فصاح

مرحى! مرحى! لم أتخيّل أن أسمع هذه الكلمة وهي تجري على لسان غريب، لأنها غريبة في ألسنتنا أيضاً: غريبة حرفاً، فكيف بفحواها التي أعجزت حتى كهنة الأجيال؟

لم أكن لأكتشف هذا الطلسم أيضاً لو لم أحظَ بثقة أشياخكم الذين عايشتهم طويلاً ليكونوا لي في حكمتكم دليلاً. فدعنا نقول إن «ميدّييياغز» لغزٌ دسّ فيه الأوائل موقفهم من الزمان، أو فلنقل، إنّهم .بثّوا فيه عدم إيمانهم بوجود ما اعتدنا أن نسمّيه زماناً

:غمر يوساس فرح. هلّل كطفل عثر على لقية

..بلى! بلى! دعنا نقول إنهم بثّوا فيه عدم يقيننا بوجود ما تسمّيه الأجيال زماناً

ماذا يعني عدم الإيمان بوجود أحجيةٍ كالزمان؟

:انتظر آغافون لحظة قبل أن يجيب

.ذلك يعني في الواقع عدم الإيمان بغنيمة الزمان

:استفهم يوساس

غنيمة الزمان؟

أليس وجودنا الآن، في هذا المكان، هو غنيمةٌ من غنائم الزمان؟

:تردّد يوساس. دبّ فوق أرض القمّة ذهاباً وإياباً قبل أن يتساءل

كيف يكون وجودنا غنيمة زمانٍ إذا كنّا قد آمنّا بعدم وجود لأي زمان؟

:سكت لحظة ثم أضاف

أردت أن أقول إن الأوائل أرادوا أن يقولوا في «ميدّبياغز» إن وجودنا في هذه الدنيا ليس وجوداً .ما دمنا قد رفضنا وجود الزمان

:«ابتسم «آغافون

ولكن أليست وقفتنا الآن، في هذا الموقع، في هذا المساء، وجوداً؟

ولكن ما الذي سيضمن لي أن هذه الوقفة دليل على وجود، إذا كنّا سنختفي من هنا بعد قليل؟ ألم يكن موت النهار منذ قليل دليلاً على البهتان الذي نتشدّق به ونسمّيه وجوداً؟

:«تبسّم «آغافون

هذه ترجمة أمينة لموقف أسلافك الذين سنّوا ناموس «ميدّبياغز» الذي

يستخفّ بحياةٍ لا أمل لها في خلود، وما اشمئزازكم الآن من تعاطي سلفيوم إلاّ لاحتقاركم لكل ما !من شأنه أن يطيل فسحة الحياة، ما دام بعبع الفناء يجثم في الأفق

في سيماء يوساس طافت ابتسامةٌ أيضاً. تطلّع إلى القمم الجبلية البعيدة، وهي تغالب زحف :الظلمات، وتهوي في العدم، فاغتمّ ليقول

.نحن لا نحتقر ترياقاً يطيل فسحة العمر، ولكنّنا نحتقر المكوس المدفوعة ثمناً لهذه المزحة

:«استنكر «آغافون

المكوس؟

ماذا تسمّي ذهاب الإنسان طوعاً لتناول طعوم تفقده صوابه، فيقترف في حقّ الأغيار، حماقات مخزية، ليفوز، بعد غيبوبة تتلوها غيبوبة، بنشوةٍ، أو فحولةٍ، أو حيويّةٍ تمدّه بنصيبٍ من أيامٍ أُخر، هي مجرّد باطل في واقع الأمر؟

:تفحّصه «آغافون» في العتمة بفضول، ثم تمتم

!بهذا المنطق أضعتم كل ما بنيتموه فلا تلومونا إذا حسبناكم، في هذه الصحراء، أشباحاً

:في سيماء يوساس أطلّ استخفاف

ما ضرّنا لو حسبتمونا أشباحاً إذا كنّا نرى أنفسنا أيضاً أشباحاً؟

:مضى «آغافون» يتوضّحه كأنه يريد أن يستشفّ ما أخفته العتمة في سيمائه. سأل فجأة

هل جرّبت سلفيوم يوماً؟

:لاذ يوساس بالصمت وهلة. طاف ببصره في الأنحاء الملفوفة في ستور العتمة قبل أن يعترف

!لا أنكر هذه الخطيئة

:زفر قبل أن يضيف

.كان ذلك جنوناً لا أريده أن يتكرّر

:تسكّع «آغافون» في فسحة القمّة غائباً. توقف فجأة كمن عاند أحجية طويلاً ثم اكتشف لها سرّاً

لقد أدهشك أن يستعير أسلافي إبداعاً من صنع أسلافك كما هو الحال مع المركبة المجرورة بأربعة جياد التي حدّثتك عنها منذ قليل، وآمل ألاّ يدهشك ما سأرويه لك من الكنوز التي استعرناها منكم

الأنفس قيمة من السلفيوم الذي تظنّون أن جيلي لا يهجم لِيَلْتَهِمَ أرضكم إلاّ بسببه، ولا تدرون بالطبع أن الآلهة التي حدّثتك بقسوتها مرّة لأنها طردتنا من بلادنا بلا جُرم، في حين أنّي أخفيت عنك الحقيقة، لأن الآلهة لا تخطئ في حقّ المخلوق الفاني بلا سبب.

تابعه «يوساس» بفضول إلى أن أضاف:

آلهة معبد دلفى طردتنا لأنها أرادت أن تعيدنا إلى وطننا الضائع!

تطلّع إلى «يوساس» خفيةً في العتمة، ثم أوضح:

ليبيا هي وطننا الذي خرج منه أسلافنا يوماً، والآلهة أرادت أن تعيدنا إليه غصباً.

تسكّع لحظات أخرى. توقّف. أوضح:

أنت لا تدري أننا ورثنا هذا الوطن خلفاً عن سلف في كل شيء: في لحوننا التي نتغنّى بها، في أشعارنا وفي ملاحمنا وفي كل ما متّ بصلة لبطولات أجدادنا، وحتى في رموز حوائجنا المستخدمة في حياتنا اليومية، وإن كنت لا تصدّقني فاسأل شقيقتي «سيراس» التي ستُريك الدليل. يكفي أن أقول إن معبوداتنا أيضاً أمانة حملناها معنا دسيسة في هذا الاسم المقدّس: ليبيا!

كان يلهث عندما التقط أنفاسه. صاح:

يكفي أن «أثينا» التي وسمنا بها حاضرة الأجيال في بلادنا حملها أسلافنا معهم من ليبيا استعارة من «يتننا» المشتقّة من «تان يت». أليست هي الربّة ذات الألف اسم كما يتغنّى بها أجدادنا وأجدادكم الذين صنعوا العجب في مزر، كما تسمّونها، أو أجبت، كما نسمّيها؟

سكت. تسكّع. توقّف. جعجع:

اعلمْ إذاً أننا أقبلنا عليكم تلبيةً لنداءٍ أقوى من نداء الدّم.

سكت. توجّع بأنينٍ مكتوم قبل أن يضيف:

أقبلنا استجابةً لما هو أقوى من كل شيء. أقبلنا استجابةً لنداء الروح!

في السنوات التي طاف فيها الصحاري مطارداً القطعان إلى كلأ الحقول، لم يكن عسيراً أن يكتشف تالياً أن القطعان إنّما كانت تقوده أيضاً إلى كلأ العقول: سِيَر الأوائل، الأشعار، اللحون، الأحاجي، وقبل كل شيء رموز الأبجدية. ففي كل ركنٍ في برّ اللانهاية يسكن داهية، أو ترابط جنّية. فبعد التحرّر من حبس الحياة في الواحة، استبدّ به حنينٌ آخر. حنينٌ إلى أن يكتشف. يكتشف ما أخفاه الأفق الفاجع. يكتشف فحوى البُعد المفقود القابع خلف الأفق الموجع في الصحراء، فلم يجد مفرّاً من أن يبدأ بفكّ طلاسم الأبجدية المنسيّة التي شاهد رموزها مجسّمةً على صخور الصحراء، علّها تكون له دليلاً في اكتشاف أبجدية وطن نصّبه الناموس أُمّاً في حياة كلّ سليل صحراء. ربّما لهذا السبب جرت العادة أن تتولّى الأمّهات تلقين الأبناء رموز الأبجدية، كما هو الحال مع الأنداد، في حين استجار بالشاعرة «زارا» لتكون له دليلاً إلى باب الأبجدية المجبولة بالأسحار.

ترك قطيعه في عهدة الرعاة ويمّم صوب الغرب. أدرك سهلاً فسيحاً، تنتشر في أرجائه أخبية القبيلة في مسافاتٍ متباعدةٍ، يطلّ على قاع وادٍ عميق، يجتنب القوم المقام فيه، لأنهم لم يأمنوا السيول يوماً، لأن الغدر من شيمه، تماماً كما كان من شيم الركنين الباقيين في أضلاع الثالوث المجبول بالشرّ الدفين: العبد والجمل!

والحذر في الموقع من الوادي مصحوب بالحذر من التقارب في مواقع المضارب، عملاً بالأمر الصارم المبثوث في وصيّة الناموس: «سنّمجّاجَتْ إيهنان نَوَن، زيهزيم أُولاوَن نَوَن» (باعدوا بين بيوتكم، وقاربوا بين قلوبكم)، بل إنّهم جرّبوا دوماً كم تباعد البيوت، رهين تقارب القلوب؛ لأن معشر الأنام، كمعشر الأنعام، إذا تباعدوا تصايحوا، وإذا تقاربوا تناطحوا: إذا تباعدوا تصايحوا توقاً للتلاقي، وإذا تقاربوا تناطحوا ضيقاً ببعضهم البعض.

نزل ربوع النجع، في تلك الغزوة، مع الضحى، في وقتٍ خلا من الرعاة الذين بكّروا بالقطعان إلى المراعي، وغادر الرجال إلى الصيد، أو ارتادوا الآفاق لقضاء الحوائج، أو مقايضة البضائع مع قبائل الجوار، أو في الواحات، ولم يبق في النجع سوى النساء والأطفال والأشياخ الذين أعجزتهم الشيخوخة عن السعي في الأرض السمحاء التي أحبّوها، لأنها تخلّلتهم في شبابهم، كما تخلّلوها، حتى صاروا جزءاً منها، كما سكنتهم هي لتصير جزءاً منهم، ولم يبق لهم، بعد أن بلغوا من العمر عتياً، إلاّ أن يتأمّلوها من موقعهم في سويعات الأصيل، وهم يستجيرون بظلال المضارب، ليستعيدوا في عزلتهم ذكريات الزمن الضائع في حال حالفهم الحظّ واستشفع لهم الحتوف لتستبقي لهم خلاً يكون كتاباً لفحوى الذاكرة، لأن الخلاّن هم الرقعة الوحيدة التي يستطيع فيها أمثالهم أن يقرأوا فيها الأنشودة المفقودة، فإن ذهب الأخلّة، انقشعت من الرقعة الفحوى. وها هو يراهم أشباحاً تنتصب في مداخل الأخبية، أو تطوف

الأركان الخاوية بين المضارب، أو تقبع في الظلال لترقب الفراغ القاسي، فتستنزل العزلة في سيمائها إيحاءً بالقداسة، لأن أي أرضٍ هذه، وأيّ نجوعٍ تلك النجوع، إذا خلت من وجود الأشياخ؟ أي وطن هو الوطن الذي هجرته روح الأشياخ؟

بلى! لقد استبشر بمرأى الأشياخ في تلك المرة، كما في كل مرّة، واستعاد، بحضورهم في المكان، طمأنينة خفيّة، وعرف لماذا يردّد القوم وصيّة الناموس في مديح الأشياخ: «آبرقّا آكود يغلاي، آمغار آكود وشّار» (استجر بالسبيل مهما تلوّى، استجر بالشيخ حتى لو بلغ من العمر أرذله).

بين بعض المضارب تنقّل الصغار فترجّل عن جواده وخطا نحوهم في نيّة للاستفهام منهم عن خباء الشاعرة «زارا». ولكن هيأة خباء مريب، انتصب في الطرف الجنوبي من السهل، استوقفه. كانت كل البيوت ملفّقة من جلود الأنعام العارية من الشعر، أمّا جلود الخباء الشريد، فكانت ملفّقة من جلود وحوش أيضاً إلى جانب جلود الأنعام: جلود نمور وفهود وبقر وحشي وجاموس برّي وغزلان إلى جانب جلود الأبقار، ليبدو الخباء، عن بُعْد، زخرفاً نشازاً يليق بهوى شاعرة دينها غرابة الأطوار، ذاع صيتها في الأنحاء منذ زمن لا لبراعتها في قول الشعر، أو موهبتها في ترويض اللحون وحدها، ولكن لجمالها أيضاً. وقد تسابق فرسان القبيلة للاستيلاء على قلبها، ولكنها رفضتهم جميعاً. ويقال إنها رفضت زعيم القبيلة نفسه، ولم تكتفِ بتوجيه هذه الإهانة، ولكنها هجته بقصيدة قاسية اتّهمته فيها بما لا يُغتفر في عرف الجمال: طول الأذنين، وفساد الأنفاس.

لاستقباله خرجت الأمَة. وعندما مَثُلَ في حضرتها قال لها إن اسمه يوساس، أقبل من بعيد طمعاً في أن ينال ممّا أوتِيَت وَهجاً، وبعضاً ممّا يمكن أن يجيره من الظلمة التي حجبت عنه ما أخفته الصحراء عن أمثاله ممن فاقتهم دوابهم فطنةً، فطافت في سيمائها بسمة فاتنة قبل أن تتعجّب:

أيعقل أن تكون يوساس[2] الذي عارك غول التيه وهو طفل، ثم بعثه أثر الظلف في الحجر إلى صحرائنا من جديد؟

طأطأ استحياءً، فأضافت:

سنكون سعداء لو استطعنا أن نحسن إلى الإنسان الذي اشترى لقب «يوساس» عن جداره، ليكون له بين الأنداد علامةً.

تململ في جلسته قبل أن يوضح:

لا أريد أن أخيّب ظنّ مولاتي في شخصي، ولكن يوساس كان لي اسماً بالولادة، وليس بالسيرة!

:فعادت سيدة الحسن والشعر تتعجّب

أيُعقل أن يبلغ الاستهتار بسلطان السّحر، المدسوس في الأسماء، إلى الحدّ الذي يجعل الأبوين يطلقان مثل هذا الاسم على وليدهما؟

:زفرت بضيق كأنها توجّه خطابها إلى المجهول

هذا تجديفٌ لا يليق في حقّ الفأل، وما البليّة التي أحاقت بك إلاّ عقابٌ على التجديف المقترف من قبل الأبوين، لأن ناموس الخفاء هو الذي قضى بأن يدفع الأبناء، القصاص عن الإثم المقترف من !قبل الآباء، فلا يبطل القصاص إلاّ بعد فناء الجيل الخامس

التقطت نَفَساً، ثم التفتت جانباً فهرعت إليها الأمَة الخلاسيّة التي استقبلته وتناولت منه زمام الجواد. :وشوشت في أذنها بهمس تحوّل في أذن الشقيّ يوساس أغنيةً، قبل أن تستفهم

بأي حيلة يستطيع ربعنا أن يواسي الإنسان الوحيد العائد إلينا من مجاهل العدم، ليخفّف عنه النزيف السخيّ حتى صار هنا النزيف وَسماً مبثوثاً في الاسم؟

انتفض يوساس بمسٍّ أنساه وقاره في حضرة الإنسانة التي نصّبتها القبائل معبودةً بسبب مواهبها :السحرية، فهتف بحماسٍ أعجزه أن يخفيه

النزيف! صدقت مولاتي! النزيف الذي تتحدّث عنه هو ما قادني إلى هنا. وأخشى أنه لن يتوقّف أبداً ..إذا لم أرتوِ.. إذا لم أنل نصيباً ممّا أوتيت مولاتي

:تطلّع إليها فاقتنص في عينيها الكحلاوَين، الكبيرتين كعيني جاموسةِ برّ، فضولاً غامضاً، فلعثم

أريد أن أتقن كلّ ما خفي: الأبجدية، الأمثال، الأشعار، سيَر الأوّلين.. أريد مولاتي أن تفعل ما ..بالوسع كي تحميني بسرّها، لأني.. لأني محموم

قالت له في ذلك اليوم إنها تعرف هذه الحمّى، لأنها داءٌ ابتلى به المجهول كل من احتال ليستر جسداً، ولكنه أخفق فتعرّى روحاً كما هو الحال مع ملل الصحراويين.. وإذا كانت تستطيع أن تلقم العقل حرفاً هو أبجدية، فليس لها أن تفلح في تلقين الروح سحراً كالأشعار، لأن غنيمة العقل تستقيم بالاستنفار، ولكن غنيمة الروح لا تستيقظ إلاّ بفعل البليّة. ثم انكفأت على الأرض لترسم بسبابتها

على التربة الرملية وسم دائرة، ثم دائرة أخرى تتوسّطها نقطة، ثم دائرة ثالثة شطرتها برسم، قبل أن تتغنّى بحكمة الدائرة قائلة:

الدائرة هو ما لا بداية له ولا نهاية، وكل جرم في الصحراء، أو كوكب في السماء، دائرة في باطنه ودائرة في مداره، لأن الصحراء أيضاً دائرة، والسماء التي تحوي كنزها أيضاً تعتنق ناموس الدائرة، ووجودنا كله محكومٌ بناموس هذه الاستدارة الخارقة في احتوائها على الذهاب والإياب، البداية والنهاية، فلا تتأثّر إذا عكسنا وجهتها إلى كلّ الأنحاء، ولهذا نصّبها دهاة الأجيال الأوائل الذين سنّوا ناموس الحرف علامةً دالّة على حرف الراء.. هل تعرف لماذا؟

التقطت أنفاسها عميقاً قبل أن تواصل معزوفتها:

لأن الراء لا يبدو في الأبجدية المنسيّة مجرد حرفٍ لقيطٍ ككل الأحرف إلاّ في نظر البلهاء، أمّا المهووسون بالوَجد، المحمومون بالمسّ، فلن يعجزوا في

أن يجدوا فيه الاسم الأجلّ الأعظم شأناً من كل اسم، لأن حرف الرّاء له علامة ساكنة، لا بدّ أن تنصاب بالقشعريرة عندما ننطقه ملحوناً في (رو) لأنه اسم الأرباب في محفل التاسوع الرهيب!

عادت تلتقط أنفاساً مزمومة قبل أن تعاند رسم الدائرة الموسومة بالنقطة في الجوف:

الدائرة خلقت لتدور وتدور وتدور، والنقطة في قلبها لغز، دسيسة، فحوى، علينا وحدنا واجب استنطاقها كي تبوح لنا بسرّها. فهي شمسٌ تسبح في الفضاء لتكون لنا ترجماناً مجسّداً يروي لنا حكمة الدائرة، وسيرة الدائرة، وخلود الدائرة، ليضيف له بوجود النقطة إيماءٌ لا يخلو من دلالة. دلالة هي شحنة. حمولة. امتلاء. وجود الامتلاء برهانٌ إضافي في أنشودة الدائرة الأبدية، والامتلاء هو الفحوى التي هي نحن. ولذلك كانت الدائرة الممهورة بختم النقطة في ناموس الدهماء علامة دالّة على حرف السين، لأنها باطن الدائرة.

سكتت. في صدرها زغرد وترٌ مجهولٌ بأنينٍ مكتوم، فأغمضت عينيها قبل أن تتولّى أمر الحلقة المفقودة في ثالوث الدائرة:

أمّا الدائرة المشطورة بوسم المجهول فهي الكلمة الأخيرة في المعزوفة، لأن القطر في الدائرة سيكون القوّة الخفيّة المكمّلة للكيان، وهي حرف الباء الدالّ في ناموس الأبجدية الأول على المعجزة التي لا تُرى، ولكنها سرّ كلّ ما يُرى، ويحيا، ألا وهو: الروح. وهكذا حاولت الأبجدية التي نحسبها حروفاً ميّتة لمجرّد أنها ساكنة، أن تنقل لنا رسالة تقول إن الكيان الملفّق من الدوائر

الثلاث (الراء والسين والباء) ما هو في حقيقته الأولى سوى ذلك الحيوان الذي تقول الأحجية القديمة إنه يدبّ في الصباح على أربع أرجل، وفي الظهيرة على اثنتين، وفي المساء على ثلاث: !الإنسان

ترنّحت الجنيّة حتّى أيقن أنها ستسقط في نوبة وَجْد، ولكنها تحاملت بشجاعة قبل أن تنهي درس :الدوائر

هذا ليس كل شيء أيها الضيف العائد إلينا من البُعْد الذي لم يعد منه أحد. فهل تدري الآن لماذا اعتنقت ملّة هذه الصحراء ناموس التثليث لتجعل منه رمزاً لربّة الأرباب «تانّيت»، أو «تانّس» كما تنطقها قبائل أخرى في أركانٍ أخرى؟

:أطلقت تنهيدة كأنها تنوي أن تلفظ أنفاس النزع الأخير، ولكنها أضافت قبل أن تتنفّس الصعداء

السين والباء والراء مجتمعة هي سواكن دالّة على «سبر» أي الحصن، لأن الدوائر الثلاث في حلفها الربوبيّ، المكوّن لكيان العجب المدعو إنساناً، هي تجسيدٌ للتثليث المقدّس الذي سيغدو في مسيرة الكيان المكابر جرماً، البائس روحاً، بمثابة تميمة، ولكنها تميمة رهينة أمر آخر لم يجد له !الدهاء اسماً مناسباً سوى كلمة: إيمان

:كانت تلهث عندما أضافت

لأن ما نؤمن به عميقاً وحده يوجد حتى لو لم يوجد، أمّا ما لا نؤمن به فهيهات أن يوجد حتى لو !وُجد

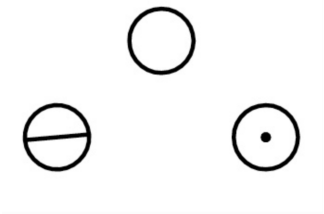

كلّما توقّف الركب للمبيت، وترجّل الخلق عن المطايا، ليتسكّعوا في أرجاء المكان، اعترضته «ثيراسين» كأنها شبح.

تُقبل برفقة شقيق الأمّ حيناً، أو بصحبة الأمّ أحياناً، بل ووحيدةً أيضاً. تتطلّع إليه بفضول، كأنها تريد أن تقول له شيئاً، أن تبوح له بسرّ، ولكنها تحجم، لأن اللسان يخذلها، فلا تجد ما تفعله إلاّ أن تستنجد ببسمتها الغامضة التي تخفي إيماءً كالسؤال. سؤال؟ ليس مجرّد سؤال يقيناً، ولكنه طلسم أعظم شأناً من سؤال.

لا يعرف لماذا تستهويه الطفولة. لا يعرف لماذا كان له الأطفال نقطة ضعف. ربّما لأنه فقد الأمّ قبل أن يعرف الأم ففقد الطفولة بفقدها. بلى! هو لم يعش أي طفولة. لم يعش ما ظنّه على نحوٍ خفيّ أنه الشيء الوحيد الذي يستحقّ أن يعاش حقّاً. الزمن الوحيد الجدير بأن نقول بأنه كان زمننا نحن، لا الأزمنة الأخرى التي نتوهّم أننا عشناها، في حين نكتشف بعد فوات الأوان أنها سُرقت منّا. نكتشف أنها كانت مسروقة منّا. زمنه هو كلّه كان مسروقاً لأن الفرصة لم تتح له كي يحيا الطفولة. لأن ليس على مَن فقد الأمّ منذ المهد أن يطمع في أن يحيا الطفولة. لأن اليُتم هنا سيكون البديل الذي سيبتلع أي إحساسٍ بوجود طفولة. اليتم هو الغول الذي اختطف منه أنبل هبة: الطفولة! لأن من يستطيع أن يدّعي أنه عاش دنياه دون أن يذوق طعم الطفولة؟ مَن حالفهم الحظّ، وعاشوا طفولتهم، وحدهم لن يتخيّلوا أبداً مدى مرارة أن تحيا اليتم بدل أن تحيا الطفولة. اليتم؟ لا وجود للسانٍ يستطيع أن يترجم مدى القسوة التي تسكن هذه الملفوظة المشؤومة، لأن أسوأ ما فيها أن من عاشها مرّة في المهد، فسوف تسكنه لتبقى في رقبته قدراً إلى اللحد. لأن اليتم وحده النزيف. وحده النزيف الأسوأ من نزيف الدم، لأنه نزيف الروح الذي لا يشفى. لكل داءٍ ترياق إلاّ اليتم، فهو وحده لا يفنى. وقد كان له في رحلة التّيه عزاءً ليقينه بأن مَنْ لم يجد وحده معصوم، لأن ليس لديه ما يفقد. الإحساس بعدم وجود ما يستحقّ أن يُفقَد، كان له، في ديار العدم، قارب نجاة. ولكن..

ولكن الجرح لم يتوقّف عن النزيف. وكان يتمادى كلّما وقف في حضرة طفل. ربّما لهذا السبب أسرته هذه الطفلة الأجنبية من أول نظرة، أسرته لأنها طفلة، وأسرته أيضاً لأنها ابنة أغراب، والاغتراب يُتمٌ آخر. وأسرته ثالثاً لأنها ببساطة يتيمة. أو فلنقل إنها نصف يتيمة. لم تأسره وحسب، ولكنها فتنته. فتنته تلك الفتنة المجدوحة بوجع. وجعٌ مجبولٌ بإثم. إثمٌ خفيّ لم يكتشف له سبباً إلاّ أخيراً. إثمٌ أيقظته مزحة «آغافون» اللئيمة التي كرّرها مراراً. مزحة أن يكون هو مَن تسبب في يتمها بقتله أبيها في موقعة السبعة آلاف قتيل. مَن يضمن ألاّ يكون هو من أجرم في حقّها فيتّمها، كما أجرمت الأقدار في حقّه عندما يتّمته يوماً. هو لا يملك الحقّ في أن ينازع الأقدار في جرمها، ولكن من حقّ الصغيرة «ثيرا» أن تنازعه في شأن احتمال أن يكون هو مَن قتل أباها.

طرد هذا الخاطر الماكر مراراً، ولكنه كان يعود في كل مرّة حتى انقلب وسواساً لجوجاً. وحتّى بهمة الغزال التي أهداها لها لم تكن في الحقّ سوى محاولة للتكفير عن خطيئة في حقّها. لا يعرف لماذا قرر أن يخطب ودّها بهديّةٍ ليست ككل هدية، ولكنها الهدية التي تليق بطفلة. ليست أي طفلة، ولكن الطفلة «ثيراسين»، أو «ثيرا» كما تناديها أمّها. هديّة ليست ذات قيمة نفعية كما هو الحال مع هدايا الكبار الذين تستهويهم الكنوز. هدية لن تكون حزمة سلفيوم بالطبع، ولا أيّ شيء من هذا القبيل. فأدرك كم هو عسيرٌ أن يهتدي الإنسان إلى العجب العجاب الذي يصلح أن يكون هبة تعترف بها الطفولة. فكّر طويلاً وهو يختلي بنفسه في المساحات البريّة المكتظّة بالأحراش فلم يقنع إلاّ بوجوب أن تكون الهبة وديعةً كالطفولة، وبريئة كالطفولة، وبهيّة كالطفولة، وفوق كل شيء فاتنة كالطفولة.

استيقظ في منتصف الليل تلبيةً لإلهامٍ غامض. دبّ في الأحراش، تحت ضياء بدرٍ سخيّ، واستقطع من الشجر أعواداً، لفّق بها شَرَكاً متقناً اعتاد أن يتسلّى به في اقتناص حيوانات البرّ في صحاري الجنوب: طوقٌ مزمومٌ، تنطلق من جوفه حشود أعوادٍ، كأنها حِراب، موجّهة إلى قلب الطوق، حيث تتكاثف مخليةً فجوة خفية في الضفيرة الماكرة. استطلع الأنحاء. اختار بقعةً حصينةً، سخيّة النبوت، واحتفر حفرة مناسبة، دسّ فيها المصيدة.

تفقّدها في الصباح، ولكنّها خيّبت ظنّه. احتال أن يستبقي القافلة للمبيت ليلة أخرى. عاد ليتفقّدها في المساء، ولكن عبثاً. تسكّع بالجوار. كانت الأرض تهوي لتستوي، ثم تنهض في مسافاتٍ أخرى لتتداخل في مرتفعاتٍ تتقاطع في قمم، قبل أن تتسامح اليابسة فجأة، لتتطامن من جديد. ولكن السماء لم تكن عادلة في توزيع غيوثها على المكان، فبخلت بالمطر على مساحاتٍ شاسعة حتى شحبت وتيبّس فيها العشب، لتستعير سيماء صحاري الدواخل. في حين جادت على مساحات أخرى لا بالأمطار وحسب، ولكن بالأنهار أيضاً، فهلّلت سيماء الأرض، لتحتجب بأنواع الشجر، وتتلبّس عشباً سخيّاً في كل الفصول. في هذه المساحات اعتاد السكّان أن يستزرعوا المحاصيل، ويتخذوا الأرض مراعي للقطعان. في مثل هذه المساحات أيضاً ابتلت الأقدار الوطن بنبتة النّحس التي استدرجت الأغراب، وأغرت الدخلاء بالاستيلاء على كل شبر في المكان، بعد أن عمّ صيتها الأوطان، بوصفها الترياق لكل داء، بما في ذلك الدّاء الأشرّ من كل داء وهو: الشيخوخة!

إنها الأرض التي أوكل له الزعيم مهمّته أن يجيرها من جشع القوم، بتضليل القوم في سعيهم إلى المقام في الأراضي الأكثر خصوبة، بالعبور بهم في النهار رحاب الأراضي اليباب. أمّا في المسافة التالية فعليه أن يستجوب الذاكرة كي يتزامن بلوغ الأراضي الخصبة بحلول الظلمات، أو يحتال باستبدال الطرق المؤدّية إلى الأمكنة لكي لا يخذله في الحساب تعاقب الليل والنهار. وكم استشعر غمّاً بسبب هذه الخدع الصبيانيّة، لأن المكر كان يصيبه دوماً بالغثيان. ذلك أن هاتفاً استصرخه مراراً أن يترك الناس طلقاء، لأن من حقّهم

أن يسعَوا في الأرض أينما شاءوا، ويذهبوا ليقيموا أينما شاءوا، وأن يتناولوا أي سمٍّ شاءوا، ما دام يجلب لهم السعادة، أو يعزّيهم في محنة اليتم التي عرفها، لأن كل الناس في تيههم يتامى، مثله تماماً.

لقد جادل في هذا الشأن «آغوف» مرّة، بل مراراً. وكان الرجل يتفجّع كلّما تغنّى بسيرة «نداء الروح» لأنها في يقينه حُجّة في انتمائه إلى هذه الأرض، مما جعله يتساءل عمّا إذا لم يكن ما يفعله خيانةً في حقّ الحقّ، وليس دفاعاً عن الأرض، كما يصرّ الزعيم. ففي قلب «آغافون» أيضاً تسكن طفولة، ويستطيع أن يعترف بأنه أحبّ «آغافون»، لأنه مسكونٌ بروح الصبيّة «ثيرا»، ابنة أخته. وكان، كلّما اجتمعا وتجادلا طويلاً، لا يفوته أن يختم اللقاء بمزحة صارت في فمه تعويذةً: «كُفّ عن مطاردة السراب في الصحاري، وتعال للإقامة معنا، وأنا على يقين بأن «سيراس» لن إتخذلك!».

في تلك النزهة تسلّق السفح المحروث بالشعاب الصاعدة إلى أعلى، الملبّدة بأنواع الأعشاب البريّة، الممهورة في المضيق بشريط لميس هو هبة غزوة ريح جنوبية، انطبعت فيها آثار الحشرات والزواحف والطيور والحيوانات ذات الظلف المشقوق أيضاً. في بطن شجيرة وضيعة أبصر عشّاً محبوكاً بأعرافٍ ناعمةٍ كأنها حيكت من خيوط خزّ. كان مخفيّاً بعناية في أسفل جذور النبتة. في الجوف الحميم استلقت بيضة فاتنة، موسّمة ببصمٍ أكثر فتنة. وقف مشدوداً إلى العشّ لحظات. لا يعرف لماذا استهوته أعشاش الطير دائماً. ربّما لأن في حبكة العشّ رأى الحضن الذي افتقده مجسّداً كما لم يفلح في تجسيده شيء. حضن الأمّ التي لم يعرف لها وجهاً إلاّ في أحلام اليقظة، ولكنه لم يفلح في تخيّل الحضن لا في يقظة ولا في منام، وظلّ في حياته أمنيةً ضائعة، فلم يأمن حضناً، ولم يسكن إلى البيت.

صعد مسافة أخرى وتطلّع إلى الأسافل. هناك انتشرت أشباح القوم: رجال يعاندون العربات، أو نساء تعتني بحوائج المقام، أو صغار يتنادون بأعلى الأصوات. من كل ركن اشتعلت المواقد، فارتفعت في الفضاء أعمدة الدخان.

صعد مسافة أخرى فاستلقى في الأفق وطن الغرب: الروابي والوهاد تتجادل وتتحاور وتتبادل الأدوار على طول المدى المغسول بشعاع شمسٍ تعاند أنفاس نزعٍ أخير، ناعيةً نهاراً ضاع من عمر الخلق هيهات أن يُستعاد.

غاب في شطحة الضوء المحتضر وهو يتنكّر للونه في النهار، ليستعير بطقس الغياب فتنة لا تقارن إلاّ بفتنة لحن تبلبل بشجن، فوجد نفسه يتمتم بأبيات شعر، ما لبث أن استقامت في أغنية شجن.

نزل السفح فالتقاها في طريق العودة. كانت مكابرة في طلعتها كما عهدها، ولكن الرحلة انتهبت نصيباً من بدنها، ونالت من امتلائها. كانت تحمل كوماً من حطب، تتّقي مخالبه بقطعة جلد مطروحة على ساعدها العاري. ترتدي ثوباً طويلاً مزخرفاً بمثلثات الربّة تانّيت. تتمنطق بحزامٍ جلديّ سميك ممهور أيضاً بأختام الربّة مجسّدةً بسيورٍ متعدّدة الألوان. السيماء في الوجه أضاعت

النضارة السابقة وحلّ في الوجنتين شحوب، وربّما هزال أيضاً. الرأس ملفوف بوشاحٍ منسوجٍ من خيوطٍ مبهمة، منثورٍ أيضاً بالمثلثات القدسية. في مقلتيها السماويتين هيمن سكونٌ مريب؛ ربما لم يكن سكوناً ذاك الإيماء، ولكنه إجهاد الكائن الهشّ الذي اعتاد الركون إلى المكان، وهاله النزيف الناجم عن قطع الجذور؛ لأن المرأة أنثى، والأنثى أمومة، والأمومة أرض، والأرض وطن، والوطن حضنٌ حميم، مغروسٌ في التراب، ولذلك هو كيان. لذلك هو هيكل لتلاوة الصلوات. لذلك هو مزارٌ يُـيَـمّم صوبه الرسل، ويتشبّث بتلابيبه المريدون من كلّ فجٍّ عميق. وكل محاولة لزحزحة هذا المعبد من موقعه الضارب بجذوره في المكان، هو كفر بالناموس، وتجديفٌ في حقّ القوّة التي جعلت من الأرض ملاذاً مسكوناً، ولكنه يكتفي بنفسه، وليس من شيمه أن يسكن إلى شيء. والمرأة، في هذا المقام، نقيض الرجل، ذاك الطيف، ذاك الشبح السابح في الفضاء، الحامل لجذوره في قلبه، المكبّل بالحنين، المحموم بالتوق إلى المجهول، الذي لا يعترف بغير البُعْد المفقود وطناً. لذلك هو، في الصفقة مع المرأة، طائرٌ مهاجر. صقرٌ يسكن في الفسحة الواقعة بين السماء والأرض. يحلّق. يحوّم. يدوّم، ولا يتنازل لينزل الأسافل إلاّ تلبيةً لنداءٍ يسمّيه أداء الواجب، فيرمي بما اغتنم في العشّ المعلّق في رؤوس الأجبال ليطعم الذريّة. ولذلك هو طريد دفء العشّ. لذلك هو طريد الأرض. لذلك غير معترف به في حرم المعبد. وهو ما يعني أنه الأبله الموسوم بمنفى الأبد، برغم سعادته بكونه ضحيّة المعبودة التي يتغنّى بها ويسمّيها حريّة.

ولهذا السبب يرتكب الرجل جرماً في حقّ المرأة عندما يجتثّها. يقترف إثماً عندما يقتلعها من جذورها وينطلق بها ناسياً أنها ليست قريناً بطبيعتها للرجل، لأنها ببساطة من طينة النبوت التي تذبل وتتيبّس وتموت عندما تنقطع صلتها بالأرض. هذه الطينة هي علّة خصام المرأة الأبدي مع قرينها الرجل.

وها هي هذه الريم، الوفيّة للمراتع، الحميمة الصلة بالطين، تنتصب في وقفتها الآن مستنفرةً، راجفةً، شاحبةً، تتوثّب للفرار من المواجهة بقفزة، برغم السكون العميق الذي يسكن مقلتيها السماويتين اللتين كان عليه أن يحفر فيهما بعيداً، بعيداً، كي يكتشف فيهما ما لن يفلح اللسان في ترجمته ولو اعتكف ليروّض الطلسم فيهما لألف عام، لأنه إذا كان قد ترفّع مراراً عن تدنيس اللسان بالقول المبتذل، فإنه لم يملك، الآن، إلاّ أن يقتنع بوجود أشياء في هذا الوجود ترفض الاستسلام لعضلة اللسان، وتتشبّث بسموّها، ونقاء بكارتها، والاحتفاظ بغموض فحواها، فتستعصي، وتستميت في الدفاع عن حرمها، فيخفق في الوصول إلى سرّها حتّى مارد الحدَس. إنه

مأزقٌ شبيهٌ بمحاولة تفسير الأحجية التي خصّتها به الصحراء إيماءً يوم ضاع وانقطع به كل أملٍ في النجاة ففهم الوصيّة حتّى أحسّها تسري في دمه، ولكن هيهات أن يجرؤ يوماً على ترجمتها فتجري له على لسان.

المقلتان السماويّتان، الناعستان، العميقتان، نطقتا أيضاً في المواجهة بالوصيّة المستغلقة، العصيّة على منطق اللسان. ولكن هذا الجاسوس الذي

اعتاد أن يقول ليخفي لا ليُظهر، لم يتردّد في أن يتدخّل في مبارزة ذاك الموقف أيضاً:

(تسّانَد آواهاميّنغ؟ (تعلمين ما سأقول؟.

كان السؤال أبلهَ، من رجلٍ هو، في حضرة المرأة، دوماً مخلوقٌ أبله!

وكم أدهشه أن يسمع الجواب بتلك الرطانة الرصينة والمنطلق الفصيح:

(آواهِيتَنّيد وتّسينَغ، بشّان آوالنّك أسّانَق! (لا أعرف ما ستقول، ولكنّي أعرف اللسان الذي يقول.

لاحظ كيف رفّ لها جفن، لاحت في السيماء الصافية بسمة خُيّل له أن سخرية خفية سطعت فيها. ولكن بوجود اللسان أحسّ أن القيد انكسر والمنطق تحرّر. المنطق؟ كلاّ، ليس المنطق هو الذي تحرّر فيه بحضور حضرة اللسان، ولكنه هو الذي تحرر في المنطق.

تشجّع وابتسم أيضاً. تمتم:

(ماكَم يسّلمدَن آوال ننغ؟ (مَن علّمك لساننا؟

تململت في وقفتها فتنحّى. تناول من ساعدها حزمة الحطب وسارا متجاورين عبر السفح الوعر، المكسو بالصخور، المتلبّس بالأحراش البريّة. قالت إنها تعلّمت لسان السكّان من فلاّحات الحقول سنوات المقام في «قورينا»، ثم في السنوات الأخيرة من المحاربين الأسرى. تطلّع إلى صفوف المثلثات المقدّسة المطبوعة على ثوبها فتساءل عمّا إذا كانت نفحة من تأثير الأجيال المحلية السالفة على أسلافها من بلاد ما وراء البحار، كما حدّثه «آغافون»، فتحدّثت طويلاً عن البصمات المهاجرة بين الضفتين إلى أن انتهت إلى الزغاريد التي قالت إن بنات بلادها استعارتها من نساء هذه البلاد لتدشين الأضاحي في حفلات تقديم القرابين. ولكنه قرأ في هذه البدعة تحريفاً فاستنكر:

!ولكن الزغاريد اليوم نداءٌ لتتويج حفلات الزفاف، وليست ترتيلةً في حفلات تقديم القرابين

:توقفت. تطلعت إليه باستفهام قبل أن تقول

ولكن ما هي حفلات الزفاف في عرفكم إن لم تكن تراتيل لتقديم القرابين؟

:لاذ بالصمت. في الطريق إلى الأسفل ردّد لنفسه مراراً كأنه يستنطق مجهولاً

حفلات الزفاف قرابين، والزغاريد صلواتٌ لاستحضار شهودٍ هم الآلهة؟

ذهب ليستطلع الفخّ. الفخّ المسبوك بطلسم الأبجديّة المنسيّة. الفخّ المستغلق بحرف الدائرة السحرية؛ لأن الإيقاع بالطريدة رهين مفعول التميمة المجسّدة في قوس الاستدارة، المتوّجة في الجوف بالشباك المطبوعة بختم التثليث، فأين مفرّ الطريدة؟

تذكّر الشرك ما أن زفّ ربّة الحسن إلى خبائها القابع في الحضيض، فعاد على عقبيه. صعد السفح من جديد. انعطف يميناً. بدأ الغيهب يسري في كيان المكان ويغزو فحوى المكان، ولكن معزوفة الطير في رؤوس الأشجار لم تتأثّر بهجمة العتمة؛ بل تمادت بنزول العتمة:

..صَوْ صَوْ صَوْ. سيت سيت سييت. طق طق طق. شيو شيو شيو

.أصواتٌ تتداخل، وتتعالى، وتتنوّع، فلا يقدر على تقليدها حتّى الجنّ

في نداء المعزوفة، وتغريد محفل الأصوات، علا صوتٌ دخيل، بَلْبَلَ الإنسجام في معزوفة الطير حتى تحوّل نشازاً بعد لحظات. لم يعرف لماذا تذكّر العشّ الخبيء، المستجير بأصل الشجيرة المجهولة، فتتشابك الأغصان حول العش، كأنّها تتواطأ في إخفائه عن الأنظار. في قاع الكيان الهشّ، المحبوك بحكمة خفيّة، إستلقت البيضة المطبوعة بوصمة الغموض، لتبدو في بطن القاع الموحش، مغمورةً ومهجورةً.

سكن المساء، وتأهّب المكان. تأهّب كل شيء في المكان: أشجار الصنوبر التي تتكاثر في قاع الحضيض وتكاد تتحوّل غابةً. الأحراش الوضيعة، الملفّقة من مختلف أنواع الشجر، ومن شتلاتٍ لنباتات تتمرّد على طبيعتها وانحطاطها فتتطاول وتستميت في محاولةٍ لإدراك الأشجار طولاً، ولكن السيقان تخذلها فتهوي لتستبدل التطلّع إلى أعلى بالانتشار عرضاً. الآن، مع هجمة الظلمات وتسلّط الليل، يهدأ سعي الكائنات البريّة، وتستسلم الأرض، ويهجع كل شيء لا يخلد للنوم، ولكن ليلزم الصمت، ويرصد ما خفي، لأن أوان روح المكان قد حلّ بحلول الليل، وخلوّ المكان من روح أهل المكان.

.قطبان فقط رُفع عنهما الحجاب في حرم هذه الصلاة المرتّلة بلسان السكون: الطير والريح

ففي مثل هذا الأوان يتنفّس الشمال بالريح الحميم، كأنه يلبّي نداء المجهول ويهرع إلى المكان ليدلي بنصيبٍ في المعزوفة الملحونة برطانات محفل الطير، فتستيقظ في القلب الذخيرة الدفينة، ويستجيب الوجدان الجريح بشطحة مسّ، لولا تدخّل الصوت الدخيل ليطيح بغنيمة الحلم.

توجّع بصوتٍ مسموعٍ، كأنّه تلقّى طعنة، لأن الشِّعر مات في الأغنية، والذخيرة تلاشت في القلب، وخيبة الأمل افترست جناح المحال، ولم يبق إلاّ السقوط في الهاوية، لأن الفوز بالغنيمة رهينٌ دوماً بخسارة البشارة، وكل ما متّ بصلةٍ للبشارة: خسارة الشعر الذي لم يكن ليستيقظ في رسم

ثالوث الأبجدية الربوبية لو لم يتجسّد في قامة امرأة منيعة، بكيانٍ لاأرضيّ، بعينين كسولتين، ناعستين، ولكنها برغم ذلك مكابرة كأنها مسكونة بروح الربّة «تانّيت»، بل لن يخطئ إذا قال إنها «هي التجلّي (الذي هدهده في القلب طويلاً) لربّة الأرباب «تانيت.

في الحضيض كانت الغنيمة تعاند الشرك المستدير، المختوم ببصمة السحر، في محاولة عنيدة للإفلات. كانت تلك بهمة غزال فاتنة، ترتعش في محنتها، وتتوثّب طمعاً في خلاص، فتطلق خواراً مريباً، مكتوماً، كأنه صوت الذبيحة وهي تلفظ أنفاس النزع الأخير. احتضنها بين ذراعيه ليحرّر ساقها من أنياب الفخّ، فأصابته بعدوى الدفء الذي يسري في بدنها الهشّ. تفقّد الساق، حيث أحكمت المصيدة قبضتها على اللقية، فوجدها سالمة. تمتم بتميمة امتنان للربّة «تانّيت»، لأنها لم تخيّب ظنّه فتدسّ له في الفخّ ذئباً أو ثعلباً أو ما هو أسوأ من كليهما كالملعونة الأخرى ذات الأذنين التي لا ينوي أن يتخيّلها، فكيف النطق باسمها؟

انتصب واقفاً. ضمّها إلى صدره بحرصٍ شديد كأنها طفلٌ رضيع يخشى أن يختنق بين يديه، فحقنته بدفءٍ سخيّ. داعب زغبها وجهه، ولكن قلبها مضى ينبض بأعنف إيقاع

تك تك تك...

في الطريق إلى المنتجع همس في أذنها:

لا تخافي! بين يدي «ثيرا» ستكونين في أمان!

هبّ الشمال، حيث يرابط البحر، بنَفَسٍ سلس. في رؤوس الأشجار تنادى محفل الطير:

صَوْ صو صو.. سيت سيت سيت.. طق طق طق.. شيو شيو شيو...

في السبيل احتمى بالزغب الحميم، محاولاً أن يستجدي الذاكرة كي تمنّ عليه بالمشهد من جديد. مشهد القوام المشدود إلى الأعلى، بسيمائه المنيعة، وكيانه اللاأرضيّ، وعينيها السماويّتين، الكسولتين، الناعستين، المسكونتين بالمحال، كأنها الربة «تانّيت». شاءت أن تتجلّى، وتحلّ في جرمٍ من لحمٍ ودم.

يوم وقف بين يديه ليعلّمه الناموس المزعوم سخر منه بمرارة

وهل تتوهّم أنّك ستجد الناموس وديعةً مدسوسةً في خزنةٍ، أو تميمةً ملفوفةً في حجاب؟

كان شيخاً ناهز المائة، وربّما اجتاز عتبة المائة، بفمٍ خالٍ من الأسنان، وبعينين مستورتين بغلالةٍ بيضاء، بجرمٍ ضئيل، يعتلي عرشاً ملفّقاً من تراب، مفروشاً بنطعٍ عارٍ من الشعر، يتوسط جوف خباءٍ جلديّ لحسته شموس الدهر، يستعين على العزلة بصبيّةٍ تبدو حفيدته، وربّما سليلة أحد أحفاده، ظلّت تلج الخباء بين الفينة والأخرى، لتضع بين يديه وعاءً خشبياً، ملآناً بحليبٍ ممزوجٍ بمسحوقٍ قال إنه مستحضر من الجراد المشويّ، ليستعين به على داء النسيان.

حاججه في تلك المواجهة قائلاً:

لم أسمع من فم القبائل، منذ نزلت ضيفاً على هذه الصحراء، إلاّ من يتغنّى بـــ «الناموس الضائع»، أو يتحسّر على «آنهي المفقود»، فكيف يريدني حضرة المبجّل أن أنكر وجود الوصايا الموروثة مزبورةً في سِفْر، أو في مجموع أسفار؟

تناول المعمّر جرعةً من حليبه المجدوح بمسحوق الجراد، ثم غمغم بصوتٍ مبهم، كأنه يعاند لفظاً مجزياً، ولكن خذله غياب الأسنان، فسكت. لم يستسلم، لأنه ما لبث أن عاد يغالب المنطق إلى أن استقامت اللعثمة في صريح العبارة:

أتدري ما معنى «آنهي» في لسان الأوائل؟

اعتدل في جلسته فتبدّى في عشّه ضئيلاً، هشّاً، كطفل. بذل جهداً جديداً كي يستزرع منطقاً في عضلة اللسان:

«آنهي» يعني كل نشاط بِكْر. بِكْر، أو مبكّر. آهلواغ مندام ييهي، يعني «لقد بكّرتُ في الخروج اليوم». وهو ما يعني أنه سيرة أسلافنا التي تترجم للأخلاف وصاياهم المبثوثة في أفعالهم، لا في أقوالهم، كما تتوهّم ملل الضلال التي تفتّش عن الحرف الذي يسكن الأبجدية، لا الفحوى التي تبشّر بها الأبجدية..

غصّ بالجملة التالية فتوقّف. زفر بعمق. استكان إلى عمود الركيزة ثم غاب. أغمض عينيه وصمت أمداً. وعندما فتحهما تململ وهلة قبل أن يجود بسؤال:

ماذا قلت منذ قليل؟

وجد نفسه مضطرّاً لأن يذكّره بكل ما قال. أنصت باهتمام قبل أن ينحني ليتناول جرعتين من الحليب المجدوح بمسحوق الجراد. في سيماء وجهه الممزّق بالغضون لاح ظلّ ابتسامة. برطم لحظة قبل أن يفلح في تطويع اللسان:

لا تلمني إذا جدّفتُ في حقّ المنطق قليلاً. أعترف لك أنّي كنت سأتحوّل

أضحوكة الصغار فيما لو لم ترحمني «تانّيت» بمسحوق الجراد، لأنه الترياق الوحيد اليوم في حربنا ضدّ النسيان!

أعقب بيانه بشأن الترياق بضحكة تحوّلت في صدره حشرجة حقيقية، ولكنه ما لبث أن استعاد روح الجِدّ في العبارة التي تلت:

الاستهتار بالوصايا أفيون الشباب. فنحن لا نفعل في شبابنا أبداً ما يجب أن نفعل، بل نستسلم لإغواء ما يضيرنا كأننا نتعمّد تحدّي القدر الذي حذّرنا من غضبته «آنهي» الذي نتحدّث عنه.

التقط أنفاساً. مال نحوه بجسمه الضئيل كأنه دمية، قبل أن يبذل جهداً بطولياً ليبوح له بسرّ:

في الماضي كنت أستعين بابنتي التي كانت تتوارى هناك في زاوية هذا الخباء لتنبّهني كلّما استدرجني النسيان اللئيم بعيداً فجدّفتُ بحضور الأغراب. ولكنّها..

استوى في جلسته وتطلّع إلى الخلاء، المغمور بالسراب، ثم أضاف:

استردّها منّي التراب منذ أعوام، وبقيت وحيداً، إلى أن أنجدني أحد الأحفاد بالصبيّة التي تراها بين يدي لتقوم على أمري، ولكن هيهات أن تصلح وصيّاً على لساني!

في المدخل أطلّت الصبيّة كأنّ سيرتها، التي جرت على لسان جدّ أبيها، كانت لها بمثابة استدعاء. لأن كل نُطقٍ بالاسم هو طقسُ استحضارٍ لصاحب الاسم. لهذا السبب وضع الناموس تحريماً صارماً على النطق بأسماء الأعداء في قائمة طويلة شملت كل مشؤوم من أهل الإنس كالقتلة وما شابههم، وكل منكر من جنس العُجْم كالأرنب، أو الحيّة، وكل ما انتمى إلى سلالات أهل الخفاء أيضاً.

وضعت قبالته طبقاً مضفوراً من سعف النخيل، مطرّز الأطراف بأطواقٍ من خيوط صوفٍ أحمر اللون. في جوف الطبق استقرّ كومٌ من التمر. إلى الجوار وضعت أيضاً وعاء حليب طازج متوّج برغوة كثيفة فاضت عن الوعاء وتلبّست الحواف.

حدجته باستحياء، ثم انحنت فوق جرم المعمّر لتهمس في أذنه بتعويذتها المجهولة، قبل أن تستدير بقوامها الهزيل، وثوبها الجلدي المطرّز في الحزام بحبّات خرزٍ متعدّدة الألوان، لتسعى في العراء الفسيح المؤدّي إلى أخبية تتناثر في البُعد كأنّ المسافات الفاصلة بين الخباء والخباء لا تكفي لتحقيق الخلوة المأمولة، فيتوثّب الخباء تأهّباً للفرار من وجه الخباء، استجابةً لنداء الناموس المفقود الذي أقبل بحثاً عنه والذي يقول: «سجّجت أيهنان نوان، زيهزت أولاوَن نوان» (باعدوا بين بيوتكم، قاربوا بين قلوبكم).

ففي الأعوام التي صارع فيها الظمأ المجهول الذي لم يدرك له اسماً، لم تكن رموز الأبجدية المنسيّة لتشفي فيه الغليل، فانطلق في طلب الدهاة في

مفازات الصحاري، علّهم يصلحون دليلاً لارتياد ما هو أعظم شأناً من رموز الأبجدية، ومن فحوى رموز الأبجدية، فلم يجد في انتظاره سوى البعبع القديم الذي نصّبه القدر شبحاً يصاحب كل سليل صحراء منذ أوّل يوم في المهد إلى آخر يوم في المسير إلى اللحد: الكتاب الأسطوري الضائع «آنهي» الذي يقف في سيرة الأجيال جلاّداً مسلّطاً له وحده يرجع الحكم بالكلمة الفصل في كلّ شأن. وكثيراً ما حيّره أن يمتلك هذا الطاغية كل هذا السلطان على قلوب الأكابر، كما على قلوب الأصاغر، فيملي أحكامه في حقّ الأجيال، وتجري حكمته على كل لسان، من منفى ضياعه. فكيف سيؤول المآل فيما لو اغترب عن غيابه، عن اغترابه، وحلّ في ربوع القوم متناً مجسّداً في لوح حجرٍ أو رقعةِ جلد، ليقف الظامئون في جِرمه حرفاً؟ أم أن تشبّثه باغترابه، ما هو إلاّ مكيدة لتوطيد أركان سلطانه، لأن الأجيال تعلّمت منذ القدم أن سطوة الغياب، أعظم حُجّةً من سطوة الحضور، بما لا يقاس، ولم يتردّدوا في أن يبرهنوا على صواب حجّتهم بالأرباب الذين استعانوا على فرض مشيئتهم بالاحتجاب، فلا يستظهروا للأنام إلاّ تنكّراً في أجرام أنعامٍ، أو أشباحٍ، أو هوام. لأن طبيعة الأنام هي التي قضت منذ الأزل ألاّ يقنعوا برأي، ولا يعترفوا ببلاغ، ما لم يُخاطبوا من وراء حجاب. ولهذا السبب استهواهم الإخفاء فاخترعوا الاستعارة كي يخفوا في ثناياها كل ما أحبّوا أكثر مما يجب، كما استعانوا بها أيضاً كي يخفوا بها كل ما كرهوا أكثر مما يجب. ولم يتردّد أحد الدهاة أن يحثّه في بحثه عن الناموس إلى استبدال هذه الحمّى بحمّى أنبل في رأيه وهي البحث عن الأسطورة. لأن دهاء الأوائل في حبك ألاعيبهم الطفولية هو ما دعاهم للذهاب إلى قطع شوط أبعد منالاً في مسيرة التورية، فدسّوا كل غنيمتهم في تلابيب هذه الجنيّة: الأسطورة!

لم يكن لينسى كيف توعّده ذلك الشبح بسبابته قائلاً في لكنة يقين:

إذا شئت أن تلتقم حرف الناموس، فليس لك إلاّ أن تستجير بتلابيب الجنيّة، فدهاة الأوائل لم يجدوا حصناً أكثر أماناً من الأسطورة، فدسّوا كل كنوزهم هناك!

وعندما سأل الشبح بأيّ حيلة يستطيع أن يهتدي إلى بلاط الجنيّة، حدجه بنظرة لمع فيها ظلّ استخفاف قبل أن يجيب:

الظلال!

لم يفهم بالطبع. فوقف يتطلّع إلى الشبح ببلاهة، بل ربّما باستنكار، فأوضح:

الأسطورة هي ما لا يعترف بما استظهر، ولكن ما استخفى، وقد آثرت أن تسكن الظلال، لأنها جنيّة!

ولا ينكر أنه لم يكن ليمثل في حضرة هذا الطيف المبعوث من مجاهل الأزمنة المنسيّة لو لم يستنر بوصيّة الشبح الذي اختفى فجأة، كما ظهر فجأة، دون أن يترك على الأرض أثراً، كما يليق بأهل الخفاء الذين اعتادوا أن يتسلّوا بالتنكّر في أجرام أهل الخلاء. وقد تذكّر سيرة هذه الظلال عندما أيقظ المعمّر

التليد في نفسه قوةً خفيّةً ليروي السيرة، التي هي وحدها عنوان كل سيرة، في المتاهة الملقّبة في لسان الأجيال باسم «تينيري»، المستعار من قدمة الأزل، المخفيّة في حرف الراء، الدال في الأبجدية المنسية على الألوهة لأنها وحدها هي الأقدم من كل قدمة، وإلاّ لما استوى اسمها في رمز الدائرة، كما تعلّم يوماً من الكاهنة التي احترفت تعاطي الأشعار.

نازل، في ذلك اليوم، مبعوث الأزمان المنسيّة في فمه عضلة الآثام قبل أن تتمخّض المضغة عن سؤال:

ما هي الصحراء إن لم تكن شيخوخة الأرض؟

طارد السراب بعينيه المستورتين بالبياض، عبر مدخل الخباء المفتوح على العراء، ثم أضاف:

وما هي الشيخوخة إن لم تكن فوزاً بالسبق في الوجود على وجه الأرض؟ ألا توافقني، إذاً، أن الصحراء لم نكن لنعترف بها حرم أرضٍ، لو لم تكن أوّل بقعة أطلّت برأسها من بطن الغمر،

لتكون أول يابسة من حقّها أن تتباهى بلقب الأرض، أو «تينيري» كما نعتها أبناء الأرض الأوائل، التي تعني في لغتنا المنسية «القِدْمَة» برهاناً على الأسبقية؟

تخلّى عن الوسادة الجلدية المختومة برموز الربّة المثلثة، واعتدل في عرشه. غمغم قليلاً، ولكنه استعاد السيطرة على عضلته اللئيمة بروحٍ بطولية:

في البدء كان الإغواء. الإغواء الذي استدرج كل أبناء الأمّة فتنقّلوا في اليابسة أحراراً، لأن الإنسان إذا كان إنساناً، لم يجد ما يفعله بنفسه، فليس له إلاّ أن يفرّ من نفسه، فيتنقّل. لهذا السبب احترف أبناء الأمّة في البدء التنقّل لأنهم عدموا وجود الحِرفة، ولم ينسلخ منهم فريق ويركن للأرض ليستقرّ إلاّ بعد ظهور الحرفة. كانت تلك أول صفقة خسرتها الأمّة في رحلتها في رحاب اليابسة، لأن الاستسلام لإغواء الأرض لم يكتفِ بشقّ الأمّة إلى فريقين، ولكنه زوّر روح مريد الأرض ولوّثها بدَنَس الملكيّة، فلم يتنكّر هذا الفريق فقط لعرف التنقّل في ربوع يابسة هي في منطق الأمّة تالياً حرية، ولكنه لم يستحِ أن يناصب شقيق الأمس أشدّ أجناس العداء؛ لأن سحر الامتلاك وحده يستطيع أن يزيّف في الإنسان سليقة الإنسان، ليعجنه في طينةٍ كريهةٍ أخرى لم تتردّد الأجيال في أن تطلق عليها تالياً اسماً منكراً هو: العبودية!

التقط أنفاساً في اللحظة التي انتصبت فيها الوليدة في المدخل كالشبح محمّلةً بترياق النسيان الملفّق من الحليب الممزوج بمسحوق الجراد. تناول جرعة ثم عارك العضلة لحظة قبل أن يواصل:

توسّد الفريق الأرضي منابع المياه لتنشأ بمرور الأيام هناك ما نسمّيه اليوم بالواحات التي لم يلبث الأرضيّون أن يشيّدوا فيها الأبنية من قوالب الطين أوّلاً، ثم من الحجر في المراحل التالية. لم يكتفِ هؤلاء الأشقياء بكتم أنفاس أمّنا اليابسة بجلاميد الحجارة، ولكنهم اقترفوا في حقّها خطيئة أخرى يوم أتقنوا صنع آلاتٍ شقّوا بها بطن الأرض ليبذروا في جوفها صنوف الزروع،

ليشبعوا في نفوسهم جشعاً لن يشبعه إلاّ التراب، في وقتٍ لم يتوقّف فيه الفريق المهاجر عن فراره، مردّداً اللحون عن اغترابه، وعن ظمأهللمثول في وطن الأرباب. بلى! الأرباب كانت الوسواس الذي بلبل حياة الفريق المهاجر في خلاء اليابسة، في حين كان الجوع إلى امتلاك المزيد هو همّ كل إنسان شرب من منابع الواحات، إلى أن أطلّت في الأفق الفئة النارية التي بقرت بطن أمٍّ اسمها الأرض واستخرجت من جوفها معدناً مشؤوماً اسمه الحديد، احترفت صهره في أفران خرافية لتطوّع ذلك المسخ في آلات شريرة لقضاء حوائج أرضيّة لم تكن يوماً ضرورية، ولكن مواهبهم في ترويض الحديد استنزلت في حقّ هؤلاء السحرة آي إكبار ممزوج بالاحتقار: الإكبار بسبب قدراتهم السحرية في استنطاق معدن النحس، واحتقار بسبب مسلكهم الرذيل وسوء خُلُق في معدنهم أصيل. كانوا ملّة خفيّة، ذات علاقة مشبوهة بأهل الخفاء، لؤماء، مخاتلون، سليطون، لسانهم

مسموم. وكي تأمن الأقوام شرّهم كان أسلافنا يقطعون ألسنتهم بأن يضعوا بين أيديهم كل ما امتلكت أياديهم، ليقينهم بأن من الحمق أن يأمن الإنسان عرضه من إنسانٍ لم يتردّد في أن يغتصب من أمّه الأرض هباءً شريراً أخفته عن الأنظار خصّيصاً، ليحبك منه سحراً يفوق الصلد سلطاناً، ليسحق به صلداً يستبيح به بكارة أمّه الأرض. كانت تلك مكيدة انطلت على أبرياء الصحراء، فلم يتردّدوا في أن ينصّبوهم أولياء أمر ينوبون عنهم في تصريف شؤون كل ما تعلّق بممتلكاتهم وأراضيهم التي اقتنوها في الواحات، ولكن الحنين إلى البرية غلبهم فالتحقوا بها، تاركين الأملاك في عهدة مستخدميهم الجدد، ليعودوها بين الفينة والأخرى، ولكنهم، بهذا الصنيع، لم يلبثوا أن فقدوها. لم يفقدوا الأملاك، والواحات، بل والوطن وحسب بهذه الحماقة، ولكنهم فقدوا ذلك السرّ الذي يسكن الانتماء، ولم يعرفوا له حتى ذلك الوقت اسماً؛ لأن الزمن الذي استهانوا به دوماً في «ميدّبياغز» اللعينة ما لبث أن انتقم منهم بقطع دابرهم، ليصير سحرة الأغراب ورثتهم!

سقط على الوسادة لاهثاً. غاب زمناً. ولكنه أفلح في أن يضيف:

ليت لؤماء الحديد الدخلاء اكتفوا بأن يرثوا حطاماً كالزروع أو ما شابهها، ولكن البلاء أنهم ورثوا الأمّ التي أعطت الزروع. ورثوا الأرض وانتحلوها لأنفسهم، لأن طبيعة الأشياء هي التي قضت بأن يرث المستوصَى فحوى الوصيّة في حال وفاة الموصي. ووراثة الأرض، كما نعلم، هي وراثة الوطن. وبوراثة الوطن يموت صاحب الوطن للمرة الثانية، لأنه به يموت الاسم الذي استودع الوطن، فيموت بموته الوطن أيضاً. فهل هذا كل شيء؟

أطلق أنيناً شجنيّاً وجيعاً ثم تنحّى واعتدل في جلسته. لاحظ في مقلتيه الخاويتين وميضاً كالبلل، ولكنه لم يُهزَم:

الأسوأ من الاستيلاء على الأرض وما اغتنمت الأرض، كان اختلاس الناموس!

تزعزع بوهن عابر فتضعضع ومال إلى الأمام حتى كاد يهوي من عرشه الترابي المهيب، في حين اشتعل هو بالفضول فاستحثّه بحماسٍ مفاجئ كأنه يستحلفه أن يصمد في النزال مع اللسان ومع النسيان حتى يفرغ من سيرة الناموس الذي جاء من أجله:

اختلاس الناموس؟

مضغ الهواء وهلة، ثم غمغم قبل أن يستقيم في العضلة القول:

الأسلاف اقترفوا في حقّ أنفسهم، وفي حقّ الأجيال من بعدهم، خطيئة أفظع عندما نصّبوا تلك الدسيسة الخبيثة أوصياء على الوديعة الوحيدة التي اختزلت ماضيهم، وكل ما ورثوا من حكمة خلفاً عن سلف، وحوت حقيقتهم، لتكون تلك الوديعة في المجمل روحهم، الموسّمة في لغتهم باسم «آنهي».

سكت من جديد. حشرج لحظات. غزت سيماء الوجه سحابة كآبة. غمغم:

ماذا قلت قبل قليل؟

هبّ لنجدته:

«كنت تتحدّث يا مولانا عن «آنهي»..

ردّد اسم «آنهي» كأنه يترنّم بأغنية، أو يستجير بتميمة. استعاد أخيراً لقيته الضائعة:

بلى! آنهي. لقد التحق شطر من الفئة الدخيلة بقوافل الأمّة المهاجرة، واندسّت بين عقلائها حتّى اطمأنّوا لمواهبها، فنصّبوها وصيّاً على وديعتين جسيمتين: طبل الحرب، والناموس المزبور آنذاك في ألواح خشبية مكتوبة بالأبجدية المنسيّة. وكان دهاة هذه الفئة الشقيّة ترافق قبائل الرحيل في تنقّلاتها عبر الأعوام، وتتلقّى بين الفينة والأخرى وصايا جديدة من الناموس مزبورةً على الألواح الخشبيّة، لأن «آنهي» كان منذ الأزل بمثابة قراءة في لوح كل ما استخفى، وفي لوح كل ما استظهر، من سيرة بدأت في قماط المهد، وتواصلت حتّى منازل اللحد. وهو اللحد الذي لم يقرأ له بلهاء القوم حساباً، فخذلهم الخصم الأبدي الزمان مرة أخرى، لأن قدر أجيال العابرين أن يفنوا دون أن يتركوا لأخلافهم أثراً، لأن البرية وُجدت لتمحو الأثر، لا لتبقي على الأثر. والوصية الوحيدة الدالّة على وجود الأسلاف كأناسٍ تسكن أجراماً، وأنهم لم يكونوا أشباحاً من سلالات الخفاء، أو أطيافاً هائمة في الخلاء، هي الفحوى المبثوثة في الألواح، المستودعة لدى فئة الحدّادين الذين لم يتردّدوا في أن يفرّوا بها كلّما تضعضعت القبيلة العابرة بسبب الحروب أو الأوبئة أو الجدب، إلى أوطان الشرق التي أقبلوا منها، فلا يكتفوا بهذا الاختلاس الآثم في حقّ الأمانة الجسيمة التي استُودعوا، ولكنهم اقترفوا جرماً أشنع عندما نسبوها لأنفسهم، لتكون حجر الأساس في كيان مجدهم المزعوم.

هجم على الوعاء المملوء بترياق النسيان بيدين راجفتين. تناول جرعات فتبدّى في تلك الوهلة هشّاً ومغلوباً على أمره على نحوٍ لا يطاق، فأشاح

بوجهه صوب العراء إشفاقاً، وربما إعجاباً، بل وامتناناً، ما لبث أن انتابه عندما استطاع أن يبعث في نفسه مارداً خفياً كان له عوناً في أن يواصل حفر الذاكرة بسؤال:

هل تعلم الآن سبب الاسم القاسي المثقل بالدلالات الذي سنّه الأسلاف ليكون ترجماناً لكلّ السيرة، وبرهاناً على طينتهم بين الملل؟

تفث أنفاساً، وتضعضع مرة أخرى. لاذ بالصمت لاهثاً. ضاعت المقلتان زمناً ثم وشوش:

ماذا قلت؟

هبّ لنجدته:

..كنت تروي يا مولانا سيرة الاسم الذي كان ترجمان السيرة

بلى! الاسم. آمازاغ، استعارة من يزّغ، أي سكَن، أمزّاغ: سكّان. أمازيغ، أو أماهغ، أو أماجغ، كلّها اسمٌ واحد بمنطوقٍ مختلف. أمّا الحمولة فهي الثروة القاسية لأنها حيناً كناية عن الشجاعة، وتارة أخرى كناية عن الغريب، وأحياناً كثيرة ترد للتدليل على الغُبن، كما هو مترجم في القول الأليم الذي نتغنّى به كلّما حاق بنا بلاء: «إيموهاغ أميهغان»، أي: القومالمخذولون، أو الأمة المنهوبة، أو المغلوبة على أمرها، لماذا؟ لأننا عندما تنازلنا عن ملكية الأرض في سبيل حريّتنا، عوقبنا بأن نفقد كل شيء. نفقد الأرض، نفقد ناموسنا الحاوي لحقيقتنا. نفقد لساننا الذي اختلسته الألسن لتنسج به أمجادها. نفقد، بفقد كل ما فقدنا، روحنا، لأن أي روح نستطيع أن ندّعي وجودها بغياب الوطن، وبغياب الوصايا الموروثة التي تتغنّى بحبّ الوطن؟ وهكذا استعرنا النعت المميت الذي ألصقته الأجيال بالناموس فقالوا: «الضائع»، في حين نحن، في الحقّ، مَن ضاع بضياعه، لا لشيء إلاّ لأننا أغضبنا الأرباب عندما نافسناهم في عبادة السرّ الوحيد الذي كان حكراً عليهم وحدهم وهو: الحرية!

هَوَى على الوسادة مستنزفاً. بذل جهداً فروسياً آخر كي يُدلي بالعبارة التي اعتاد أن يترجم بها خوفه الخفي من اقتراف إثمٍ مجهولٍ استنكره الناموس دوماً في عضلة اللسان:

فلتُجِرني ربّة الأرباب «تانّيت» من بلاءٍ حاق بي دوماً كلّما استهواني استخدام هذا الثعلبان الراقد في أفواهنا، الذي لم تكن الأرباب لتحبسه وراء قضبان الأسنان، بلا سبب!

:خاطب «آغافون» قائلاً

أجبني عن سؤالٍ واحد بجاه ربّتنا المشتركة «تانّيت»: مَن نحن؟

تطلّع إليه «آغافون» بفضولٍ لم يلبث أن تحوّل في سيمائه دهشةً. تأمّله مليّاً كأنه يريد أن يتيقّن ما :إذا لم يكن هازلاً. ثم ابتسم بغموضٍ قبل أن يجيب

.لا أظنّ أن صولون نفسه يستطيع أن يجيبك عن هذا السؤال

:توضّحه دون أن تفارق البسمة شفتيه ثم استفهم

هل سبق لك أن سمعت بهذا الاسم قبل اليوم؟

هزّ رأسه نفياً فمضى «آغافون» يترصّده باحثاً في وجهه عن إيماءٍ يستطيع أن يشفي الغليل، :وعندما يئس سأل

لو سألتك سؤالاً كهذا، بماذا تجيب؟

سرح في المدى العنيد الذي بدأ يتعرّى من الشجر وكثافة النّبت، ليستعير مسوحاً أخرى. غاب في :امتداد المدى زمناً قبل أن يجيب

..نحن

:قطب حاجبيه فتغضّن الوجه بتجاعيد سخيّة، ثم غرّد بنبرة من يحدّث نفسه

!نحن غنيمة الأغراب

:«استنكر «آغافون

غنيمة الأغراب؟

:فأضاف بلا تردّد كأنّه انتظر الاستنكار

!بلى! نحن غنيمة أغراب. غنيمة أغراب كالسلفيوم تماماً

:اختفت البسمة في سيماء «آغافون» الصافية، فهتف

كالسلفيوم؟

:تغنّى من رحاب حُلمه

نحن نجهل من أين جئنا ولماذا جئنا. نحن نبتة مجهولة، لفظتها الأرض لتكون ترياقاً للأغيار، كالسلفيوم تماماً. كل ما هنالك أننا نستحي أننا جئنا، أما الأغراب الذين يتناهبون أرضنا أمثالكم، فلا يستحون. الحياء من أنفسنا، لا من الأغيار، هو ما يدعونا لأن نحجب وجوهنا خجلاً. هل تدري ما معنى كلمة «بربر» التي استعارها لسانكم منّا لتطلقوها على كل الأغراب في بلادكم، بما في ذلك نحن؟

لاحظه «آغافون» بنظرة امتزج فيها الفضول بالاستخفاف، ولكنه لاذ بالصمت، فأضاف بلهجة مَن :لم ينتظر جواباً

«بربر» في لساننا تعني المجهول. تعني المحتجب. تعني كل من اتخذ لنفسه قناعاً. لهذا السبب يطيب لنا أن نستعير لأنفسنا الأقنعة خجلاً من أنفسنا؛ لأن الجهل في يقيننا هو الخطيئة الوحيدة الجديرة بأن تُخجل. هذا الخجل هو ما دعانا لأن نعتنق دين التخلي: التخلي عن الأرض، التخلي عن الأملاك، التخلي عن الجدران، التخلي عن السطوة، التخلي عن كل ما من شأنه أن يحط من شأن المعجزة التي تسكننا، ولكن اللسان يعجزنا أن نجد لها اسماً يليق بمنعتها،يليق باستحالتها، !فسلمنا زمام أمرنا للصحراء كي تقودنا إلى متاهتها، علّها تعجّل بإضاعتنا، كي نستعيد وطننا

:سكت وهلة، ولكنه ما لبث أن تململ ليضيف

!تركنا كل شيء لغرباء الأركان الأربعة، ولكن غرباء الأركان الأربعة لم يتركونا

في تلك اللحظة تعالى صوت النذير مبشّراً بحلول ميعاد الانطلاق، في حين تزامن النداء مع وصول «سيراس» في مركبتها ذات الجوادَيْن، فتبدو له في جلستها مكابرةً، ومنيعةً، بلا أمل في وجود قوّة تستطيع أن تستعيدها من حصونها. بجوارها انتصبت حسناء أخرى، شاهدها برفقتها مراراً، ولكنه لم يقف في حضرتها قبل اليوم. كانت مستنفرةً كغزالةٍ جفول، بصدرٍ ناهد، وعينين

سوداوين جريئتين مستنفرتَين، بثغرٍ يبدو معوجّاً، ولكنه اعوجاجٌ استنزل في الوجه فتنةً غامضةً. قدّمتها له مشفوعةً ببسمةٍ عصيّة:

هذه «تارا». صديقتي..

فتدخّل «آغافون» مقاطعاً:

«تارا» أرملة أيضاً. فقدت رجلها في حرب السبعة آلاف شهيد، فاحترس أن يكون قد لقي حتفه على يديك!

جعجع بضحكة مكتومة قبل أن يقطع في مزاحه شوطاً أبعد:

لا يجب أن تَثِقنَ به أبداً، فهو مفتونٌ بسرد بطولاته في تلك الحرب المشؤومة!

رمقته «سيراس» بنظرة غامضة فاحتقن وجهه بالدم وابتلع ضحكة. في تلك اللحظة أبصر رأساً يطلّ من كوم الأغطية بين المرأتين، مجبولاً ببسمة ماكرة، ولكنها فاتنة، لأن الصغيرة «ثيرا» لم تجد ما تعبّر به عن امتنانها بالهبة الملفوفة في الأغطية، فلا يبدو منها إلاّ رأسها، سوى هذا الوميض الذي يوحي بشقاوة تقول إنهما شريكان في حبك مكيدة خفية هي سرّ يجب أن يبقى حكراً عليهما وحدهما. وكي تدشّن العهد بينهما لوّحت له برأس البهمة الوديعة النائمة في حضنها في اللحظة نفسها التي استفهمت فيها الأمّ التي تنتصب إلى جوارها كأنها خمّنت، بحسّ المرأة الذي لا يخطئ، فحوى الصفقة بينهما:

يحيّرني حقّاً نيل الطريدة دون إلحاق الأذى بالطريدة!

فابتسم لها قبل أن يجيب:

الفضل في سحر التميمة، يا مولاتنا، لا فضل مواهب الصيّاد: دائرة الشَّرَك

المحبوك من الأغصان الطازجة، المدجّج بأسنان مثلثات الربّة، لا يضير الطريدة، وكلّ ما يفعله أن يعيق حركة الطريدة!

فتدخّل «آغافون» من جديد:

مَن اعتاد أن ينصب الأشراك في الصحاري لاقتناص السراب، لن يعجزه أن يقتنص طريدة، دون أن يلحق الأذى بالطريدة!

عاد يجعجع بضحكته المكتومة ويتطلّع إلى «تارا» بنظرة ذات معنى، في حين عادت السيماء في وجهه تنضح بالدم.

بالجوار، عبر الدرب العصيّ، المحفوف بأشجار صنوبر وضيع القامة، يلوذ بسفوح المرتفعات في مسافات متباعدة، تدفّق المهاجرون يهشّون ماشيتهم، أو يعاندون جيادهم أو بغالهم أو أبقارهم، أو ينتهرون عبيدهم الذين تنكّبوا الأحمال وساروا إلى جوارهم، أو نساء يجادلن إماءهنّ في شأن الأطفال المحمولين على ظهورهن. أمّا السادة فانتصبوا في المركبات ذات الجوادين، أو ذات الأربعة جياد، بجوار نسائهم، ويمّموا بوجوههم صوب الأفق المغمور بفيوض شمس الضحى، المجلّل في البُعْد ببصمة تعد بانقطاع نعيم الأرض في المسافة التالية، وحلول الجدب في منعطفٍ جائر، ما لبث أن خيّب ظنّ المهاجرين في مسيرهم إلى الوطن الموعود، ولكن الدليل هو الذي قاد إليه، لاجتناب المرور بمراتع الخصب في الشمال، عملاً بوصيّة الزعيم.

تابعهم في قيّامتهم المحمومة، فتألّم لسيماء الحِداد المرسومة في وجوههم:

حدادٌ عميق، يتشبّث بأعطاف كل مهاجر، لأنه لم يرَ في أيّ عابرٍ للأرض، سوى مأتم يسعى.

فوق المرتفعات كانت الغيوم ما تزال تتسكّع في الفضاء، مدفوعةً برياحٍ شماليّة يتنفّسها البحر، ولكنها، في البرزخ المطلّ على الصحراء، لا تلبث أن تتمزّق في أشتاتٍ بائسةٍ، تسبح في الفراغ المغسول بأشعّة شموس الجنوب، فتتهلهل، وتتهلهل إلى أن تتبخّر. ليست غيوم الشمال، المثقلة بالغيوث، وحدها ستفقد حمولتها، ولكن الأرض أيضاً سوف تتنكّر لسليقتها، منذ الآن، وتفقد حمولتها. تتجرّد من لحمتها. تتعرّى من ستورها، لتكتسب أقنعة أخرى، مجبولةً بهويّة أخرى. ينقصم الظهر أولاً، فينكسر مع الظهر الكبرياء. تنحني الرؤوس في الجبال لتتوصل الوعورة في الروابي، ولكن مارد الأرض الجديد لا يقنع بالخشعة، فيطالب بالمزيد. تنكسر عروق الروابي أيضاً، وتهوي بظهورها إلى الحضيض كلّما اقتربت من تخوم البرزخ الجنوبي، حيث ينتصب شبح اليابسة الذي لا يقهر، لأنه صاحب الفضل على الأرض، لأنه صاحب الفضل في وجود الأرض، في بروز الأرض من قيعان اليمّ. ولهذا السبب يطالب بالمزيد، لأنه لا يقنع إلاّ بالمحو ديناً. يقطع الشمال في مسيرة التخلّي شوطاً آخر، فيركع في الحرم الجائر. يركع ويركع إلى أن يستوي بالأسافل، بالحضيض، الممهور بلونٍ قانٍ كنزيف الدم، فيتماهى في الحضيض نزولاً عند مشيئة الجلاّد الرهيب.

.المسلّط على رأسه منذ الأزل ملوّحاً أبداً بسياط القدر النارية

فهل تقنع المتاهة بالغلبة؟

كلاّ بالطبع. فهو وحده يوساس الشقيّ، سليل التّيه الأبديّ، يدري أن ما أخفاه المدى المزموم، المستلقي بلا أمل في بلوغ حدّ، أعظم شأناً مما أظهر، لأن هناك، وراء الآفاق التي تتوالد لتلد الآفاق، يرابط ماردٌ آخر، لم تخطئ الأجيال عندما دشّنته بوسامٍ مبثوثٍ في اسمٍ جليلٍ هو: بحر .الرمال العظيم

ولكن ليس له أن يستسلم فيتوغّل في المجاهل أبعد ممّا ينبغي، لأن بحر الرمال العظيم، في العرف، بعبع، ولم يكن لِمِلَل الصحراويين ملاذاً. والأغراب في عهدته وديعة ليس لها أن تجتاز إلى الحدود القصوى، بل أن ترتضي المقام في حدّ يؤمّن الحضور في أرضٍ السماء فوقها ممزّقة بالثقوب، ويضمن أيضاً هيمنة حقول الحلم الذي انتشل نبتة العجب من أزمنة الأساطير، واستزرعها في الكيان الخرافي المجسّد في أعمدة ثرية تحاكي في سيمائها وفخامتها ونقوشها والنمنمة المبثوثة في سيقانها، أعمدة معبد الإله زيوس الذي شهد بنيانه المهيب مرّة يجثم فوق قمّة الجبل وسط «قورينا»، مطلاً على البحر، من موقعه المعلّق بين السماء والأرض. أمّا الأوراق اللئيمة فتتشبّث بالساق المجيدة كأنها أغصان في شجرة، لا في نبتة تدّعي الانتماء إلى سلالات العشب، لتسترخي في وقفتها ولتنثني بدلالٍ إلى الأسفل، متوعّدةً المجهول بمخلبٍ منكر، لا يشفع له، في هذه الهويّة، إلاّ التثليث في الأضلاع، المستعار من مثلّث ربّة الأرباب «تانّيت». هذا في حين يتعمّد الرأس، الذي يتوّج عشبة الخفاء، أن يستجير بحِمَى الاستدارة فينكمش حول نفسه في طوقٍ محكم، ليتكتّم على سرّه الرهيب الذي بلبل العقول، ودفع الأمم إلى شدّ الرحال، لتمثل في حرمه، طمعاً في نيل .نصيبٍ من سحره

في مكانٍ مّا من وطن هذا البرزخ الواقع بين أرضٍ وأرض، بين طبعٍ وطبع، بين غيبٍ وغيب، اختارت عشبة الخلود، أو الجنون (لأن ما الفرق بين الجنون والخلود في الواقع؟)، أن تستقرّ، إيماناً بالإعجاز في موقف الوسط، المترجَم في حرف كل حدّ أو برزخ، لأنها هي ذاتها لم تكن !سوى جنس من وسط، أو برزخ، بين بُعْدَين لا يرى دهاة القبائل بينهما فرقاً: الخلود والجنون

في الطريق لاحق نساء القافلة مراراً، ليستعيد مدى صواب ما ردّده «آغافون» عن مواهب تلك الظلال، المستعارة منذ القدم، من نساء الوطن. ظِلالٌ علّ أدهى مواهبها إنّما تسكن تلك الفتنة الخفية التي تهوّن من قسوة المدى الذي لا يعد بغير الفناء، وتجعل عبور الصحراء مجازفة محتملة؛ ربما لأنها تبدو في مسلكها أكثر فطنةً من معشر الرجال في ترويض هذه الغانية المعادية، !كأنّ الأدهياء، لم يخطئوا يوم قالوا إن الصحراء امرأة

الصحراء امرأة؟

الصحراء، في يقينه، حقّاً امرأة. امرأة في استكبارها. في منعتها. في غطرستها. في فتنتها. في وعدها. في غدرها. في حسنها الذي لا يُحتمل. في المكوس الفادحة التي تلوّح بها شرطاً لنيلها. ولكن ما لم يؤمن به يوماً هو الخرافة التي تقول إن المرأة صحراء، وإلاّ كان عليه أن يقتنع بأن .مخلوقاً لاأرضيّاً مثل «سيراس» يمكن أن يكون مجرّد صحراء

ليس تجديفاً في حقّ «سيراس» وحدها أن تُنعَتْ المرأة بالصحراء، ولكنه تجديفٌ في حقّ ظبية السهول الجنوبية «تالّيت» التي التقاها أوّل مرّة في مراعي «آكوكاس»، وحدّثته عن قبيلتها التي أفسد ريح الجنوب زروعها، ودفن مراعيها بالرمال طوال أجيال وأجيال، فلم يجد العقلاء مفرّاً من غزوها في عقر دارها، وكتم أنفاسها الكريهة هناك، عند تخوم الأدغال التي تنفثها، بعد أن أخفق عتاة السحرة في ترويض جنونها طوال أعوام. «تاليت» حدّثته فقالت إن القوم التأموا قبيل الحملة في العراء لبحث أنسب السبل للقضاء على هذا العدوّ الخبيث، كما اعتادوا أن يفعلوا في كل مرّة خرجوا فيها لغزو، ولكنّهم اختلفوا في شأن الريح كما لم يختلفوا يوماً، لأنه عدوّ حقّاً، ولكنه عدوٌّ ليس ككلّ عدوّ. كبير السحرة أوصى بتقسيم الجيش إلى فريقين: فريقٌ يتّجه غرباً، وآخر ينطلق شرقاً، ثمّ ينعطف الفريق الأوّل ناحية الجنوب، وينحرف الفريق الثاني أيضاً صوب الجنوب، فيباغته الجيشان في معقله، ويكتموا أنفاسه. في حين اقترح الأكابر خطّة أخرى مفادها أن يتنكّر المحاربون في مسوح التجّار ويتسلّلوا إلى صحراء «تينيري» ليخنسوا هناك في مغارات «كرو كرو» في انتظار خروجه من مغارته، حتّى إذا أطلّ برأسه ونفث في الأنحاء فحيحه المميت، هجموا عليه وقطعوا رأسه في المهد، لأن شهود العيان أجمعوا أنه لا يكون أوهن قوّةً، وأضعف عوداً، كما يكون ساعة زحفه من جوف قمقمه، ولا ينقلب مارداً لا يُقهر إلاّ في المسافات التالية حيث تهبّ لنجدته أمّه الأرض فتغذّيه في كل خطوة بذخيرة جديدة في مخزون الرمال، والويل ثم الويل لمن اعترض سبيله يوم يبلغ بحر الرمال الجنوبي، لأنه في هذا الحدّ يكون قد استزاد من .المؤونة بما لا يطاق، فلا يُبقي ولا يذر، ويسحق في طريقه كل شيء

نال الاقتراح استحسان الأغلبية، ولكن رجلاً واحداً، كان طوال الجدال يلوذ

بالصمت في ركنٍ قصيّ، ما لبث أن أبطل بكلمة واحدة مفعول الخطّتين. ذاك كان بطل الأبطال الذي لم تخذله شجاعته يوماً، ولم يُهزم في حرب، الملقّب باسم «أباجّا أغبوجّا»، هو الذي تكلّم فقال إن الاحتيال في مواجهة أيّ عدوٍ غَدْر، والغدرُ خِسّة، والخسّة هو ما يرفضه الناموس الذي لم يكن ليَضيع من أيدي القبائل إلاّ بسبب هذه الخسّة، فكيف تبيح الأمّة لنفسها ما تستنكره في أعدائها؟

وعبثاً حاول الدهاة أن يثنوه عن المواجهة في حقّ عدوٍ كالريح، لأنه، كما أكّدوا، ليس عدوّاً ككلّ عدوّ. ولكن بطل الأبطال «آباجّا أغ بوجّا» سخر منهم، واستشهد بوصيّة مستعارة من «آنهي» المفقود تقول إن ميتة شجاعة في حربٍ عادلة أفضل من نجاة خسّيسة في حربٍ لئيمة. ولم يملك القوم إلاّ أن يمتثلوا لقدرهم يقيناً منهم أن الرأي رأي بطل الأبطال، والغلبة غلبة بطل الأبطال، والمجد مجد بطل الأبطال، ولكن ما غاب عنهم هو أن العدوّ هذه المرّة ليس ككلّ عدوّ، والحرب هذه المرّة ليست حرباً ككل حرب، والهزيمة في هذه المرّة لن تكون هزيمة ككلّ هزيمة. حاول كبير السحرة أن يحتجّ: «ولكن، يا صاحب الأمجاد، الريح لا يعترف..»، فما كان من صاحب الأمجاد إلاّ أن قاطعه: «يعترف أو لا يعترف، هذا شأنه هو. أمّا شأننا أن نحكّم فيه الناموس، كما حكّمناه في أمثاله مراراً». استنجد كبير السحرة بكبير القوم بإيماءة، كي يتدخّل، وعندما لم يجد استجابةً، جازف بمحاولة أخيرة: «ولكن الناموس ليس معبوداً، والعدوّ هذه المرّة ليس له أمثال، بل هو ليس كمثله شيء..»، فلم يجد بطل الأبطال مفرّاً من إسكاته بضربةٍ من مسعر النار حرقت شفتيه.

تلك كانت المعركة الأولى التي خسرها بطل الأبطال «أباجّا أغ بوجّا» المجيد، لتكون الحرب الأخيرة في سلسلة حروبه الطويلة، لتغدو الطوفان الذي أغرق وطن القوم ودفنه في بطن الرمال إلى الأبد، ولم يكن لينجو من القصاص سوى تلك الفئة القليلة التي تزامن غيابها عن الوطن مع حلول البليّة.

كانت «تالّيت» هذه بارعة في سرد السير، وقد استهوته لهذا السبب بالطبع، فواعدها في المراعي مراراً، ولم يقنع تالياً، فاقترف خطيئة لم تغتفرها له يوم تسلّل إلى خبائها ليصبّ في أذنها نصيباً كافياً من معسول الكلام، ومن لغوٍ آخر لم يستح بأن يتباهى فيدّعي زوراً أنها أشعار، عملاً بوصيّة أحد الرعاة الأدهياء الذي قال له إن عليه أن يكذب ثم يكذب في آذان النساء إذا شاء أن يكسب ثقة النساء، بل إذا شاء أن يحطّم قلوب النساء. لم يفعل ذلك استهتاراً بالطبع، ولكنه فعل تلبيةً لنداء رجلٍ بلا بطولات يتباهى بها، ولا مواهب يستطيع أن يتغنّى بها، ولم يملك في دنياه سوى تيهه ويُتمه وفشله في أن يتفوّق على نفسه كما فعل الأخيار، فقرّر أن يستعين بالحيلة الوحيدة التي

يلتجئ لها الرجال في مثل هذه الأحوال، وهي: عضلة اللسان. لأن مَن ابتُلي بالعشق وحده يعلم مدى بؤس إنسان مفلس من المواهب عندما يعشق امرأة نيل قلبها رهين قربانٍ دوماً.

وكان المُصاب سيهون فيما لو امتلك العاشق لساناً معسولاً بالسليقة كي

يتفنّن في استخدام هذا السلاح، لأن الكذب أيضاً موهبة فذّة فيما لو أتقنها كما يجب أن يتقن أي حرفة. ولهذا أسمعها سيراً مزيّفة، وردّد أشعاراً مختلقة أو منحولة، وروى أشجاناً مفتعلة. جرى كل هذا على اللسان في حين ظلّ قلبه ينزف طوال هذه الصَّبْيَنَة المثيرة للضحك. وكم مرّة انتابته رغبة جنونية في أن يعترف بإثمه ويروي سيرة نزيفه بدل الاستمرار في لعبة اللغو الحلو التي لقّنها له داهية المراعي الشقيّ ولكن هيهات! فهو، يوساس، الذي أُريدَ له أن يكون بالاسم شقيّاً، لم يكن شقيّاً أبداً إلاّ بغياب أحجية واحدة استشعر إليها حاجة عميقة لم يكتشف لها اسماً إلاّ تالياً: الحب!

فهل هو تجديفٌ في حقّ الناموس أن يعترف الإنسان بالحاجة إلى الحبّ؟ أم أن قدر أمثاله من أهل العزلة أن يطاردوا السراب كل حياتهم حتى إذا تململت أفئدتهم بهذا الدّاء، فليس لهم إلاّ أن يختنقوا بالغصّة ليلفظوا أنفاسهم بعيداً في الخلاء؟

محاولة تلك الليلة تؤكّد صواب الاحتمال الأخير، لأن المرأة التي أنصتت لسفسافه في بداية الجلسة بفضول، كما تخيّل، ما لبثت أن لاذت بالصمت تالياً، ولم يسمع في العتمة سوى أصوات مريبة ظلّت حبيسةً في صدرها كأنها حشرجة مكتومة، إلى أن اختطّ القبس في الأفق بصمته إيذاناً بمطلع الفجر. لحظتها انتصبت واقفة وغابت وهلة في جوف الخباء لتخرج من هناك مخلوقاً آخر. دخلت الجوف حسناء، وخرجت من هناك سعلاة. دخلت فاتنةً ترفل في محاسن العشق، وخرجت جنيّةً مسكونةً بروح الشرّ. دخلت مجلّلةً بالإغواء، وخرجت لتنقضّ عليه بغتةً بشراسة لبوءة.

استعارت في تلك الهجمة مخالب أيضاً، وهو ما شلّ فيه روح الدفاع عن النفس. مزّقت وجهه بجراحٍ دامية قبل أن يستيقظ من غفلته ويدرك ماذا حدث. فزّ أخيراً وبذل جهداً بطولياً كي ينفضها عنه بعيداً، ويقفز خارجاً. ولكنها لاحقته هنا أيضاً. غرست مخالبها في ذراعه قبل أن يتنصّل من جرمها البشع فلسعته في وجهه بجلدٍ شرسٍ كأنه مفتولٌ من نار، قبل أن يلوذ بالفرار. فزّ عبر العراء ميمّماً صوب الأفق المكلّل ببسمة القبس، ولكنها فرّت وراءه مطلقةً أصواتاً منكرةً كأنها وحشٌ مسعور. كأنّها لم تستعر من المجهول الذي تنتمي إليه القوّة الجنونية وحدها، ولكنها استعارت منه أيضاً سرعة الريح التي أفنت أُمّتها، وقطعت من البرّ سلالتها. طاردته وهي تنهش ظهره بأنيابها، وتفترس أطرافه بفتلة النار، ولم يفلح في النجاة من بطشها إلاّ لحظة استجار

بضريحٍ مهيب اعترض سبيله، فحامت حول حرم السَّلَف، الملفّق من حجارةٍ نادرة، وهي تدمدم بأصواتٍ مريبة، فاقدةً صوابها، إلى أن هيمن الصبح، فاندثرت باندثار فلول العتمة.

في ذلك اليوم آمن بحكمة الصحراء التي لم تخطئ في حقّ القبيلة الفانية عندما أرسلت الريح لتقطع نسلها من أرباع الجنوب. فهل استوعب الدرس بالملحمة، وقمع في نفسه الظمأ المحموم إلى الطاغية الذي اعتاد الناس أن يسمّوه حبّاً؟

كلاّ، بالطبع؛ لأنه اكتشف أن الحبّ، كالموت، داءٌ بلا ترياق: فلا شفاء من الحبّ إلاّ بالحبّ، كما لا شفاء من الموت إلاّ بالموت.

زلّة لسان؟

كلاّ، كلاّ. لم تكن تلك زلّة لسان كما توهّموا، فسخروا منه، بل وتندّروا، ولكنّها كانت الشهادة التي أنكروا:

«هنا، يا محفل الغرباء، في هذه الأرض الطيّبة، التي تظلّلها سماء مثقوبة، يسعدني اليوم أن أتركككم، لأني على يقين أنها سوف تحسن إطعامكم، كما أطعمت أمماً كثيرة من قبلكم، ولن تبخل عليكم بكل ما اشتهيتهم، بما في ذلك عشبتكم!».

لم يخفوا سعادتهم، ونظّموا حفلاً فخماً استغرق ثلاثة أيام؛ نحروا فيه القرابين، وتفنّنت فيه النساء بإعداد أشهى صنوف الطعوم، وتبارى فيه الفرسان بركوب الخيل، وتبارز الأشدّاء باستخدام السيوف، وتغنّت الصبايا باللحون وهنّ يتراقصن في صفوف، حول المواقد السخيّة، في العراء الفسيح، تحلّق التقاة وهم يردّدون الأشعار في مديح الآلهة، ويحتسون الرحيق المستعار من جوف القوارير.

كان عيداً لا ينسى. عيد الحلول في أحضان وطن. عيد الفوز بوطن. عيد استعادة وطنٍ كان حتّى الأمس القريب وطناً مفقوداً. وطنٌ كان يفرّ من القوم منذ طُردوا، بمشيئة الآلهة، من يابسةٍ تسبح في محيط الغمر المتراطن دوماً ببيان الأمم الفانية، لا لكي يطربهم بأغانيه الموجعة، ولكن لكي يذكّرهم بالقصاص الذي ينتظرهم منذ صار البلاء لأسلافهم قدراً. ذلك أن تميمة الأزمان، الملقّبة في لسان الأمم الزائلة باسم «ثيرا»، كانت، منذ الأزل، منذورةً للفناء، كما حدّثه «آغافون» في تلك الليلة التي تجاورا فيها في العراء المشرف على صحراء الأبد، تحت ضياء قمرٍ كاد يكتمل بدراً، فوسوس القلب بطلسم المجهول، وانطلق اللسان لينفّس عن الشجن. نطق «آغافون» فاعترف بأنه لم ينصف الآلهة يوم نعتها بالظالمة لمجرّد أنها حرّضت على إخراجهم من تخوم الوطن، لأن الظلم هو ما لا تغتفره للمخلوق الفاني، فكيف تغتفره لنفسها إذا كانت سِيَر الأوّلين قد أثبتت مراراً أنها لا تخطئ في حقّ الفانين إلاّ لتحسن للفانين، وعجزنا عن فكّ الطلسم في وصاياها كان دوماً السبب في سوء ظنوننا بها، ولا ندرك خطايانا في حقّها إلاّ مع نزول البلايا التي حذّرت منها بإشاراتها، ولكن بعد أن يكون الأوان قد فات بالطبع. وهو ما حدث مع سيرة أسلافنا الأوائل الذين استوطنوا «ثيرا» في الأزمان التي لا يذكرها أحد، فكابروا أيضاً، كما كابرنا بالأمس، لأن القبول بقدرٍ كالخروج من الوطن، هو ما لم يحدث أن اعترف به المخلوق الفاني يوماً، لأن ما هي الأوطان في الحقّ إن لم تكن نحن، هي أرواحنا مجسّدةً، ولا نستنكر المنافي إلاّ لأنها تجرّد الفانين

من اللغز الذي استودعوه أرواحهم، فتتحوّل ميتة حقيقية، لا مجرّد ميتة صغرى كما يتوهّم الأشقياء؟

«آغافون» أضاف فروى كيف امتثل أهل «ثيرا» بعد عنادٍ مميت، ولو لم

يُهزموا في تلك المبارزة مع الآلهة لاندثروا بالبلاء، ولما عاش أخلافهم الذين عادوا للوطن بعد انقشاع البلاء، ليبنوا ويزرعوا وينجبوا الذريّة التي قُدّر لها أن تحيا حتى تشهد امتحاناً مماثلاً بعد أجيالٍ وأجيال، تنوح فيه عرافات معبد دلفى وهنّ يردّدن حكم الآلهة القاضي بطرد السلالة من جديد، لتكون ضحيّة بلاء جديد، في وطنٍ غريب، كم كان المقام فيه سيكون مريراً لو لم يرث المبتلون أنه وطن أسلافهم الأبعد عهداً من مقامهم في الجزيرة المنكوبة، فقدوه أيضاً بسبب لعنة أخرى مجهولة.

طغيان الصفاء في رحاب السماء أشعل في البدر ناراً حوّلت الليل نهاراً، فرأى أن يحاججه بشأن الوطن:

نستطيع أن نتّفق إذا قلنا إن كل خروج من وطن هو حلولٌ في وطن، وكل عَودٍ إلى وطن هو حضورٌ في ربوع وطن، ولكن ما لن نتّفق فيه هو أن يكون المثول في حضرة الوطن، ليس الصلاة في محراب الوطن، ولكنّه اغتنامٌ لكنوز الوطن!

استنكر «آغافون»:

اغتنامٌ لكنوز الوطن؟

ماذا نسمّي حملات التضييق على أهل الأرض، والاستيلاء على المزيد تلو المزيد من مساحات الخصب، إن لم يكن ذلك كفراً بوطنٍ هو أمّ، ونهماً لغنيمةٍ هي أرض؟

سكت «آغافون» فسمع الأنفاس في صدره بوضوح من فرط السكون. تكلّم أخيراً:

وماذا سيفعل مَنْ حلّ بأرض، إن لم يستصلح الأرض، ليستطعم قُوْتاً هو هبة آلهة الأرض التي ننالها بفضل وسيطٍ هو الأرض؟

ننال ما وهبته الأرض طوعاً، لا ما انتزعناه منها غصباً!

تضاحك «آغافون». قال بنبرة سخرية:

هذا منطق الأشباح المكابرة التي تسعى في الأرض، ثمّ تستحي أن تحرث الأرض، لأنها ترى في هذا العمل انتهاكاً لحرمة الأرض، وتنسى أن حبّة العرق التي نسفحها في بطن الأرض هي الصلاة التي ندفعها ثمناً لنيل القوت من يد الأرض. هذا هو الفرق بين القُوت المقدّس المشفوع بروح الآلهة، وبين القوت الآخر، الذي لن أخطئ إذا وصفتُه بالمدنّس، لأنه هبة المجّان!

عاند غضبةً عمياء قبل أن يجيب:

تقولون هذا لأنكم نسيتم في عهود اعتصامكم بالجدران معنى أن يكون الإنسان حرّاً، فيقبل أن يموت جوعاً، على أن يلوّث يديه بنزيف أمّه الأرض التي لم تبخل عليه يوماً بالقوت طوعاً، حتّى لو عاش في ربوعها دهراً!

التقط نفَساً، فعاد يسمع فحيح الأنفاس في صدر جليسه، ثمّ أضاف:

فلنفترض أن ما تقول ليس ذريعة لالتهام الأراضي، ولكن بماذا تستطيع أن تبرّر الجشع المخجل إلى الغنيمة الأخرى؟

لاذ الرجل بالصمت، فأضاف:

الغنيمة الأخرى التي لم تكن لتكون قوتاً مشفوعاً بروح الآلهة فتحيي النفوس، ولكنها ليست سوى السمّ الزّعاف الذي يميت النفوس!

أطلق «آغافون» ضحكة غريبة قبل أن يسمع من فمه هتملة:

لا يجب أن ننكر على الفانين أن يبحثوا عن ترياقٍ يجيرهم من المرض، ليطول بهم العمر آجالاً أُخَر!

عاد يختنق بضحكته الخبيثة، فانتهز الفرصة ليستفهم:

هل تؤمنون حقّاً بأن عشبة مثل سلفيوم، كما تسمّونها، يمكن أن تطيل العمر أجيالاً؟

لو لم تحقّق العجب لما تسابقت الأمم لاقتنائها، ولما احتكر بيعها جلالة الملك نفسه. وكل ما أعلمه أنها الترياق الوحيد الشافي من كل الأمراض!

:استنكر

كل الأمراض؟

!كل الأمراض

!ظننتُ أن الموت وحده الترياق لكل الأمراض

:جعجع «آغافون» بضحكة حقيقية هذه المرّة، ولكنه لم يمهله

هل جرّبتَ تناول هذا الترياق؟

!بالطبع

..حدّثني عن مفعول الترياق

:سكت «آغافون» زمناً. زفر بسخاء قبل أن يستجيب

لم ينتبني الجنون مثلك كما اعترفت لي يوماً، ولكن.. هل تصدّقني إذا قلت لك إنّي شعرت عميقاً !عميقاً بما لم أجد له يوماً اسماً، ولا أدري ما إذا كان هذا هو ما يسمّيه البعض: حرية

حرية؟

دعك من مزايا العشبة الأخرى كالشهوة إلى الحبّ، أو القوّة البدنية، أو الشفاء من السويداء، أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن الإحساس بما تستطيع أن تسمّيه حرية هو فضيلة السلفيوم التي لن ينافسه فيها لا مفعول النبيذ، ولا تعاطي الموسيقى. فهل أخطأت يوم سخرت منك عندما وصفتَ هذا الإحساس بالجنون؟

ولكنه كان قد نسي سيرة العشبة، ومفعول العشبة، لأنه استعاد خطيئتهم في حقّه ساعة استهزأوا به .لأنه تغنّى بأرضٍ ذات سماءٍ مثقوبة

قاوم اكتئاباً، واستنجد بالبدر. استدرجه الحلم فأجارته الرؤيا: تشبّث الطفل بتلابيب الأب ليجيره من جور، فما كان من الأب إلاّ أن وجّه للطفل لطمةً صرعته أرضاً، فانكفأ يعاند نزيفاً غزيراً نزّ من الأنف. لم تؤلمه اللطمة، ولم يفزعه النزيف، ولكن القلب نزف دماً مريراً بسبب جور ذي قربى،

نصّبته الأقدار عليه وصيّاً، ليجيره من جور؛ فتفجّع. تفجّع لا لأنه خُذِل، ولكن لأنه أدرك معنى أن يكون المخلوق يتيماً. اليُتم غياب العدل. اليُتم نعيٌ في حقّ العدل.

والآن؟

الآن أيضاً خُذل. غالب المفازات، واحتال على الأوعار، ليهدي الضالّين إلى السبيل، ويقدّم لهم وطناً سخيّاً، متوّجاً بسماءٍ مثقوبةٍ، على سبيل المجّان، فيستخفّون، كأنّهم نسيوا من أيّ سماءٍ أقبلوا، وأيّ صقيعٍ عرفوا، وأيّ ظلماتٍ خاضوا. قورينا أيضاً أصابوها بعدوى الوباء الذي حملوه معهم من أوطان الظلام. ففي أول زيارة له لأسواقها أنكرها، لأن السماء فيها فرّت من السماء طوال الأيام الثلاثة التي قضاها هناك، وعبثاً انتظر الأعجوبة التي ستعيد السماء إلى عرشها في السماء، لينعم بما لم يتخيّل يوماً أنه سيفتقده: قبّة زرقاء، حميمة، برغم أنها تبدو دوماً لا مبالية، يسطع في قلبها المعبود نهاراً، وتتخاطب في رحابها حشود النجوم ليلاً بفنون الإيماء، فإذا اقتحم الأفق البدر فقد اكتمل في المحفل الشِّعر. لا ينسى كيف فتّش في تلك الأيام الثلاثة عن فجوة في الفضاء الملبّد بالظلمات. فجوة صغيرة. مجرّد ثقب. ثقب يكفي لأن يُحيي فيه الأمل المفقود بوجود ما استهان به طوال فراره من صحراء الأبود، ليعلم لحظتها فقط أنه أنفس ما في الوجود: النور. نور اللغز الذي لم ينصّبه الأسلاف على الدنيا معبوداً إلاّ لسلطانه على النفوس. لقد اختنق بالغصّة وهو ينتظر ظهور الثقوب. غالب صقيعاً مؤذياً سرى في الدم، ونفذ إلى العظام. في اليوم الأخير تمادت الغمّة في كابوس الغيوم فلفظت نثاراً ناصعاً، تطاير في عتمة الفراغ كريش الطير. تضاعف الإحساس بالغمّ، فانسلّ من السور ولاذ بالفرار. والآن لا يتردّدون في أن يستهتروا بالنّعم، ويكفروا بحلولهم في وطن الرؤى الإلهية، المتوّج بسماءٍ مكشوفة، بفضل الثقوب السحرية، كأنّ الإحسان هو الوزر الأشرّ الذي لا يطيقه الإنسان.

فهل سيفهمه «آغافون» يا ترى فيما لو جادله بشأن الخطيئة: خطيئة الاستهانة بفضل الثقوب السحرية؟ أم أنه سيكتفي بعبارته التي اعتاد أن يلقي بها في وجهه كلّما أعجزه اللسان: «كم أنت طفلٌ يا «يوساس؟».

سماء الأرض، الواقعة في الحدّ الفاصل بين اليابستين، لا تكشف عن كل محاسنها، ولكنها تكتفي حقّاً بالثقوب التي تتخلّل السحب الشاردة، المستقطعة، بفعل الرياح الشمالية، من حشود الغيوم السوداء التي تتكاثف في سماء السواحل، فتترجّل لتزحف على الأرض، لتحجب الرؤية، وتقلب نهارات الخليقة لياليَ حالكة. ولكن السحب الواردة، التي تشتت الرياح شملها، فتتسابق في مسيرتها نحو الجنوب، لا تبخل بحمولتها، المستعارة من الغيوم المثقلة في الشمال، فتسفح حمولتها من الغيوث في هذه الرقعة، أو تلك، على نحوٍ متباعد، يتفاوت في السخاء: مجرّد زخّاتٍ هنا، وفيوضٍ ثريّةٍ هناك، لا تلبث أن تستجيب لها الأرض العطشى بلهفة عاشقٍ انتظر طويلاً، تسكن التربة، وتتفتّح فيها المسامات استعداداً لاحتضان الهبة المنتظرة، حتى إذا تهاوت أول القطرات، تنفّست الأرض الصعداء بصوتٍ مسموع: صوتٌ كالفحيح. فحيح الجمر عندما يتلقّى نصيباً من غمر، كأنّ شموس الدهر التي اختزنتها الأرض أجيالاً تتحوّل فجأة وليداً مجهولاً ينطق في رحم الأم برطانةٍ ...لا أحد يدري ما إذا كانت استغاثةً من جور الأزل، أم فرحاً بخلاصٍ حلّ: ششش ششش ششش

نار الأبد تنطفئ في أعماق المجهول، فترتوي الأرض وترتوي، كلّما تمادت السحب التائهة في الجود بعطايا هي فُضلةٌ فاضت عن حاجة الكتل السوداء التي تهيمن في سماء الشمال، فتستكفي الأرض: تستكفي الأرض، لأن الأرض التي تستكفي سريعاً هي الأرض الظامئة التي احترقت بنار العطش طويلاً، مثلها في ذلك مثل سليل الأرض تماماً. وإذا استكفت الأرض سريعاً، أينعت الأرض سريعاً. لهذا السبب تجود يابسة البريّة بأجنّتها بين يومٍ وليلة بالمقارنة مع يابسة الشمال المدلّلة بالغيوث. لهذا السبب جاد الموقع، الذي تهيمن في سمائه الثقوب، بلعاعِ النبوت مبكّراً في ربيع ذلك العام. ربيعٌ لم يتردّد الوافدون الجدد في أن ينحروا على شرفه القرابين، ويترنّموا بابتهالات الامتنان للإله في الأمسيات.

أمّا هو فتلا صلواتٍ أخرى، في محراب آلهةٍ أخرى، لأن مطلع الربيع دوماً هو الميعاد الذي يروقه أن يناجي فيه البريّة. بدأ بتفقّد الأرض، فطاف الأركان بالجوار، بعد أن اختار في استطلاعاته، الصغيرة «ثيرا» رفيقاً. قال لها:

سأريكِ كم مقامك الجديد وطنٌ سخيّ. يكفيه فخراً أنه لا يكتفي بأن يهب الكبار وحدهم كنوزه، كما بقيّة الأوطان، ولكنه يأبى إلاّ أن يهب الصغار نصيبهم أيضاً.

استفهمت برطانة محليّة متعثّرة قالت إنها تلقّتها من امرأة اسمها «تاغما» تنتمي إلى قبائل «اتهنّو» أشرفت على تربيتها سنوات المقام في قورينا:

ما هو نصيب الصغار؟

صعدا رابية مفروشة بالحصباء، يعتليها ضريحٌ مهيب، تشرف على سهلٍ فسيح، تتصارع فيه الوعوثة والحجارة، ممزّق في بعض المواقع بأخاديد عميقة، تتخلّلها قيعان احتجبت بصنوف عشبٍ اختطّت فيه الزهور ألوان قوس قزح.

أجاب:

سوف نرى إذا حالفنا الحظّ..

نزل بها الرابية، فتلقّفهما عراءٌ لميس يتبارز فيه الرمل المخلوط بالحصباء مع حجارة كئيبة ممهورة ببصمات حمم البراكين، قبل أن يتواصل في يبيسٍ طينيّ مصبوغٍ بلون الدّم، مقنّع بألواحٍ حجريّة متواضعة الحجم، مصفوفة بعناية كأنها فرشة متقنة الصنع، توالدت في بساطٍ مستوٍ، إلى أن أطلّت فجأة على هوّة تبدّت بستاناً حقيقياً سخيّاً، احتضن أيضاً أسراب طير: طيورٌ ناصعة، حمراء المنقار، بسيقان طويلة، نحيلة، قانية أيضاً، أقبلت من أبعد الأوطان لتحلّ على الوطن أضيافاً استدرجها وجود أرضٍ أطفأت فيها الغيوث نار الحريق. جنس طير آخر ضاق به القاع السخيّ. بل أجناس طير، بأحجام مختلفة، وألوان مختلفة، ونبرة نداء مختلفة. طلعتهما المفاجِئة أفزعت صغار الطير فرفرت في طيرانٍ جماعيّ لتحطّ في الطرف الأقصى من امتداد البستان، في حين توقّف الفصيل المكابر، الناصع البياض، عن طعن الأرض بمناقيره الطويلة القانية، وتطلّع نحوهما مستطلعاً، فخاطبها همساً كي لا يفزع الطير:

هذه بشارة جاءتك محمولة على جناح الطير. انظري كأنها تريد أن تقول لنا شيئاً!

تمسّحت بذراعه وهي تتشبّث بيده، لتطلق آهة استحسان، دون أن تكفّ عن ملاحقة طائر في المحفل تبدّى أقصر قامة، وأصغر حجماً، خاض بمنقاره في ريش جناحه، كأنه يفتّش عن لقية أضاعها هناك، ثمّ كفّ فجأة ورفرف بجناحيه بشقاوة دون أن يبرح الأرض. سكن وهلة قبل أن يتطلّع إليها بحدقة غامضة تنطلق بنداء لم تجد ما تستجيب به سوى:

أووه..

فتمتم:

هذه إحدى عطايا البرّ لمعشر الصغار.

في الميمنة، عبر الخلاء الذي يعانق الأفق، شاهد طلائع المستوطنين وهم يلاحقون الأبقار التي تجرجر سكك محاريثٍ شرهة بدأت تفتضّ بكارة الأرض بعناد، مفتتحةً بهذه التظاهرة المحزنة موسم البذار. حول مواكب الحرث طاف فرسان يعتلون صهوات الجياد، وقامات نساء يحملن الأطعمة، أو يركعن أرضاً لمغالبة مواقد النيران.

قطع بها مسافة أخرى عبر امتدادٍ مخطّطٍ بشعابٍ احتفرتها مياه الأمطار،

ليتخلّل قيعانها نسيج النبات، المجلّل بأصناف زهورٍ سخيّة، تنوس باستحياء كلّما تنفّس الشمال بنسيمٍ شحيح، فتنفث عطرها الشهيّ بصمتٍ لا يستبيح حرمته سوى معزوفة نحلٍ لجوج.

الشعاب أفضت إلى استواءٍ فسيحٍ تتجمّع فيه مياه الأمطار، تنتشر في رحابه أشجار الطلح والبطم والسدر، كما تتشبّث بحضيضه صنوف عشب تتلبّس الأرض في بسطٍ كثيفة تتآلف في أحلافٍ لا يكدّر انسجامها سوى التنوّع في ألوان الزهور التي تدشّن سباقها الحامي للاستيلاء على بضعة أشبار أُخر. في حِمَى هذا الزحام المحموم، المجبول بروح اللهفة إلى الفوز بقصب السبق في سباق الجود، أطلّت سيقان الطرثوث فجأة كأنها عطايا سحرية جاد بها مجهول حكيم يسري في كل كائنات هذه الصحراء التي يبدو فيها كل شيء غائباً، ولكن روح المجهول تأبى إلاّ أن تبرهن على حضورها في كل شيء، بدايةً بذرّة الرمل، ونهاية بشعفة الجبل، لأن كل ما يبدو فيها مهجوراً، غارقاً في السكون، هو مسكونٌ أيضاً بغرقه في السكون. قبل أن يستلّها انحنى فوقها. قال لها وهو يتأمّل طلعتها، ويلامس ساقها:

هذه عطيّة أخرى للصغار أمثالنا. انظري جيّداً! ألا تبدو أجمل قامةً، وأنبل لوناً، من عشبة السلفيوم التي يعبدها الكبار؟

كانت ناصعةً، شفّافةً، يسري في شفافيّتها لونٌ وردي. في الذروة تتغضّن برموزٍ غامضة، كأنها تنكمش حول نفسها لتكتم سرّها.

تحسّس الساق الملساء، المنتصبة بين الأحراش بكبرياء، كأنه يختبر وتراً خرافياً، قبل أن يستلّها ليسقطها في الجراب، ثم قال:

سوف ترين أن طعمها ألذّ من طعوم الكبار!

فوق الحقل المعطّر بأنفاس الزهور اختطّت أشتات السحب، التي أفرغت كنوزها على شطآن السواحل، ظلالاً على الأرض، مصحوبةً بأنسامٍ واهنةٍ، ولكنها كافية كي تنعش هواءً جرّده الشعاع

.النهم من آخر ذرّة رطوبة ليصيب عند استنشاقه البلعوم بجراح دامية من فرط الجفاف

انعطف في سعيه جانباً، فشاهد، في الناحية الأخرى من امتداد الأفق، فرسان القبائل يحومون في البراري المجاورة، كأنهم يترصّدون مسلك الوافدين الجدد عن بُعْد، دون أن يقتربوا من النجع، خشية وقوع صِدامٍ من شأنه أن يخرق الهدنة الأخيرة المبرمة بين الزعيم «إيدكران» وملك القوم .أركسيلاي

في هذا المنعطف انتظرته الطريدة. ففي المنخفض الرحيب الواقع بين رابيتَين وضيعتين استلقى المنخفض الذي تحوّل مع الزمن مستنقعاً يستحوذ على مياه الأمطار التي ترفضها المرتفعات المجاورة بسبب طبيعتها الحجرية، فتتدفّق عبر مسارب جانبية لتدفع بالنصيب الفائض عن الحاجة إلى الشعاب الأعمق قيعاناً، لتتولّى الشعاب دفع مكوس الجزية عن ذخيرتها أيضاً، فيستزيد المستنقع، بحكم موقعه كحضيض، من الغنيمة النفيسة، ليتحوّل شَرَكاً حقيقياً

!لأندر هبة يمكن أن تجود بها البريّة المتاخمة للصحراء الأبدية: السيول

ولو لم يكن الحوض شَرَكاً لفيوض الغيث لما صار مصيدةً لأندر لقية في البريّة وإلاّ لما خُلع عليها .لقب: الطريدة

هناك فقط تكاثفت النباتات، وتنامت أجناس العشب حتّى كادت تدرك الأشجار الصحراوية طولاً، فأينعت «تاهَاوَتْ» السريّة في الأسافل، حيث تتشابك أنواع النبوت، وتمادت في حجمها ونضارتها، فلا عجب أن تحتمي بجذورها السحرية الفاكهة الملقّبة في لسان القوم باسم «دمعة الساحرات» مخبّأةً خلف قُلاّعٍ عنيدٍ دكّ سطح الأرض الطيني فتشقّق توقاً للخلاص، وطلباً للضوء، ولم يستسلم حتّى أطلّ برأسه بين الأنقاض مبشّراً بميلاد الأعجوبة الوحيدة التي تسفّه بمفعولها !معبودة الأمم السلفيوم، وتتحدّى بالمذاق الأسطوري ما هو أعظم شأناً من السلفيوم: الكمأة

جَنَى في تلك الغزوة ثلاثة قطع: البيضاء بحجمٍ باذخ، والسوداء بحجمٍ أقلّ، ثم الأندر على الإطلاق، .والأكثر سحراً أيضاً بلونها الأخضر، في حجمٍ أصغر

ركع أرضاً على ركبتيه كأنه انتوى أن يؤدّي صلاةً، ثم استنشق العطر. استنشق العطر مغمض العينين. أطلق أنيناً عميقاً طويلاً. أنينُ شجنٍ ما لبث أن تواصل في نوبةٍ كالوَجْد. النّوبة التي لا .يستثيرها سوى طغيان اللحون بأنساقها السبعة كما قضى الناموس

التفت بعدها نحو ضيفته التي انتصبت فوق رأسه حائرةً طوال صلاته في حرم الثالوث السحريّ. أومأ لها أن تقترب. وضع بين يديها «دمعة الساحرة» الأعظم حجماً كي تستنشق العطر. تردّدت «ثيرا». ثمّ انحنت حتى لامست الثمرة الساطعة بأنفها. راقبها باهتمام كأنه يخضعها لامتحان. لاحظ كيف ارتجف أنفها الصغير لحظة الاستنشاق. ولكن سيماء أخرى حلّت في ملامح الصغيرة، كأنها تحيا أيضاً حمّى الوجْد. حشرج صدرها أيضاً بأنين. أنين استحسان؟ كلاّ! ذاك كان أنيناً من جنسٍ آخر أعظم شأناً من كل استحسان.

استودع الجراب جواهره وانتصب واقفاً. أخذها من يدها وخاطبها في طريق العودة قائلاً إنه سيسعده أن يسمع في الغد رأيها في العطايا التي استضافتها بها أرضه لتخبره مدى صواب الأوطان التي تغنّت بجودها، ولقّنت الأجيال دروساً في السخاء. تطلّع صوب الشمال حيث افتتح القوم موسم تقاسم الأرض منذ الصباح، فشاهد كيف تضاعف الزحام ليتحوّل المدى كلّه ساحةً للحشود. في امتداد السهل الفسيح نحو الجنوب تراءت أطياف أهل الأرض أيضاً. كانت تنازع السراب الذي استولى على الأفق بحلول الظهيرة، فتراقصت قامات الرجال وتحوّلت إلى ظلال تتخلخل وتتمزّق ثم تعود فتستقيم في لعبةٍ صبيانيّة مضحكة من عمل الخفاء الذي سخّر السراب ليسخر من حملاتهم الاستطلاعية ويُخبرهم بحقيقتهم، لأنهم لم يكونوا في هذه المتاهة الموحشة سوى أشباح تتجسّد حيناً، وتتبخّر حيناً، مثلهم في ذلك مثل كل الأجرام التي تستسلم لمشيئة السراب، فتغدو ضحيّةً لعبث السراب.

«سيراس» في اليوم التالي اعترفت كيف أفقدها مذاق الجوهرة الخضراء صوابها، وأعاد لها الإحساس بهذه الحاسّة السحرية التي فقدتها منذ فقدت رجُلَها في حرب السبعة آلاف فقيد. ولا يدري لماذا قرّر في تلك النزهة أن يمازحها بسؤالٍ ماكر:

أيُعقَل أن تنافس «الجوهرة الخضراء» في المذاق بعبعاً كالسلفيوم؟

فاستنكرت:

السلفيوم؟

ثم كابرت بجيدها فتمنّع فيها القوام والأنف وكل وسمٍ في طلعتها قبل أن تضيف كأنها تستدرك:

السلفيوم أفيون الرجال!

اختلس نحوها نظرة فتبدّت، في شعاع الشمس الهاربة، أبعد منالاً، فاستفهم:

ظننتُ أن السلفيوم آفة الكل في ملّتكم!

في الفلاة المندفعة نحو الشمال تمخّض الأفق بشبح مرتفعاتٍ مشفوعةٍ بشعاع معبودٍ يتأهّب للفظ أنفاس النزع الأخير في حمّى فراره نحو منازل الغرب. قالت:

كان يمكن أن يكون آفة الملّة لو لم يكن جنوناً.

تطلّع إليها في خطوها الوئيد إلى جواره. ترتدي ثوباً سماويّاً مزخرفاً بنمنمةٍ غابت فيها رموز الربّة هذه المرّة. ولكن في جيدها هيمن طوقٌ مفتولٌ من جلدٍ متقن الصنع، ينتهي بفصٍّ من حجرٍ كريمٍ مخاتلٍ تتشاجر فيه كل الألوان، فيتنكّر لكل الألوان، ولكنه في الشكل ظَلّ وفيّاً لناموس التثليث، لأن الزينة في عرف الناموس لا تكون زينةً إذا لم تكن تميمةً. تساءل:

وهل الجنون حكر على الرجال دون النساء؟

اختلست نحوه نظرة غامضة قبل أن توضح بلهجة استنكار:

!بالطبع! الجنون سعادة الرجال

سعادة الرجال؟

!ما ليس جنوناً لا يستهوي الرجال أبداً

:حاول أن يكتم ضحكة وهو يتفحّصها بفضول، قبل أن يستجيب لرغبة جنونية في أن يستفزّ

الرجال تستهويهم ألغاز كثيرة جداً، يستهويهم الحبّ على سبيل المثال، فهل الحبّ في يقين مولاتنا جنون؟

ما أدهشه أنها لم تتردّد عندما أجابت بنبرة ذلك اليقين الذي كان دوماً حكراً

:على المرأة وحدها

!بالطبع الحبّ جنون

:التقطت أنفاساً قبل أن تستدرك

!ما يشفع له في زحام أجناس الجنون الأخرى أنه الجنون الأنبل من بين الكلّ

انتصب صمتٌ ما لبث أن انتهكته أصوات الرعاة العائدين بقطعان الأبقار من المراعي الغربية. في .الأفق تصاعدت سحب الغبار أيضاً

ظلّ يبتسم خِفيةً، ويتطلّع إلى قوامها المنيع، وسعيها اللاّأرضي في الأرض، والإيماء المشعّ في وجهها، المترجم أحجيةً في نظرتها، فيشتعل في قلبه ماردٌ عصيّ استمات طويلاً قبل أن يدرك أنه !الشّعر

تلهّى بدحرجة حجارة الطريق قبل أن يفلح في تطويع العضلة اللئيمة التي لا تقلّ عصياناً عن مارد :الشعر

!ولكن الرجال يدّعون أنهم لا يستجيبون لإغواء السلفيوم إلاّ بسبب الطمع في الفوز بالخلود

:التفتت نحوه لتسدّد له نظرة جريئة شلّت قواه فتوقّف. توقّفت أيضاً قبل أن تعلن

وهل يوجد شيء في هذه الحياة أكثر جنوناً من الطمع في الخلود؟

:أشاحت بوجهها المذهل جانباً قبل أن تضيف

.الخلود دمية أخرى لفّقتها الآلهة كي تضلّل الرجال

:التقط أنفاسه أيضاً. استعاد القوى الضائعة. تمتم كأنه يوجّه خطابه لنفسه

.هذا يعني أن الخلود لعنة أخرى لا وجود لها في عرف المرأة

:وافقته المرأة

.بل الخلود هو الخطيئة التي لم تعترف بها المرأة يوماً

واصلت المسير، فنفثت في أنفه عطراً شهيّاً استنشقه لأوّل مرة: عطرٌ لم يكن ككل عطر، ولكنه أنفاس جسد. ليس أنفاس كل جسد، ولكنه أنفاس جسدٍ مجبولٍ بحسنٍ مستحيل. ليس كل حسن، ولكنه الحسن الذي تكلّم فيه حسّ. الحسّ الذي يتناطح فيه الألم والأمل، ولا أحد يدري ما إذا لم يخطئ !الناس عندما نعتوه باسم: الحب

:أدلت بتصريحٍ اشتمّ فيه رائحة حدس الأنثى الذي لا تخفى عنه خافية

!رهان الرجل على الخلود، ولكن رهان المرأة على الحبّ

:ازدادت في نظره استكباراً، وقطعت شوطاً أبعد في طريق المناعة إلى أن اضافت

الحبّ أعظم شأناً من الخلود، لأن أيّ خلودٍ ذلك الخلود الذي لا يعصم من

الشيخوخة؟

سفح المعبود، في امتداد الخلاء نحو الغرب، فيضاً ثريّاً بلون الدم قرباناً في حضرة غيوبٍ بشّرت بها مراسم المغيب. سرح في المدى القاني، المتوالد حتى يتواصل في قوس الأفق المزموم ليجادل :من هناك

وبرغم ذلك تتناهب الأقوام عشبة الجنون التي تتوهّم بأنها كفيلة بتحقيق الخلود حتّى أنها لم تتردّد في أن تبيح قتل الإنسان لأخيه الإنسان!

ذاك دليلٌ آخر على جنون أجيالٍ تهتدي بعقول رجالٍ يعتنقون دين الغنيمة، وليس دين الحبّ.

حدّق في المدى المغمور بالشعاع المشبع بلون الدم، ثم تساءل:

هل تظنّين أن القتل سوف يتوقّف إذا احتكمنا إلى ناموس الحبّ؟

في سيمائها نطقت بسمة كالاستخفاف قبل أن تجيب:

بالطبع! الحبّ وحده يستطيع أن يوقف النزيف، لأنه أقوى من شبح الشيخوخة، وأقوى من الخوف..

لاحقت المدى المسربل بالدم أيضاً، ثم أضافت:

الحبّ وحده الأقوى. الحبّ أقوى حتى من الموت!

دعاها بعد أيام للخروج في غزوة لجني «الجواهر»، ولكن الأرض خذلته ومنعت عنه في تلك الرحلة عطاياها. انتظر أمداً كي يهيمن الدفء، ويتيح للأرض الفرصة لإنضاج أجنّتها، ثمّ دعاها للخروج في حملة أخرى، مصطحباً تعويذته هذه المرّة «ثيرا» علّها تكون شفيعاً له لدى جناب الأرض. حرث السهول المجاورة حرثاً، وارتاد الوهاد الأبعد منالاً، وانكبّ يفتّش أحراشها، دون أن يعثر على أثرٍ لقُلاع، أو أي إشارة في الأرض لوجود حِمْلٍ في بطن الأرض، في وقتٍ لم تكفّ فيه الحسناء عن التغنّي بسحر الثمرة الأسطورية التي أعادت لها الثقة بطعم الطعوم التي فقدتها منذ تلقّت صدمة الغياب المباغت لرجلها في حرب السبعة آلاف فقيد.

هَمّ بالمضي مسافة أخرى أبعد في سبيل الفوز بالطريدة المنيعة، ولكن الأرض ما لبثت أن عبست في وجهه كأنها تلعن قدرها الذي حرمها الغيوث واستنزل في حقّها الجدب، فيئس وعاد بهما إلى المضارب خائباً.

انتصف فصل الربيع. حلّ الصيف. انتصف فصل الصيف أيضاً ليستيقظ من غفوته أخيراً. ذهب إلى خباء «آغافون» وقال له إنه سيرحل، فاستنكر الرجل كأنه نسي أنه جاء ليكون للموكب دليلاً، وواجبه قد انقضى بحلول القوم في ربوع الوطن الجديد. تبادلا نظرة طويلة كأنهما اكتشفا وجود ما لم يخطر لهما على بال: الفراق!

اغتصب «آغافون» ابتسامة مزمومة قبل أن يقول:

أيرضيك أن تتخلّى عنّي في أكثر اللحظات حرجاً في حياة أيّ رجل؟

تطلّع إليه مستفهماً، فتململ «آغافون» في وقفته قبل أن يوضح بلهجة ذات معنى:

ظننت أنّك لن تقبل بالمشاركة في الاحتفال بالحدث الوحيد الذي يذهب الرجل بموجبه ليفقد حريّته طائعاً!

تأمّله لحظات، وعندما فهم همهم:

أووووه..

تضاحك «آغافون» ثم أضاف:

أحزنني أن يفنَى الجمال في ملامح أرملة مثل «تارا»، فقررت أن أطرح حريّتي قرباناً على مذبح ربّة الجمال!

أعقب مرافعته بضحكة أخرى، ثم استعاد نصيباً من جدّ قبل أن يضيف:

لا أظنّ أن هناك في الدنيا خسارة يمكن أن تقارن بخسارة الجمال وهو يتبخّر في سيماء حسناء، دون أن تقطفه يد رجل، لأن أكثر ما يؤلم في الجمال كونه ضيفٌ عابر!

تأمّله باسماً. وعندما لم يجد ما يعبّر به عن سعادته بنيّة صديقه، وثب

ليحتضنه بين ذراعيه. احتضنه طويلاً، وعندما حرّره قفز الخلّ جانباً وصاح ممازحاً:

لا تحاول أن تستغفلني! لقد انتظرت أن تكون لي في هذا الطريق قدوة، وها أنا أسبقك إليه. كيف تقبل أن تذبل نظارة زهرة بين يديك، دون أن تنحني لتتنسّم عطرها؟

توعّده بسبابته قائلاً:

النضارة في الزهرة أقصر عمراً مما تظنّ، يوساس، فاحترس!

ثم عاد يستنزل في سيمائه قناعاً آخر قبل أن يضيف:

إلقاء أرامل الشجعان، في أحضان الجبناء بالمجّان، رذيلة الحروب!

سكت. توضّحه بفضول ثم أوضح:

واجبنا يقضي أن نفعل كل ما بوسعنا كي لا تنشب حرب.

وافقه أخيراً:

وجود أرامل الشجعان غنيمةً في مخادع الجبناء بليّة حقّاً، ولكنّي لا أعرف لماذا نهرع لالتقاط الأنصال ما أن تقرع طبول حرب، دون أن نكلّف أنفسنا عناء الاستفهام عن سبب الحرب.

الحرب أفيون الرجال الذين يستهويهم إشعال فتيلها، وينسون أن لا حرب تشتعل ما لم يكن لها الرجال حطباً.

:سكت «آغافون». تململ في وقفته. استسمحه بإيماءة، فانطلقا صوب العراء. تمتم

يدفع الرجال ثمن خيارهم، ولكنّهم يخلّفون وراءهم النساء ضحايا. لا تتخيّل كم هو فظيع أن ترى !«آلاف النساء يتلفّعن بمسوح الحداد كما في «قورينا

.عاشت نساؤنا مصيراً مماثلاً إبّان الحرب الأولى، وأحسب نفسي محظوظاً لأني لم أعشها

:عاد «آغافون» يوصي كأنه يتوسّل

.يجب أن نعمل كل ما بالوسع كي لا تنشب حرب بيننا مرّة أخرى

تربّع المعبود في عرشه ليختطّ في الأرض كيان الظهيرة، فتصبّب «آغافون» عرقاً. قطب حاجبيه :فتغضّن جبينه قبل أن يواصل استنطاق لغز الحرب

هول الحرب، في ظنّي، ليس في حصد الشجعان (لأن الشجعان خلقوا ليموتوا)، ولكن هول الحرب الذي لا يطاق في إبقائها على نسائهم من بعدهم، لأن مسوح الحداد ليست إهانة موجّهة لحضرة الجمال وحسب، ولكنها حطٌّ من شأن المرأة، بل وسخريةٌ من وجود المرأة، لأن الجمال وحده قصاص. الجمال وحده حداد. ونحن نسفّه الجمال عندما نُلبسه مسوح حداد، ونستهتر بطبيعة !الأشياء عندما نضيف حداداً إلى حداد

التقط أنفاساً، في حين تجاهل العرق الذي تدفّق على وجهه حافراً في سيمائه الألق، ملاحقاً :وساوسه بشأن لعنة الحرب التي تلفّق الأرامل

أعترف لك بأني لم أتعاطف مع شيء كما أتعاطف مع الأرملة، لأنها بالنسبة لي هي تجسيدٌ لروح الحرب الشريرة مهما تباكى البعض على أطفالٍ تيتّموا، أو أمّهاتٍ تثكّلتْ، لأن كل الدموع تتبخّر، ولكن دموع الأرامل وحدها تتحجّر حتى لو ترمّلت الأرامل في ربوع أوطانٍ عامرةٍ برجالٍ من أبناء جلدتهنّ، فكيف إذا ترمّلت الأرامل في أوطان الأغراب؟

انطلقا في الخلاء طمعاً في تحرير اللسان أيضاً من عقدة اللسان، لأن كل مَنْ استمرأ المقام في الخلاء سيكتشف أن السعي في الخلاء ترياق اللسان، كأنّ الخلاء ترجمان اللسان أيضاً، كما اللسان ترجمان الخفايا التي يتكتّم عليها الخلاء. المقام في الخلاء يتحوّل كابوساً لا يكتفي بأن يكتم الأنفاس في البدن، ولكنه يكتم الأنفاس في اللسان أيضاً. لقد عاند طويلاً، وتبلبل طويلاً، قبل أن يكتشف أن السرّ لا يسكن الخلاء، ولكنه جرثومةٌ في المقام في الخلاء. المقام هو أصل الداء، وليس الخلاء.

الخلاء يتبرّأ من الوزر بأعلى صوت، ولا يتردّد في أن يرمي بالتهمة في وجه المقام في المكان، لأن المقام وحده الإغواء اللعوب الذي يستدرج كي يشلّ فيه العضلة الخارقة التي لا يستطيع أن يدّعي أنه يحيا إذا لم يحسن استخدامها كما يجب لتنوب عنه في ما لا يخطر له على بال، كأنْ تتكلّم فيه فتتكلّمه حرفياً، بدل أن يتكلّمها هو كما يتوهّم. وكي يبرهن لنفسه صواب اكتشافه لم يجد مفرّاً من تفويض هذا المارد كي يستفهم عنه بالإنابة:

مدهشٌ أن تقف كل هذه الأعوام على مشارف الوادي الحافل بأنواع الأزهار، فتكتفي بموقف المشاهد طوال هذا الأمد، ولا يخطر لك أن تنزل القاع لتقتطف من هذا البستان زهرة إلاّ أخيراً!

في جبين «آغافون» هيمن العرق. في المدى تلاعب السراب بشبح شجرة طلح، فتبدّت لهما لحظتها في خلاءٍ ممهور بشمس الظهيرة، لقيةً حقيقية.

فالشجرة في القيلولة ظلّ. والظلّ في ناموس الصحراء قشّة خلاص مثله مثل جرعة ماء. فالظمأ الذي قادهما للخروج في غزوة منتصف النهار التي يتحوّل فيها كل شيء في صحراء الصيف حريقاً، كان الظمأ الأقوى حتى من الظمأ إلى الماء. إنه الظمأ إلى القول. ولهذا انتظرا دفع المكوس. انتظرا الظمأ إلى الماء لأنه الأهون في العرف إذا ما قورن بالظمأ إلى القول. الصوم عن القول، إذا اجتمع الإنسان إلى أخيه الإنسان، أقسى من الصوم عن الماء. ولهذا كان الصوم عن الكلام البطولة التي لم يحسنها «آغافون» يوماً كما اعترف له مراراً، مثلها مثل الصوم عن الماء أيضاً.

قال أخيراً:

الحقّ أقول لك: هل أقترفُ خطيئةً إذا اعترفت لك بأني كنت سعيداً طوال هذه الأعوام لاعتناقي دين المشاهد لهذا المحفل الشهيّ؟ هل أقترفُ خطيئةً

إذا اعترفتُ بأني استمتعت طوال هذا الأمد بحدادهنّ، بحزنهنّ، بشقائهنّ؟ هل تجديفٌ أن أقول أن لا وجود لمتعة يمكن أن تفوق متعة مشاهدة حسناء، ترفل في البُلُس حزناً على بعلٍ سقط في الحرب دفاعاً عنها؟

توقّف ليلتقط أنفاساً. تطلّع إلى الشجرة الوحيدة الواعدة بالظلّ التي تخطّفها السراب ليمزّقها إرباً، ثمّ أضاف:

ليست المتعة ثمرة الجمال المشفوع بحدادٍ وحده، ولكن الإحساس بوجود كلّ هذا المحفل في متناول يدي، هو سبب أعظم للمتعة. ومجرّد إحساسي بأني أستطيع أن أستقطع لنفسي نصيباً من محفل

الحُسن هذا، كان كافياً كي يصيبني بالغثيان.. كأنّي.. كأنّي بهذا العمل أخذل الإحساس الآخر بوجود الحُسن كلّه في متناول يدي، فأخون بذلك الجمال نفسه، لا محفل الحسان اللائي يتلحّفن بهذه المعجزة التي نسمّيها جمالاً.

هرع لنجدته:

أفهم، أستطيع أن أفهم. لقد جرّبت ذلك مع الغزلان. لقد اقتنصت غزالة مرّة، واستمتعت بصحبتها طويلاً، ولكني جعت فوضعت النصل في نحرها. لا تتخيّل مدى الندم الذي انتابني لحظتها. طعنتها بالسكين، فطعنتني بنظرة لن أنساها. في عينيها الملآنتين بسطوتها التي لا تقاوم، والمسكونتين بالمجهول الذي أعجزني دوماً أن أجد له اسماً، فاض دمع وجيع قرأت فيه خيانة. خيانة للعهد المبرم بيننا ضمناً، ولكني أجهزت عليه طمعاً في إشباع جوف مخجل جشع لا يشبع ولا تليق به الطعوم بقدر ما يليق بنا أن نلقمه الحجارة كما يقول العقلاء. فهل تظنّ أني استطعمتها بعد تلك النظرة؟ لقد التهمتها، ولكني لم أستطعمها. لم أستطعمها لأني تقيّأتها. تقيّأتها وعاهدت نفسي منذ ذلك اليوم ألاّ ألقم جوفي لحم غزالٍ أبداً!

هتف «آغافون»:

امتلاك الجمال دائماً صفقة خاسرة، لأننا بموجبها نفقد الإحساس بالجمال. ولم أكن لأخاطر بقبول الصفقة لولا وجود سبب آخر يستطيع أن يشفع لي خطيئة التضحية بالجمال وهو: الواجب!

الواجب؟

بلى! إنقاذ امرأة من الضياع سدادٌ لدَين!

سدّد له نظرة ليفاجئه في سيمائه إيماء كالشيخوخة. شبح كآبة استباحت فيه الصفاء ولوّثته بظلال شيخوخة. هَمَّ بأن يستفهم عن أيّ دَينٍ يتحدّث، ولكن الرجل سبقه إلى الجواب:

الإحساس بالجمال لا يكون إحساساً حقيقياً إن لم يصاحبه الإحساس بوجود القاضي الوحيد الذي يراقبنا من وراء حجاب ولا نستطيع أن نسترضيه بالحُطام، ولكن بتقديم قربانٍ جسيم: التنازل عن الجمال حَرفَهُ، وإنقاذ إنسانٍ من الضياع له روح! لأن لا حيلة لاستبقاء الجمال إلاّ بالتخلّي عن الجمال. ولا

حيلة لإنقاذ ألف، أو ألف الألف، امرأة ظامئة إلى الحبّ، إلاّ بحبّ امرأة، امرأة لا تعود بهذا الحبّ امرأة واحدة، ولكنها تختزل ألف ألف امرأة.

في الطريق إلى سوق المستوطنة سمع صوتاً يقول:

!لست مضطرّاً لأن أضحّي بأيامٍ أُخَر لمجرّد حضور حفل قِرَان

صوتٌ مسموع جَرَى به لسانه، ولكن لم يعترف به صوته. إنه الصوت الذي يسمعه دوماً كلّما تردّد في أمرٍ، فيهرع لاستحضار شبحٍ مناسب يلقمه حُجّةً، أو يلقّنه درساً. استحضره اليوم أيضاً، بل استحضره منذ أيام، ليجادل في شأن سفره المؤجّل منذ أسابيع، بل منذ أشهر، دون أن يعرف لماذا. أم.. أم أنه يتظاهر بجهل السبب، في حين يعلم يقيناً أنه يتعمّد تجاهل السبب؟ ولكن اليقين أنه لم يتعمّد استدعاء شبح «تارا» في تلك الجولة. تارا التي لم تستحِ مرّةً أن تستوقفه في الطريق لتسأله أن يهديها بهمة غزال مثيلة لتلك التي أهداها للصغيرة «ثيرا». لا ينسى كيف انتابته نيّة عابثة كي يقول لها إن ما يجب أن يهديه لها ليس بهمة غزال، ولكن مُهراً! مُهرٌ برّيٌّ شارد! «تارا» الشهيّة التي اشتهاها لهذا السبب، ولم يغفر لها أبداً أنه اشتهاها. لم يغفر لها بسبب الوسوسة الخبيثة التي انتهشته منذ اعترف لنفسه بحقيقة الشهوة. والإحساس باشتهاء امرأةٍ خفيّة خلّف فيه دوماً إحساساً بالإثم، لأن اشتهاء امرأة دون وجه حقّ، في يقينه، عملٌ من قبيل الغصب. في ذلك اليوم لم ينظر إلى عينيها عندما قال:

!ظننتُ أن البهمة هي أنسب ما يمكن أن نهديه لطفلة، أمّا السلفيوم فهو الهدية التي تناسب الكبار

فما كان منها إلاّ أن استنكرت:

!الكبار؟ المرأة في عرفنا لا تنتمي إلى ملّة الكبار حتّى لو بلغت من العمر أرذله

لم يجد مفرّاً من أن يعترف بأنّها على حقّ، ولكنه لم يتنازل ليعتذر لها دون أن يكتشف السبب إلاّ تالياً. لم يعتذر لأنها شهيّة؟ ليس لأنها شهيّة، ولكن لأنه اشتهاها. وإحساسه بالإثم تضاعف ساعة زفّ له «آغافون» نبأ نيّته في الاقتران بها.

في ساحة السوق غرق في الزحام. طاف الأركان بحثاً عن هدية من جنس آخر. هديّة ليست بهمة، وليست حزمة سلفيوم. هدية تناسب الإنسان الوحيد الذي لا يريد هدية لأنه ليس بحاجة إلى هدايا. هدية للإنسان الذي يرى في الإهداء لعنةً، بل وخطيئة التكفير عنها يكلّف غالياً. هدية للإنسان الذي استأمنه فاستودعه القطعان.

في الجانب المشرف على ساحة السوق من الشمال فوجئ بكيان بنيانٍ ينتصب. استفهم من أحد التجّار فتوضّحه الرجل بفضول قبل أن يقول:

ارتفاع بنيانٍ في أيّ مكان، ميلادٌ للمكان. وأيّ ميلادٍ للمكان بدون روح المكان؟

انتظر أن يكمل بما يشفي الغليل، ولكن الرجل انحنى على خريجٍ يستلقي عند قدميه ليستخرج من جوفه سجّاداً مزخرفاً برسومٍ تجسّد أشباحاً طرحه على الأرض قبل أن يتغنّى:

هل رأيت؟ إنه شِعرٌ، وليس نسيجاً!

تأمّل البساط مليّاً، ثم قال قبل أن يستدير:

ماذا ستعني السجادة المنسوجة بخيط الشِّعر بالنسبة لإنسانٍ يحيا الشِّعر عملاً، ويستهين بالشِّعر نسيجاً؟

كم كان أبلهَ عندما أصابته حمّى الشعر يوماً، ظنّاً منه أن الشعر، في قول الشعر، وليس في أن يحيا الشعر، كما تعلّم تالياً من داهية المراعي الذي استودعه القطعان.

كم كان مضحكاً أن يبلغ به الظمأ إلى قول الشعر حدّاً يدفعه لارتياد الآفاق بحثاً عن الشاعرة كي تلقّنه فنون الشعر، فإذا بها تلقّنه عجباً آخر أعظم شأناً من قول الشعر!

شقّ طريقه في زحام السوق مسافة أخرى. في مكانٍ مّا، في قلب الزحام، لمح إيماءً. إيماءٌ لم يتبيّنه بوضوح، ولكن القلب انتفض كأنه يستجيب لنداءٍ موجّه له شخصيّاً. إيماءٌ سطع كالإلهام الذي يزكّي الجموع، ويجود على الزحام بالمعنى، لأنه الجمال. ليس جمال الخطر. ليس الجمال الموجع. ليس جمال القصاص الذي يوقظ فينا تنّين الشهوة كي يوقع بنا (كجمال الجنّية تارا)، ولكنه جمال الخلاص الذي نتشبّث به كي يجيرنا من أنفسنا ليحرّرنا. وربما لهذا السبب يوحي كم هو منيع... الامتناع خصلة الآلهة!

خطوات أخرى ووجد نفسه يقف أمامها وجهاً لوجه. في سيمائها كلّها سرت التحية فلم تكن في حاجة لأن تدنّس بكارتها بلسانها. أمّا هو الذي لم يحسن يوماً بثّ التحية في السيماء فليس له إلاّ أن يُحيي التحية مشفوعةً بالسحر الوحيد الذي أتقنه: البسمة. ولكنها لم تكن في حاجة إلى تحية ببسمة السيماء، لأن مخلوقاً في مقامها لم يكن ليعترف إلاّ بالبسمة الأبعد منالاً من ابتسامة يجود بها وسيطٌ أبله كالجسد. قالت:

أيُرضيك أن تهجرنا دون أن تودّعنا؟

:تعجّب. هتف

هل حدس «آغافون» نواياي؟

:في السيماء سرى إيماءٌ كأنّه استخفاف

..آغافون؟ كلاّ بالطبع! آغافون ليس عرّافاً

:سكتت ومضة ثم أضافت

!وليس امرأةً أيضاً كي يتنبّأ

:تذكّر عرّافات معابد القوم اللاتي حدّثه آغافون عن مواهبهنّ النبوية، فقال

!نسيت أن النبوءة حرفة نساء ملّتكم

كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً سماويّ اللون ممهوراً برموز الربّة، تحمل بيدها اليمنى سلّةً محبوكةً من سعف النخيل، موشّاةً في الجوانب بنسيجٍ من خيوط صوف تتنوّع فيه الألوان. شيّع نحوها نظرة امتنان فأبصر في مقلتيها العميقتين، الوادعتين، كأنهما لامباليتان، رسالةً كانت ستتحوّل لغواً مبتذلاً فيما لو فوّضت في شأنها عضواً خبيثاً كاللسان. وكي يفرّ من وجوب الجواب استجار :بسؤال

كيف وجدت «ثيرا» وطنها الجديد؟

:أجابت بلا تردّد كأنها كانت تنتظر هذا السؤال

!ثيرا تشكو غياب الدليل الذي قادها إلى وطنها الجديد

:ابتسم. طأطأ. هتمل

.ظننتُ أن البهمة سوف تغنيها عن كل دليل

هيهات! في عُرفنا لا غنى للعابر عن الدليل. هل كان «أوليس» سينزل الوطن السفلي فيما لو غاب من رحلته الدليل؟

تململ في وقفته وهو يحاول أن يتحاشى النظر إلى عينيها كي لا يضطرّ لأن يجيب على النداء الذي يسكن مقلتيها. قال:

الأطفال نقطة ضعفي. ربّما.. ربّما لأن الطفولة هي السعادة الوحيدة في حياة كل إنسان، ولكن لم يُكتَب لي أن أعيشها كما عاشها كل الناس.

تعالت أصوات البائعين الذين يتنادون ببضائعهم بالجوار. دهمه أحدهم وعندما التفت لوّح الرجل في وجهه بجلود حيوانات بريّة بدل الاعتذار. أشاح بوجهه فوقع بصره على جدار البنيان، فاستنجد به:

كنت أتساءل منذ قليل عن البنيان الذي نما في المكان..

تطلعت إلى الكيان قبل أن تجيب:

ذلك حجر الأساس في أيّ وطن: المعبد!

ثم انحنت لتستخرج من السلّة كوماً صوفياً قدّمته له مشفوعاً ببسمة شجيّة:

هذه هدية من «ثيرا».. كي لا تنسى وجود المخلوق الذي أهديته غزالة يوماً..

تناول من يدها العطيّة. تفحّصها بيدٍ راجفة. كانت تلك سترة. سترة صوفية منسوجة بخيوط سماوية اللون، لميسة كالخزّ، غاصت أصابعه في ثناياها المنفوشة، فسرى فيها دفءٌ سخيّ، كأنّه الزغب في العهن الحميم تنفّس في الأصابع ناراً.

قلّبها بين يديه وهو يردّد مأخوذاً:

هذه أعجوبة، وليست سترة! إنّها.. إنّها عشٌّ يُخفي موقد نار!

في عينيها ومض ذلك البريق الفاتن الذي كان له دائماً أحجية عصيّة. قالت:

هذا يبرهن أنّي كنت أدري أنّي سألتقيك أيضاً قبل الرحيل.

يبذل جهداً بطولياً كي يكتم في صدره فضولاً، ولكنه لم يفلح

!سيكون معجزة أخرى إذا كانت أنامل «ثيرا» هي التي استطاعت أن تحيك هذا السحر

:في سيمائها سطع إيماءٌ كالسخرية. قالت

آمل أن تمهل الأقدار «ثيرا» حتى اليوم الذي سيخفق فيه قلبها بالنبض الجدير بأن تبثّه في نسيج !العهن

قلنا لهم: «ماذا أبقيتم لنا أنتم من سلفيومكم المشؤوم حتى تفرضوه علينا مكوساً»، فهل تدري ماذا كان جوابهم؟

كانوا ثلاثة. أقبلوا عليه في اليوم الذي انتوى فيه الخروج لتفقّد قطعانه في المرعى. أكثرهم وقاراً وأكبرهم سنّاً كان رجلاً سلخ من العمر ستّة أو سبعة عقود، يرافقه فارسان أحدهما اجتاز عتبة الأربعين، والثاني فتى تسري في دمه سيماء الكهل ممّا يقطع بأنه ابنه، أو ابن أخته. ترجّلوا عن جيادهم يتقدّمهم كبيرهم الذي خاطبه بسيرة الصدام الذي نشب بينهم وبين المستوطنين الذين فرضوا عليهم دفع السلفيوم مكوساً، وعندما استنكروا دفع المكوس بعملة اندثرت من الأرض بسبب جشعهم، وضعوا الحديد في أيديهم، واقتادوهم إلى المستوطنة. اختنق الشيخ بغصّة وهو يروي، ثم أعاد السؤال بنبرة مريرة

هل تدري ماذا كان جوابهم؟

أومأ له صامتاً فتململ الزائر في وقفته وعاند عسراً كي يوضح:

ضربونا بالسياط!

اختنق بعبرة فسكت. بذل جهداً كي يكمل:

كالعبيد! كأنهم.. كأنهم لا يدرون أننا لو كنّا نريد أن ندفع مكوساً، أو أن نُعامل معاملة العبيد، لما اخترنا الصحراء وطناً!

غصّ بالعبرة مرّة أخرى. بذل جهداً بطولياً كي يستعيد وقاره ثانيةً:

كنت أعرف أن ولعهم بعشبة الجنّ هذه بدعة لن تبشّر بخير. لقد فقدوا صوابهم. فقدوا صوابهم بسببها! لقد جُنّوا! إنّهم مصابون بالسُّعار حقّاً

تململ الفتى فدبّ في المكان. سليل الأربعين لم يعد يحتمل أيضاً، فطاف حول نفسه مرّتين كليثٍ استودعه الصيادون قفصاً. قال الشيخ:

لم يكتفوا بجَلْدنا بالسياط كأننا عبيد، ولكنّهم اقتحموا أراضينا في اليوم التالي وقتلوا ثلاثة من رجالنا!

أغمض عينيه. كزّ على أسنانه المتآكلة. وعندما فتح مقلتيه فزّت منهما دمعتان نقيّتان استدار كي يخفيهما قبل أن يعود ليواجهه

سفحوا الدم! رووا أرضنا بدمنا! هل تدري ماذا يعني أن ترتوي الأرض بدم أبنائها؟ لقد سمعت الأرض البارحة تنادي. هل ابتسم لك الحظّ مرّةً فسمعت الأرض تنادي؟

تفحّصه بفضول: عينان غائرتان. أنفٌ معقوف. جبينٌ محروثٌ بالتجاعيد. حاجبٌ كثٌّ موشّى بالشيب يظلّل العينين بهلالين كقوسين مزمومين. ذقنٌ مدبّبٌ مكسوٌّ بشعرٍ مشذّب. يرتدي جبّةً ملفّقةً من إهاب حيوانٍ مجهول. ابتسم في وجهه ولكنه تجاهل السؤال، فما كان منه إلاّ أن حشرج في وجهه:

هل يروق الزعيم أن يسمع الأرض عندما تنادي؟

تأمّل مليّاً قبل أن يخيّب ظنّه:

.لا أظنّ أن الزعيم يمكن أن يحسن الظنّ بالأرض

صمت طويلاً حتّى همّ بالانطلاق في جولةٍ بالخلاء، فإذا بالشيخ ينحني نحوه في هيأة مَن انتوى أن يستودعه سرّاً:

.لا أدري كيف تريدوننا أن نثق بزعيمٍ لا يُحسن سماع الأرض عندما تنادي

بعدها لاذ بالصمت. صمت في حضراتهم طويلاً. طاف بهم الخلوات المجاورة كما اعتاد أن يفعل مع كل الأضياف ليقينه الخفيّ بأن إنساناً لم يشاركه متعة الخلوة، ومتعة الصمت أثناء السعي في الخلوة، ليس جديراً بضيافة، ولا يصلح حميماً أقبل عليه من بُعْدٍ بعيد، من بُعْدٍ مفقودٍ يقيناً، حاملاً في عبّه عزلته، كي يبادله عزلةً بعزلة، كي يقضي عرف أولئك الذين لم يجدوا ضرراً في أن يتّخذوا العزلة وطناً. ولكنه اكتشف، عندما تكلّم، أنه قال لهم بالصمت أعظم ممّا استطاع أن يقوله لهم بعضلة اللسان، ولم يفلح حتى الإحساس بالإثم (الذي انتابه دوماً كلّما تكلّم) في غسل الدنس الناجم عن استعمال عضلة اللؤم في عشية ذلك اليوم، لأنه اكتشف عندما تكلّم، أن قوله لم يكن حجّة، ولكنه صار في فمه ورطة. صار في حقّه شهادة إدانة بدل أن يغدو دليل براءة، وإلاّ ما معنى أن يقول للوفد الجريح إنه لم يأتِ برفقة الدخلاء رسولاً، ولكنه أقبل مفوّضاً من الزعيم ليكون لهم في حملتهم دليلاً؟

ألن يكفي هذا برهاناً على اقتراف خطيئة في حقّ الوطن، وفي حقّ المواطن الذي يستوطن الوطن؟

ليس هذا وحسب، ولكن ألن يكفي هذا دليلاً على خيانة كان يمكن أن تهون فيما لو ظلّت حكراً على راعٍ شقيّ باسم يوساس، ولكن البليّة أن الزعيم نفسه لعب في حبكها دور البطولة؟

ولكن ما أدهشه هو أن ينطق بالاعتراف في حقّ نفسه، وفي حقّ الزعيم، ثم تعجزه العضلة الملعونة عن قول ما هو حقّ. عن قول ما يصلح حجّةً لتبرئته وتبرئة ساحة الزعيم أيضاً لمجرّد أنه قرأ في الأمر جرماً لا يُغتفر، لأنه ليس سوى مكيدة مخجلة مدبّرة في حقّ غرباء نزلوا الديار أضيافاً. أم أن اللسان أعجزه لا بسبب فحوى المكيدة، ولكن لأنه سيخذل الزعيم فيما لو أفشى سرّ حيلة الغاية منها كانت الدفاع عن النفس في وجه زحفٍ موبوءٍ بالنّهَمِ إلى الغنيمة، ودوره في الحملة ليس القيام بدور الدليل، ولكن عمل ما بالوسع للتضليل؟

الغشّ! السرّ في الإحساس بوجود الغشّ. الغشّ سببٌ كافٍ للإحساس بالغثيان. الغشّ سمٌّ مناسبٌ لشلّ عضلة اللسان. ولكن.. هل هو حقّاً غشّ؟

لقد اجتنب في رحلته الأراضي الخصبة. أو بالأصحّ اجتنب الأراضي الأخصب، ولم يكن في وسعه أن يجتنب كل أثر لخصوبة، لأن ذلك سيعني

أنه سيرمي بهم في الجدب، في الصحراء الحقيقية. الصحراء الحقيقية التي لن يحتملوا المقام فيها يوماً واحداً، ليعودوا أدراجهم؛ فلم يجد مفرّاً من أن يجتهد: ضحّى بالأراضي الأخصب، وأسكنهم الوطن الأنسب. أسكنهم أرضاً لن تبخل بالخصوبة في حال فازت في الموسم بغيوثٍ سخيّة، أو إذا فازت لعامين متتاليين بنصيبٍ من غيوثٍ شحيحة. كانت تلك قسمة عادلة في ظنّه. قسمة ستُكسبه ثقة الزعيم من جهة، وسوف تجيره، من جهة أخرى، سخط المستوطنين الذين لن يتردّدوا في العودة إلى الوراء في حال خاب ظنّهم بالأرض الموعودة. أسوأ شيء محاولة ترضية طرفين حتى لو كانا متّفقين، فكيف إذا كانا متعاديين؟ لهذا السبب بدا له ما فعله عملاً حسناً، بل ربّما، عملاً مجيداً. وما لم يخطر له على بال هو أن يكذّبه الواقع بمثل هذه العجالة كأنه يسفّهه أو يرمي في وجهه برهان تحدٍّ. ولكن..

ولكن لماذا أخفى عنه «آغافون» سيرة الصدام الدامي؟

.بيتٌ على المنكبين، وانطلاقٌ في البرّ

بيتٌ على المنكبين؟ كلاّ! الأصحّ أن يقول إن المنكبين هما البيت، وما البرّ لهما سوى أرجوحة. !والقطعان؟ يكفي القطيع مجداً أن يكون، في هذه الصفقة، طريدةً

انتزع مع داهية المراعي أوتاد الخباء وانطلقا بالقطيع غرباً، تلبيةً لنداء غيوثٍ سقطت هناك بغزارة منذ أمد، والريح التي رابطت بالانتظار، لتكون هناك شاهد عيان، هبّت على الأركان لتبشّر الملأ .بالسيرة

لم يتوغّلا في طريق الغرب بعيداً، لأن الأرض هرعت لملاقاتهما بصنوف الكلأ قبل أن يبلغا بالقطيع تخوم الصحراء الحجرية، المشوية بلهب النيران الخرافية التي لفظتها الأعماق الجوفيّة. نهارٌ ساطع، في فضاءٍ ناصع، مغسول بريحٍ شمالية، محمّلة بأنفاس البحر البعيد، تهشّ أشلاء سحب خاوية، اعتصرت جبال الشمال أجنّتها، ولفظت الفُضْلة إلى دواخل الجنوب الظاميء أبداً، لتتلاعب الريح بأشتاتها طويلاً، قبل أن تطرحها في سماء الصحراء بقيّةً من حسنةٍ، استقطعت المسافات منها النصيب الأعظم، ولكنه كفيلٌ بأن يشفي غليل الإنسان الذي استكفى دوماً بالقليل، بل .بأقلّ القليل

في مرتعٍ سخيّ، في مفازةٍ بلا حدود، حطّا رحالاً لم تكن يوماً برحال، وسرحا في الفراغ المفروش بِهِبَات الغيوم الطائشة التي لا تعترف بناموس الفضول، ولا بعرف الأزمان، فتجود بكنوزها حيثما .شاءت، أينما شاءت، متى شاءت، في حقّ مَن شاءت

طافا بقية النهار كلّه. طافا بالقطيع، واستطلعا الأرض دون أن يغفلا عن موقع القطيع. لم يغفلا عن بعضهما أيضاً رغم فراقهما في متاهة الاستطلاع. حرص أن يبقى شبح الداهية في مدى البصر، كما حرص الداهية أن يبقيه في مدى البصر. يتباعدان في مسيرة الاستطلاع حتى يغيبا عن البصر، ولكنّهما لا يستسلمان لإغواء الخلاء الذي لا يقاوم، فيحجمان في كل مرّة، ليرتدّا إلى الوراء طلباً للملاذ الوحيد الذي ينساق له الإنسان، لأنه لا يطيق أن يحيا بغيابه، برغم أنه الشبح !الوحيد الذي يخشاه الإنسان كما لا يخشى في دنياه شيئاً، فيفرّ منه كما لا يفرّ من شيء: الإنسان

يغيب الداهية عن الأنظار فيستشعر الخواء في الحال. يستشعر الخوف أيضاً، فيوسوس ويتبلبل ويسعى ليفتّش عن مرأى القرين. فإذا تبدّى في المدى الحميم والمعادي في آن، يفرح باللقية كالطفل، ليستعيد الإحساس بوجوده على الأرض، كأنه وُلد للتّو. ولكنه لا يلبث أن يكابر من جديد، فيتظاهر باللامبالاة. يتظاهر بتجاهل وجود ما لا طاقة له بعدم وجوده، فيولّيه ظهره. يوليه الظهر

محاولاً أن يتلهّى بعطايا الأرض، لأن الإحساس بوجود ذخيرة الأرض، التي يتظاهر بغيابها، قيد الأرض يهبه بالجوار طمأنينةً، بل عزاءً خفيّاً

!في الحرب ضدّ العدوّ الذي لم يجد له اسماً سوى: الانقطاع

يستمرّ عراك الفرّ والكرّ حتى الساعة التي تتستّر فيها الصحراء بغيهب المساء، لتحجب عن الأنظار شبح الانقطاع، ليستسلم كل شيء فيها لمشيئة المجهول. لحظتها يتجدّد اللقاء. يعود كلّ منهما إلى لقاء الرفيق المفقود ليتعاونا معاً في احتواء القطيع للمبيت، ويهجعا بالجوار للاستمتاع بالمقام، وملاحقة النجوم، والإنصات للسكون، وتطويع الأحلام في جدلٍ بخيلٍ لافتضاض بكارة سكونٍ يتوعّد بابتلاع مريديه دوماً، فلا يجدوا ما يدافعون به عن أنفسهم أمام مخالب السكون سوى ترويض اللسان على القول.

ولكن سخاء الأرض بلا حدود مثل قسوة الأرض تماماً. أرض الصحراء التي تميت بالظمأ هي أرض الصحراء التي تجود بالغنيمة. فالقول ينقلب لغواً عندما يخلو اللسان من استطعام الغنيمة: داهية المراعي يعود من رحلة تيهه بالضِّبَاب، في حين عاد هو من غزوة الاستطلاع بحفنةٍ من الكمأ. ارتفع في الفضاء لسان النار فتنفّس كوم الحطب بعطرٍ مجبولٍ بسرّ الأرض، وفزّ من الأعواد الرطيبة نزيفٌ كالدم: نزيف الروح، لأن الأحطاب مسكونة بأرواح الأوائل. الأحطاب لا تكتفي بنفث الأنفاس الشهيّة، ولكنها تستنطق السكون أيضاً. تنطق لتستدرج السكون. لتستجوب السكون. ترطن. ترجم بالشرر. تلقم السكون شرراً للنيل من هيمنة السكون، خوفاً على الظلال التي تثقل سطح الأرض من هول المجهول الذي يسكن السكون.

السكون. السكون. النسيج السحري. النسيج الشره، المستعار من عهنٍ معدومٍ لا وجود له، ولكنه وحده المارد القادر على ابتلاع ضحاياه بالليل، ليتقيّأ فرائسه سراباً يتلألأ في العراء بالنهار.

تطلّع إلى الموقد. لسان النار بدأ يخبو، ولكن الجمر اختزن الحريق ليبعثه في شريحة الضبّ دخاناً كثيفاً ما لبث أن نال استحسان الداهية فلم يبخل بالثناء:

رائحة دخان حطب السدر إذا امتزج برائحة لحم الضبّ المشوي أفضل ترياق لإبعاد الذئاب عن مرابد القطعان.

أمّا هو فطعن بالمسعر جوف الموقد لينتشل حبّات الكمأ التي استودعها الرمل الرامض. كانت أيضاً تذرف الدمع بصوتٍ مسموعٍ كأنها تستغيث. طرحها على بساطٍ ملفّقٍ من أغصان شجر الرّتم وتركها ليسكن روعها. استلّ الداهية سيفه من جديد ليحمل على شبح السكون:

.بعد قليل سوف يطلّ القمر

أدبر السكون قليلاً، ولكن انكساره لم يدم طويلاً، فأقبل ليهيمن من جديد، فلم يجد مفرّاً من أن يبادر :أيضاً

.لم أسمع كلمتك أبداً في حقّ السلفيوم

لمحه يختلس نحوه النظر خلسةً، ولكنه انحنى على الموقد وجاد بأنفاسٍ

:بسخيّةٍ ليشحذ الجمر، فأضاف

لا أحسب أن ناموسنا المفقود يمكن أن يبخل على الجيل بما يمكن أن يكون له ترياقاً في أيّ بلاء، !والسلفيوم اللئيم لن يكون في هذه الحال سوى البلاء

توقّف عن الجود بأنفاسه لشحذ الجمر. ملأ صدره الهزيل بنسيم المساء. تحت ضياء حشود النجوم :لمعت في مقلتيه دموع، ولكن جدل الشهيق والزفير في صدره خدش حياء السكون

لا أدري بماذا أوصى الناموس في شأنٍ كهذا، ولكن ما لقّنه لنا معشر الأسلاف في مسلكهم هو !وجوب أن نقلع عن تعاطي كل ما من شأنه أن يفقدنا أعظم نعمة نلناها بالمجّان: العقل

في الشرق سرى في الأفق مخاض حميم. في مربد القطيع اجترّت الماشية طعومها المختزنة في :كسل. احتجّ

المصاب ليس أن نقلع عن تعاطي ما نعلم أنه داء، ولكن في أن نقنع أناساً أقبلوا على بلادنا أضيافاً .بالكفّ عن تعاطي الدّاء

:تفتّق الأفق عن ميلاد البشارة، فتضاعف عمق السكون، في حين عاد الداهية يحتكم إلى النصل

!في هذه الحال لن يبقى إلاّ قطع دابر العلّة من الجذر

تابع العجب الأحمر، في حجمه الأعظم، وهو يتحرّر من الأسر، ليسفح على الخلاء نزيف روحه الفضّي السخيّ، رغم ميلاده الذي لم يكتمل بعد. تمتم كأنّه يرتّل تميمة امتنان في حقّ ربّة الأرباب :جزاء الأعجوبة

..القطع من الجذر

فوافقه الداهية بصوتٍ مفوّض من قبل القوّة التي تسكن الخفاء فلا تُرَى بالبصر، ولكنها تنطق باسم :البصيرة

!لا نجاة من الحيّة إلاّ بقطع رأسها، ودفنه بعيداً عن موقع الجسد

:سكت ثم تساءل

.قلت صدقاً، ولكنّك لم تقل كيف

:حدّق في عينيه طويلاً. خُيّل له أنه رأى بسمة غامضة في هاتين المقلتين قبل أن يجيب

الجواب مبثوث في سيرة الإنسان الذي نجا من الهلاك بفضل الشظية التي تثقب الحجر لتترك فيه !الأثر

:تعجّب

الشظية؟

:ابتسم في وجهه هذه المرّة بمرح كاشفاً عن أسنانه المحطّمة

!الظلف

الظلف؟

الظلف بالطبع. هل نسيت ما يفعله هذا النصل المشقوق إلى نصفين، المثبّت في ساق الماعز الأسود، بالنبوت في السهول؟

:سكت لحظة ثم عاند شريحة الضبّ المطروحة على الجمر الخابي قبل أن يضيف

نحن الرعاة نسمّيها «سمّ الكلأ». هل تدري لماذا؟

:انتشل الشريحة من موقعها على الجمر. طرحها أمامه على فرشة الرتم، ثم أوضح

!لأنها لا تدوس على نبتة إلاّ وأماتت فيها الجذر إلى الأبد

:هادن السكون مرّة أخرى، ولكن السكون تمادى فانقضّ عليه بهجمة حاسمة

ألم تلاحظ أن الأبقار تلتقم الكلأ التقاماً، أمّا الماعز الشقيّ فينتزع الكلأ انتزاعاً؟

عاند الشريحة لحظات، وعندما استشعر هيمنة السكون استجار بالنصل الأقوى سلطاناً من كل :نصل، المختبئ خلف قضبان الأسنان

الماعز الأسود آفة الصحراء. وإذا شئت أن تبيد مرتعاً، وتقطع فيه دابر الكلأ، فسلّط عليه هذه البليّة !السوداء التي لا يدري أحد متى وكيف تسلّلت إلى الوطن

لم يفاجئه أن يتحدّث داهية المراعي عن الظلف، وعن قدرة الظلف على ثقب الحجر، لأن تلك كانت علامات لا تنسى في سيرة الأثر. لم يفاجئه أيضاً أن يتحدّث عن مفعول هذا النصل ذي الشقّين في اجتثات جذور الكلأ؛ وفي قدرة الظلف على اختراق العمق وحرق حتّى البذار في باطن الأرض. ولكن تسخير الوباء الأسود في القضاء على العشبة السحرية هو ما لم يخطر له على بال. :تساءل

هل تظنّ أنهم سيُدبرون في حال أدبَرَ في الأرض النبات الملعون؟

في ضياء البدر الوليد أبصر الاعوجاج المريب في أنف الداهية بوضوح، بل تخيّل أن الأنف قد :ازداد اعوجاجاً في تلك اللحظة، ولكن الداهية لم يتأخّر في تبديد شمل السكون

إذا لم يدبر جلّهم، فسأضمن لك جلاء أشرارهم، مع بقاء أخيارهم، لأن مريدي الغنيمة في معشر شذّاذ الآفاق دائماً أغلبية، أمّا الأخيار فأقليّة. وربّما جرّ أهل الجشع في ركب الرحيل جلّ الأخيار .أيضاً، لأنه ليس من طبع الأخيار أن يخاطروا بسكينتهم، لو لم يستدرجهم المغامرون

ارتفع البدر أشباراً. من الشمال هبّ نسيمٌ مبلّلٌ بأنفاس البحر البعيد. بدأت مراسم العشاء، تبادلا طريدتيهما، كما تبادلا قبل ذلك عزلتيهما. طرح أمام الجليس حبّات الترفاس وانتظر أن يستطعمها الداهية أوّلاً، لأن تبادل العزلة

هو ما جعل منه ضيفاً، لا مجرّد قرين أو رفيق. وناموس الضيافة يهب الجليس حقّ استطعام الطعوم أوّلاً. العجوز أيضاً طرح في وجهه طريدته. طرح شرائح الضبّ المشويّة ليتذوّق أوّلاً. لأن تبادل الأدوار في طقس الأمسية ليس صفقة لإشباع حاجة بدن في تلك الخلوة التي استحضرت

فيها الصحراء سماءها ونجومها وبدرها وسكونها ليكونوا في الجلسة بمثابة شهود عيان، ولكن التبادل كان محفلاً لأداء واجبٍ خفيّ لم يخطئ الدهاة عندما أطلقوا عليه اسم: الصلاة.

طعم أجنّة الجنيّة التي تسكن بعيداً في بطن الأرض سرت فاستسلم للنشوة التي أطاحت باستكبار الحسناء وانتزعت منها الاعتراف. تحسّر على غياب الجوهرة الخضراء وغياب ربّة الحُسن أيضاً.

هجع الداهية فهجع. سفح البدر دفقه فابتعدت حشود النجوم. ولكن رئة الشمال لم تبخل بأنفاسها. الأرض أيضاً لم تبخل بأنفاسها. استسلم لها فتخلّلته وتخلّلها، تماماً كما تماهى بها وتماهت به في الليلة التي انقطع لها فهوّنت عليه بالقول: «لا تخف! لا تخف أبداً، لأنك في حضني. فأسوأ ما يمكن أن يفعلوه بك ليس أن يعيدوك إلى بطني، ولكن أن يبقوك غنيمةً في بطونهم. ولو علموا كم أنت في أمان في بطني لما جرؤوا على أن يفعلوا بك سوءاً أبداً!». هكذا تكلّمت الصحراء. تكلّمت فيه، لا في أذنه. فسرت كلمتها في بدنه. في دمه. في وجدانه، لتصير كلمتها عهداً في كيانه؛ وإلاّ لما استيقظ الإحساس بالواجب نحو الأرض عندما تساءل العجوز الجريح في مواجهته عمّا إذا سمع الأرض مرّة تتوجّع هناك، في القاع الأبعد منالاً من كل قاع، كأنها تجود بأنفاسها، فلا تملك إلاّ أن.. تنادي!

في الطريق إلى وطن الزعيم طنّت في أذنه الوصيّة: «لا يجب أن نسمح بأن تنشب بيننا حرب مرة أخرى أبداً!». فبماذا سيبرّر صاحب هذه الوصيّة عمل أبناء جلدته الأضياف، في حقّ أبناء الوطن المستضيف؟

كان قد قطع مسافة أيام في طريق الشرق حيث يرابط الزعيم، ولكنه انعطف في منتصف الطريق ليُيَمّم صوب الشمال الغربي، حيث انتصب كيان المعبد منذ شهور، تمهيداً لوضع حجر الأساس في كيان الوطن الموعود.

كان قد طار إلى ديار الزعيم ليضع الأمر بين يديه، ولكن خوفه من أن يكون قد استصدر الحكم غيابياً في حقّ أناسٍ قاسمهم بالأمس القريب الماء والملح، بل وقاسمهم ما هو أعظم شأناً من الماء والملح، صار له في الطريق وسواساً موجعاً لم يتحرر منه إلاّ بعد أن انحرف فجأة وطار صوب الشمال الغربي. ولكن.. هل الخوف من أن يظلم هو السبب الوحيد في انعطافه صوب الشمال الغربي؟ ألن يكون الخوف العميق، الخوف الخفيّ، من أن يفقد، هو السبب؟ لقد تساءل مراراً في الماضي عن سرّ طوافه حول «ثيرا»، ولكنه لم يكن شجاعاً بما يكفي كي يكشف لنفسه الحقيقة فيقول إن السبب هو الإحساس بالإثم، وليس الحبّ، بلى! بلى! الإحساس تنامى فيه منذ تغنّى «آغافون» بسيرة الآباء الذين لقوا مصرعهم في حرب السبعة الآف قتيل، وكان والد الصغيرة أحدهم، ولم يكن ليضمن ألاّ يكون الشقيّ قد لقي حتفه على يديه هو، لا على يد أيّ محاربٍ آخر، ممّا دفعه لأن يتساءل طوال الوقت عمّا إذا كان التكفير عن خطيئةٍ مزعومةٍ سبباً لحبٍّ حقيقيّ. ولكن ما لم يعترف به أبداً هو أن يكون التكفير عن الخطيئة المزعومة هو سبب طوافه حول «سيراس» أيضاً، لا الطواف حول الصغيرة وحدها. الماكر «آغافون» لم يتردّد في أن يقول إن شؤم الحرب ليس في قدرتها على قتل الرجال، ولكن في دفع نساء هؤلاء الرجال إلى مخادع قتلة رجالٍ ليسوا أيّ رجال، ولكنهم رجالهنّ.

وما لن يستطيع أن ينكره هو كونه أحد قتلة تلك الحرب. وأن يكون أحدَ قتلة تلك الحرب مبرّرٌ كافٍ لأن يكون هو القاتل الذي سفح دم إنسانٍ كان أباً لـــ «ثيرا» وقريناً لحسناء اسمها «سيراس»، والعدل أن ينال جزاء هذا الجرم قصاصاً، لا أن يكافأ على فعلته بالحبّ. جادل نفسه طويلاً في هذا الشأن، وكلّما تعادل الاحتمالان (احتمال النفي واحتمال الإثبات) أطلّ في الأفق شبحٌ آخر لم يقرأ له حساباً في مجادلات الدفاع عن النفس. فقد بلغ به الهوس حدّاً دفعه لأن يستفهم من «آغافون» عن سيماء الأب الفقيد، وعن وجود علامات فارقة في جسده، ولم يكتفِ بهذا الفضول، ولكنه وجد في نفسه الشجاعة كي يطرح أسئلة من هذا القبيل على «سيراس» نفسها، بلا جدوى. لأن ما أعجزه ليس أن يتخيّل سيماء الرجل المفترض، ولكن في أن يستعيد سيماء الأعداء الذين

قتلهم في تلك الحرب. كأنّ الذاكرة تأبَى إلاّ أن تعترف بقتلى لقوا مصرعهم فتستودعهم النسيان في الحال رأفةً بالقتلة من كابوس كان

سيرافقهم في منامهم ويقظتهم إلى الأبد، فخاب ظنّه بالاستقصاء، ولكن الهاجس لم يتبدّد، بل تمادى. تمادى ليستعير يقيناً آخر أقسى فحوى يقول: ما الفرق أن يكون القتيل شخصاً يحمل في وجهه ملامح إنسانٍ كان أباً لطفلة اسمها «ثيرا»، وبعلاً لحسناء اسمها «سيراس»، أو أن يكون شخصاً يحمل سيماء رجلٍ آخر كان بعلاً لامرأةٍ أخرى، فلتكن «تارا» على سبيل المثال، أو أي امراة أخرى من آلاف النساء اللائي خلّفتهنّ هذه الحرب بلا رجال؟ فما يجب أن يعترف به هو أنه الرجل الذي يختزل في شخصه قاتلاً مسؤولاً عن ترمّل كل هذه الحشود من الأرامل، والمذنب في حقّ كل الأطفال الذين تيتّموا بسبب تلك الحرب. وهو بالطبع إثمٌ أعظم بما لا يُقاس من إثم كتم أنفاس نَفْسٍ واحدة، تتنفّس في جوف رجلٍ هو أبٌ لطفلة نقيّة اسمها «ثيراسين»، وقرينٌ جديرٌ بحسناء منيعة اسمها «سيراس».

اعترافٌ كان كافياً كي يفرّ هارباً من حرم الحلم، كلّما علا في الأذن تحريض «آغافون» الدّاعي إلى وجوب الاستسلام لنداء القلب، وقبول التحدّي..

يقتلون رجالهنّ ليخلفوهم في المخدع.. ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟

كم جائرٌ هو الناموس الذي يجيز الإستيلاء على حرمات رجالٍ هلكوا نكايةً فيهم، لا لشيء إلاّ لأن الحظّ خذلهم فماتوا، في حين يكافئ الغاصبين لمجرّد أن الحظّ حالفهم فنجوا!

المرأة، بهذا العُرف الجائر، حقّاً غنيمة المنتصر، بقدر ما هي عار الذين هُزموا، بل هي قصاص الذين أعجزهم أن ينتصروا. والأمم لم تبغض الحرب لأنها تميت، ولكن لأنها تستثني النساء في القسمة لتُميت رجالهنّ مرّتين، بإبقائهنّ قيد الحياة، لا مرّة واحدة.

هو أيضاً، الشقيّ يوساس، أمات في الحرب رجالاً كثيرين، ولم يبق له، كي يميتهم مرّتين، إلاّ أن يتسلّل إلى المخدع ليستولي على نسائهم هناك، كما يقضي ناموس كلّ حرب.

:أومأ إلى الجدران عندما التقاها قبل أن يدلي ببيان

!أرى جدراناً ترتفع، وسقوفاً تُشيّع

:فلم تتأخّر في الجواب

!لولا نقص الرجال لكنت شاهداً على وجود أنصاب، بل ورقيباً على رحابة شوارع

:استفهم بفضول

نقص الرجال؟

:اعتدل فيها قوام الاستكبار قبل أن توضح من حصون امتناعها

لا نشكو من نقصٍ لا في الحجر، ولا في الشجر، ولكن لعنة الحرب تطاردنا في كل خطوة، تأبى !إلاّ أن تعلن عن نفسها حتّى في تشييد المأوى، لأننا بفضل كيدها نعاني نقصاً في سواعد الرجال

النقص في سواعد الرجال.. سقوط سبعة آلاف مقاتل في معركة واحدة حقّاً بلاءٌ عظيم. بلاءٌ عظيم لا في خسارة السواعد التي تبني وحسب، ولكن في خسارة الأعجوبة التي تأتي على الدنيا بالذريّة .أيضاً. وهي يقيناً الخسارة الأفدح من خسارة السواعد التي تتطاول في البنيان

استفهم عن حال «ثيرا» فتحدّثت كيف ترعرعت بفضل شموس الوطن الجديد، ثم حدجته بنظرة :ذات معنى قبل أن تضيف

أخشى أنك ستضطرّ قريباً لأن تبحث لها عن عريس هذه المرّة، بدل الوصيّة المتنكّرة في جرم !بهمة الغزال

:ابتسم ثم استفهم عن الدمية أيضاً، فلم تتردّد بالجواب

!الدمية أيضاً لم تعد دمية، وأخشى أنك ستضطر لأن تجلب لها غزالاً

ترصّدته بفضول، فلم يجد مفرّاً من الاحتكام إلى المتاع. استخرج منه جراباً جلدياً قدّمه لها مشفوعاً باعتذار:

نحن نتعاطى الترفاس بدل السلفيوم، وهو أفيوننا حتى وإن خلا من لقية السحر الأخضر الذي لا تجود به الصحراء إلاّ استثناءً!

ندّت عنها آهة عميقة ترجمةً لامتنان، ثم انكبّت على الجراب لتستنشق عطر المجهول الذي أوجد ثمرة المجهول. عادت تئنّ كأنها تعاند نوبة وَجْد قبل أن تقول:

مصابنا علّمنا أن الرجل ليس في حاجة لأن يجود بأيّ شيء، لأنه.. لأن وجوده في هذه الأرض وحده جود!

تبادلا نظرة غامضة، ولكنها كانت كافية لكي تشفعها بفحوى:

عودتك ستسعد الكلّ!

في سيمائها سرت بسمة عذبة قبل أن تضيف:

آمل أن تحقّق حلم «ثيرا» التي كانت تتمنّى أن تستضيفك في دارها دوماً.

سكتت وهلة دون أن يفارق إيماء العذوبة بسمتها، ثم تساءلت عمّا إذا كان مقامه إلى جوارهم سوف يدوم. لم يجبها، لأن سؤالاً يليق بامرأة، وفوق ذلك ربّة حُسْن، جديرٌ بأن يبقى بلا جواب. إذْ كيف يدوم المقام في المكان إذا كان قبس الفجر في الأفق لا يدوم، ونفحة الشمال المشحونة بملح البحر لا تدوم، والعذوبة في بسمة ربّة الحُسن لا تدوم، لأن الحُسن الذي يسري في سيماء معبودة الحُسن، كما يسري الدم في الوريد، أيضاً أعجوبة لا تدوم؟

خطر له أن يقول لها إنه لو كان يثق بوجود دوامٍ لما سَرَحَ في الصحراء، واستبدل المقام هنا، بالمقام هناك. آهٍ لو علمت أنه من سلالة «ميدّبياغز»، تلك الكلمة العصيّة التي تتحدّى بالفحوى أيّ تُرجمان! الكلمة التي أعجزت حتّى كهنة الناموس الأوّلي «آنهي» فاستبقوها لغزاً موجعاً، معلّقاً في رقبة الأجيال، كأنه الكابوس الذي يكتم الأنفاس ليكون الشبح الذي يسخر من الدوام المزعوم، من خرافة الديمومة، كما جرت على لسان الداهية الذي لقّنه مبادئ الناموس زمن الظمأ إلى كل ما غيّبته الغيوب؛ ولكنه لم يجد مفرّاً من الاستفهام عن ميعاد عودة «آغافون» من رحلة قضاء الحوائج كما قيل له، بدل الخوض في شأن الدوام.

سعى في الخلاء كما اعتاد أن يفعل كلّما وشوش في الدم خاطر، أو انغرس في القلب مخلب. الدوام! الديمومة! كابوس ميدّييباغز المُميت الذي ينفخ في وجهه فحيحاً كريهاً مع كل خطوة موسوساً بنبوءته الخالدة عن عدم وجودجدوى ليس في حاجة إلى حُجّة. يكفي أنه فانٍ. وأن يكون فانياً دليلٌ على بطلان مفعول أي مسعى مهما تبدّى جليلاً. هذا هو اليقين المبثوث في صلب الناموس فأمات في قلوب الأجيال الحلم، وحوّلهم في الصحراء أشباحاً، ليبيح لأبناء الأمم أن يستحلّوا أرضهم، لأنها بالنسبة لهم ليست وطناً، ولكنها مجرد فراغ موحش مسكون بأشباح، وليس لهم أن يلوموا أغراب الأمم، لأن من استصدر في حقّهم الحكم بالإعدام ليس الأعداء أو الغزاة، ولكن معبودهم الذي صار في دنياهم كابوساً، لم يكن لينال منهم لو لم يخلعوا عليه مسوح القداسة، وينصّبوه في حياتهم ربّاً! فأيّ معنى يمكن أن يستعيره الجمال، أو أعجوبة كالطفولة، أو معجزة كالحبّ، إذا كانت الصحراء تأبى أن تكذّب كل الحجج، لتؤكّد غياب الثقة في كل ما تبدّى بسبب عدم وجود ضمان؟ هل يملك الحق أن يعترف لنفسه بحضورٍ هنا، في صحراء كلها فراغٌ يتواصل في فراغ، إذا كان كل شيء فيها يستهزئ بحلوله فيها، فلا يعترف له إلاّ بالعبور؟ ألا يكفي هذا مبرّراً كي يقف من كل شيءٍ موقف شاهد العيان، بما في ذلك من ربّة الحُسن نفسها، فلا يقدّم رِجْلاً، إلاّ ليؤخّر أخرى حتى صار في نظر نفسه أضحوكةً جديرة بالرثاء؟

قد يشفع الندم الإيماء الموجع في عيون الغزلان. قد يصلح الأمل ترياقاً

في مداواة جراح البراءة المطبوعة في وجه الطفولة، ولكن.. هيهات أن يفلح حتى الحبّ في أن يجير الجمال الحصين من لطخة الدّنَس!

لم يجد ما يحاجج به، عند المواجهة مع «آغافون»، سوى ترديد البيّنة التي تلقّاها يوماً من فم الشيخ الجريح ولم ينسها أبداً:

ماذا أبقيتم للناس من سلفيومكم المشؤوم حتّى تفرضوه عليهم مكوساً؟

قبل أن يضطرّ للاحتكام إلى السؤال، كان قد نشب الخصام حول مقتل الثلاثة رجال على يد أبناء المستوطنة، ولكن «آغافون» استبسل في نفي الجرم مدّعياً أن أهل المكان هم مَن بادر بالعدوان، وما فعله المستوطنون هو دفاعٌ عن النفس حتى وإن كانت النتيجة سقوط ضحايا. احتدم الجدل طويلاً حول الواقعة، ولكن عبثاً حاول كل طرف أن يستصدر في حقّ الطرف الثاني حكماً عادلاً بسبب غياب شهود العيان، في حين انتصب الخلاف حول المكوس المستحقّة عن الزروع الموسمية شبحاً عنيداً بين الفريقين، فلم يجد مفرّاً من أن يستجير بمنطق الشيخ الجريح مرّةً أخرى:

متى كانت الأشباح تدفع مكوساً؟

استنكر «آغافون»:

الأشباح؟

أيّ اسمٍ جديرٍ بالإنسان الذي لا يحطّ في الأرض رحالاً غير اسم الشبح؟

هبّ «آغافون»:

لا يحقّ لنا أن نسمّيه شبحاً إذا ترك على الأرض أثراً!

ماذا تقول؟

لست أنا من يقول، ولكن منطق المكوس هو الذي يقول!

حدّق فيه بفضولٍ كأنّه يشكّك في حضور المخلوق الذي عرفه يوماً في جرم المخلوق الذي ينتصب في مواجهته لحظتها، إلى أن تمتم:

بهذا المنطق نستطيع أن نقول إن المكوس هي الشبح الحقيقي، لا الإنسان العابر الذي افترضناه شبحاً!

هلّلت السيماء في وجه «آغافون»:

صدقت! المكوس هي الشبح. المكوس ليست مجرّد شبح، ولكنها هنا البعبع!

سكت وهلة ثم أضاف:

المكوس هي البعبع الذي لا يعترف بالأشباح أشباحاً ما دامت تترك أثراً على الأرض.

أثر؟ أيّ أثر تتركه الأشباح على الأرض؟

في مقلة «آغافون» تألّقت شقاوة:

الزروع!

تقاربا في مواجهتهما حتى كادا يتناطحا لتتقاطع أنفاسهما أيضاً قبل أن يستفهم:

أيمكن أن تكون الزروع البائسة التي يختطّها أهل الرحيل في فضاء صحرائهم إذا ابتسم الحظّ وفازت بأمطارٍ عابرة، ليستعينوا بمحصولها على إطعام العيال، شَرَكاً للإيقاع بأشقياء الأزمان ليجدوا أنفسهم يعامَلون معاملة الأقنان؟!

هلّلت السيماء في وجه «آغافون» حتّى خُيّل له أن الرجل يسخر منه:

هذا سؤالٌ قد يبدو عادلاً بمنطقنا، ولكنه تجديفٌ بمنطق المكوس التي لا تتردّد في أن تستنجد بالأرض لتبرير منطقها المستعار من ناموسها الذي لا يعترف إلاّ بالبصمة برهاناً!

توضّحه بدهشة قبل أن يستفهم:

ماذا تريد أن تقول؟

تنامت روح الاستخفاف في ملامح الرجل، وتمادت في نغمة الصوت أيضاً:

لست أنا من يقول، ولكن المارد المدسوس في المكوس هو الذي يقول. المارد الذي يستطيع أن يغضّ الطرف عن المخلوق الذي يتبدّى شبحاً، ولكنه داهية بما يكفي كي يفعل فعلته ثم يحاول تبرئة ذمّته بالتواري عن الأنظار! ولكن هيهات أن يفلت من مستوجبات المكوس، لأن الأرض هنا حليف المارد الذي يسكن جُبّة المكوس، وهي التي تتولّى فضح الماكر بشهادةٍ مبثوثة بحرف الأثر الذي خلّفه على الأرض. ولهذا يُقال عندنا: مَن شاء أن ينجو من كابوس المكوس، فليس له إلاّ أن يموت!

يموت؟

يموت بالطبع، لأن الأموات وحدهم لا يتركون على الأرض أثراً!

تابعه بدهشة كأنه يراه لأول مرة، أو يكتشف فيه مخلوقاً يراه لأول مرة، فتساءل من رحاب غيبوبة:

أيُّ لعنةٍ هي هذه المكوس التي تتشدّقون بها كأنها تميمة؟

صدقت! المكوس تميمة الإنسان الذي قرّر أن يجتمع إلى أخيه الإنسان في المكان الذي لا يعود بهذه الصفقة مجرّد مكان، ولكنه يتحوّل وطناً. والمكوس قُوت الصفقة، بل وحربة أعجوبة اسمها الاستقرار في الدفاع عن النفس!

سكت ثمّ تطلّع إلى الخلاء الهارب نحو الأفق المشفوع ببصمة السماء ليضيف:

لولا وجود المكوس لما التأم الناس في الشمال، ولما وُجد على الأرض وطنٌ اسمه «قورينا»، ولولا وجود المكوس لما أقبلنا على هذا المكان صفّاً واحداً متلاحماً لن يحتمل فيه أحد أن ينام منفرداً، ولهذا نشيّد السقوف كي نشعر بوجود بعضنا بجوار بعض!

السكون كان بالانتظار كعادته في مثل هذه الأحوال، فلم يلبث أن انتصب. انصتا للسكون فاستدرجهما الإغواء في السكون حتّى أيقنا بوجوب الاستسلام. ولكن هاجس الحرية الذي استيقظ فيه كان أقوى من سطوة السكون:

ولكن لماذا على الإنسان المقطوع، الهائم على وجهه في الفلوات، الرافض لأن يركن لأيّ أرض، أن يكون طريدة قنّاص لا يرحم اسمه المكوس؟

:لم يعد «آغافون» من غيبته في رحاب الخلاء عندما أجاب

لم يكن لطريد الأرض أن يصير ضحيّةً في شباك قنّاصٍ اسمه المكوس لو لم يستسلم مرّة لإغواء !الأرض ليقترف الخطيئة التي لا تغتفر في حقّ الأرض

الخطيئة التي لا تُغتفر في حقّ الأرض؟

:ابتسم «آغافون» بغموض

ما يليق بالإنسان السارح على سطح الأرض أن ينحني ليلتقط ما تجود به الأرض طوعاً، ولكنه يخون ناموس الأرض عندما يبقر بطن الأرض ليجني قُوتَه غصباً، فلست أنت مَن يجهل أن الفخّ الذي خذل عاشق الرحيل وأوقعه في قبضة شبح المكوس إنّما تخفّى في سكّة المحراث الذي انتهك حرمة الأرض. وفراره بعدها إلى الخلاء لن يجيره من القصاص الناجم عن خطيئة خدش حياء أمّة الأرض، بل سيحشره في الزاوية نفسها التي حشر فيها الفئة الشقيّة التي احتقرها دوماً، لأنها !تحترف تمزيق جوف الأرض لتنتزع بهذا العمل الدموي قوتها: الفلاّحون

:التقط نفَساً. حدجه خلسة قبل أن يُتم مرافعته

هل نجرم في حقّ صاحب العبور عندما نوصي بوجوب اجتناب جرح الأرض حتى بشوكة لمن خشي الوقوع فريسة بين فكّي وحش اسمه: المكوس؟

:عاد الصمت يهيمن. وكان عليه أن يبذل جهداً كي يتحرّر من الأسر

أيعقل أن نعجز عن لجم الوحش الذي زرع الفتنة بيننا على نحوٍ يهدّد بنشوب تلك الحرب التي قلت مراراً إنها لا يجب أن تنشب بيننا مرة أخرى أبداً؟

:حدّق في وجه الرجل المتصبّب عرقاً، المبلبل خشية غياب جواب، فأضاف

أيُّ الأمرَين أهوَن: أن نضحّي بالمكوس في سبيل السلم، أم أن نضحّي بالسلم في سبيل المكوس؟

في العراء المديد اشتدّ الحريق، ففاض في المدى السراب الذي مضى يراقص الحجارة، ويتلاعب .ببيبس الأعشاب البريّة، فينفخ فيها من روحه الماكرة حتى ابتلع الأفق

استمع له الزعيم حتى النهاية، ثمّ صمت طويلاً قبل أن يخاطب محفل الأعيان الذي التأم تلبيةً للنداء الذي طاف به الرسل أرباع القبائل منذ أيام:

طبول الحرب ظلّت تُقرَع في رأسي منذ أمد، وكلّ الدلائل تشير إلى أن الأوان قد حان كي تُقرع في أذني!

لاحظ بوضوح كيف نفرت العروق في وجهه واحتقنت بالدّم، في اللحظة التي عمّ فيها المكان هرج الأكابر المكتوم، وسادت بين الأعوان بلبلة أوحى بها الخوف من أن يبادر الزعيم باستدعاء النذير، لأن هذا الفعل الذي يبدو بسيطاً في منطق اللسان، يعلم الجميع كم هو جسيمٌ في فحواه، لأنه كفيلٌ بأن يدفع الرجال للاحتكام إلى الأنصال الظامئة إلى الدم، وسوف لن يضمن أحدٌ بعدها (بمن في ذلك الزعيم الذي نطق بالحكم) ألاّ تنقلب حياة النجوع رأساً على عقب في كل الصحراء.

تعالت الأصوات، واندفع الأكابر في جدلٍ كان في مثل هذه المواقف دوماً حجّةً واهية لإطالة عمر القضاء، أو تجاهل شبح البُعبع المنتظر.

صمّ أذنيه عن اللغو وفتّش عن سبيلٍ يمكّنه من الاختلاء بالزعيم قبل فوات الأوان، ولكن هيهات! لأن الزعيم لم يَبدُ له أبعد منالاً كما تبدّى في تلك اللحظة التي طوّقه فيها الأعيان والأعوان والمحاربون المحترفون الذين أقعدهم دوام السِّلم عن العمل فاحترقوا بالمسّ حنيناً لاستخدام السلاح، وتقافزوا حول الزعيم ما أن سمعوا من فمه كلمة «حرب»، فلم يكتفوا بصيحات الحماس، ولكن بعضهم احتكم إلى ساحة الأشعار التي كانت أفيوناً يعتصمون به في مثل هذه الأحوال، وشرعوا ينشدون وهم يتمايلون ويجذبون كما اعتادوا أن يفعلوا في حفلات الغناء التي اعتاد معشر الشاعرات إقامتها في الخلوات احتفاءً باكتمال القمر بدراً. خارج الخباء قعقع الرعد قعقعة موجعة، متواصلة، كأنّ شعاف الجبال الخرافية، المجلّلة بسوادٍ كأنه وسم الأبدية حداداً على حرائق براكين الأزل، هي التي تتهدّم، وتتوعّد بالمزيد، في ذلك النهار الخريفي العبوس، الواعد بموسم مطرٍ سخيّ. هدير الرعود خارج الخباء كتم أنفاس الصخب في الداخل، فتململ في جلسته خوفاً من أن يتمكّن الممسوسون من إصابة الزعيم بالعدوى، فيأمر باستنطاق الطبل المشؤوم الذي لم يحدث أن تغنَّى في النجوع يوماً إلاّ وصاحبه الجنون الذي حصد من أبناء القبائل في مرّة ما لم يحصده الجدب، أو الأوبئة، أو التّيه، في أجيال.

في الخارج انهال الغيث فجأة فتنفّست الأرض الظامئة الصعداء، وتعالى من تراب الرمضاء بخارٌ كالغبار، في حين غزت أنفه الرائحة الشهية التي انتظرها دوماً، كلّما سقط على الأرض الظمأى

وابل مطر، فيستغيث فيها التراب بفحيحٍ موحش وحميمٍ في آن، شبيهٍ بحشرجة نارٍ تلقّت فجأة غمراً سخيّاً من فم قربة، فلا يُسمع اللحن الموجع شكوى، ولكن يستحيل ابتهالاً، صلاةً، دموع فرح!

استنشق العطر عميقاً عميقاً، وترنّح بانتشاء مستجيباً لأغنية الغيث وهي تقرع ذرّات الرمل فتنفث مع النغم الشجيّ بخاراً يتصاعد إلى أعلى، كأنه ذيول غبار تتراطن بمناجاةٍ شجنيّةٍ، ممزوجةٍ بشذى العطر المجهول.

في الفراغ المستلقي خارج الخباء احتجب المدى بالبخار، بأنفاس اليابسة المتلهّفة لالتقاط الندى، فيتقاطع في برزخ الفضاء شبح الغبار مع قطرات المطر المنهمرة نحو الحضيض، فيتبدّى التماهي بين الضدّين عاصفةً كثيفةً تحجب الرؤية، ليكون القوم شهود عيان على المشهد الوحيد الذي تتنكّر فيه الصحراء لسجيّتها كصحراء.

تضعضع المحفل، وبدأت الأشباح التي كانت تحكم الطوق حول الزعيم تنجلي وتتبدّد. في المدخل تزاحم الجمع، ولكن هجمة الغيث ما لبثت أن شتّتت شمل الجمع فخلا الخباء، ولم يبق في الجوف المجاور للركيزة سوى الزعيم مهجوراً، مقنّعاً بالوجوم، يتطلّع إلى الغمر المنهمر بغزارة ليشقّ في المدخل أخاديد تتحوّل قنوات وضيعة بدأت تفيض لتجري سيولاً نحيلةً في البريّة.

عاد الرعد يهدر بعنف، في حين تصاعد اللحن في المعزوفة، فانتهز الفرصة وزحف ليواجه الزعيم. انتظر لحظات ثم سأل:

هل يسمح مولاي بسؤالٍ كتمته في صدري طويلاً؟

لم يستجب الزعيم فانتظر وهلة ثم سأل:

ما جدوى أن نترك في حوزتنا، يا مولانا، كنزاً يستغلّه الأغراب فلا ننتفع به في قضاء حوائجنا، كأننا له مجرّد عسس، ولسنا له أصحاب؟

الزعيم لم يُجب. ظلّ قابعاً بجوار الركيزة، محتجباً بوجومه، مستسلماً للسكون، فواصل:

أردت أن أقول إني كم سأكون سعيداً فيما لو علمت بنفع نبتة جلبت على أرضنا كل هذا البلاء!

خُيّل له أنّ إيماءً كالبسمة سطع في مقلتيه. بسمة استخفاف يقيناً، ولكنه لم ييأس:

أردت أن أقول: لماذا لا نضحّي بالنبتة الشريرة، بدل أن نضحّي بالقبائل فداءً للنّبتة؟

تململ الزعيم أخيراً. خيّل له أنّ فضولاً شعّ في وجهه المحروث بالغضون، ولكنه لم ينبس. استمتع بالاستماع إلى المعزوفة الشجنيّة، مختلساً النظر تارةً نحو المدخل حيث تحتدم المبارزة الجليلة بين السماء ومعشوقتها الأرض، وتارةً أخرى نحو الزعيم، وانتظر. انتظر إلى أن طنّ في أذنه أمر الزعيم:

!أفصح

:فقرّر أن يفصح

!سنجتثّ يا مولانا العشبة

:في سيماء الزعيم اقتنص دهشة، فاندفع إلى الأمام خوفاً من سماع اعتراضٍ قرأ فيه دوماً فأل سوء

!سوف نجتثّ آسيار يا مولانا من أصله كي نعيد الأمان للأجيال

:لحظتها فقط اعتدل الزعيم في جلسته وسأل بوضوح

ماذا تقول أيُّها الشقي يوساس؟

تطلّع إليه، ولكنه اكتفى بترويض بسمة خفيّة، دون أن ينبس كي يشعل فتيل الحماس في قلب الزعيم. جعجع الرعد من جديد فاشتدّ الإيقاع في معزوفة الغيث.

:تساءل الزعيم

بأيّ حيلةٍ نستطيع أن نجتثّ العشبة المسمومة من ترابنا الفسيح أيُّها الشقيّ؟

أنصت لداهية اسمها سماء وهي تتفنّن في اختراع أنامل ملفّقة من ماء لتلامس بها أوتار معشوقتها اليابسة، ليعلو المسّ في المعزوفة التي انتظروها طويلاً، تماماً كما انتظروا الخلاص من الدسيسة اللعينة التي جلبت على أرضهم البلاء:

!الظلف يا مولاي

:استفهم الزعيم بإيماءة صارمة استجابت لها الغضون بوضوح، فأوضح

الظلف الذي يثقب الحجر يا مولاي قادني مرّة إلى الخلاص. والظلف اليوم هو الذي سأحقّق به الخلاص للأرض، بعد أن قادني يوماً إلى واحة الخلاص!

:تابعه الزعيم بفضول، ولكنه لم ينبس، فانتهز الفرصة بالمضي إلى الأمام

كلّ ما على مولاي أن يفعله لتحقيق هذا الحلم هو أن يأمر سادة القبائل بأن يجلبوا لي كل ما امتلكوا من قطعان الماعز الأسود!

:هتف الزعيم بنبرة استنكار

الماعز الأسود؟

بلى يا مولاي! أسنان الماعز الأسود آفة النبات، أمّا الظلف فيها فهو سُمٌّ زُعاف يميت الجذور في منابتها!

:تفحّصه الزعيم بإمعان، كأنّه يكتشف وجوده لأوّل مرّة، ثم غمغم

هل يُعقل هذا؟

انتظر أن يمهله المطر الذي تمادَى في هجمات متتالية فسال المدخل بمياهٍ خمّن أنها ستستدعي إقامة المتاريس الترابية قريباً. قال بيقين:

إذا ضمن لي مولاي ما يكفي من القطعان، مصحوبةً بما يكفي من الرعيان، فسوف أضمن لمولاي زوال الدّاء خلال موسم عامٍ واحد!

دمدم الرعد من جديد، كأنَّ الصحراء أبت إلاّ أن تتحدّى الزعيم فتقرع طبول حربها استخفافاً بطبول حرب القبائل. في ركن الخباء المواجه لموقع الزعيم تسلّل لسان الماء ليقتحم جوف الخباء وهو يتلوّى في انسيابٍ وئيدٍ كثُعبانٍ يتخنّس في زحفه اللئيم.

..وقفة أخرى في رحاب الطلول

طلول «ثيرا» لم تكن مجرّد طلول، ولكنها الطلول التي خذلتها الأقدار فلم يُكتب لها أن تكتمل لتستوي في عمران كبقية المستوطنات، كأنّ اللعنة التي حدّثه عنها «آغافون»، التي حاقت بالوطن .القديم، لاحقتها وهي بَعْد جنينٌ في بطن الأمّ، لتكتم أنفاسها قبل أن تولد

أبنية مشيّدة، ولكن الوقت لم يسعفها كي تتحوّل إلى دور. شوارع شُقّت ورصفت بالحجارة، ولكنها ظلّت مجرد طرق، لأن صفوف الأبنية على الجانبين لم تكتمل ليحقّ لها الفوز باسم الشوارع. الساحات أيضاً لفظت أنفاسها قبل أن تستدير حول نفسها لتحكم طوق الفرح الكامن في اللابداية واللانهاية، وإلاّ لما كانت في عرف الأجيال الأرجوحة التي يلتقي فيها الناس ليغنّوا ويرقصوا ويتبادلوا في رحابها السعادة. كيانٌ واحدٌ فقط استطاع أن يكسب المعركة مع الوقت ليستوي فوق !المرتفع بجلال: المعبد

ولكن خواء المكان ما لبث أن نال منه أيضاً، فيوحي بأنه مجرد ضريح مهيب يقف شاهداً حزيناً .على مقبرة مهجورة، وليس روحاً لمكانٍ يستدرج الناس ليمارسوا فيه الصلاة

حدث هذا الخراب لأن ظلفاً جنونياً مسموماً سحق عشبةً جنونيةً مسمومةً بعيداً في عقر دارها، فأمات فيها شريان الدم الذي يغذّيها. فهل يرضيه أن يكون القابلة التي أعانت الجنّ الذي يسكن الظلف فيفقد، في الصفقة، الحبّ، كي تقول القبائل إنه البطل الذي جلب الخلاص؟

«آغافون» قال إن المرأة كالطريدة التي لا ينالها من يترصّدها طويلاً، لأنها تفرّ لتكون من نصيب قنّاص آخر أكثر فطنة، ثم أضحكه مرّة أخرى عندما قارن المرأة بوجبة الطعام التي لا تحتمل البقاء فوق النار أطول مما ينبغي فتحترق، كما لا تحتمل أيضاً البقاء فوق النار أقلّ مما ينبغي !فتُفقد، لأنها لن تؤكل نيّئة

في هذه الأطلال الهامدة، المسكونة بسكون الصحراء، المغمورة في الأحاضيض بسيوف الرمال التي جلبتها الرياح الجنوبية المحمّلة بالغبار، منتصبةً كفزّاعة تستطلع الخلاء، تنقّل بالأمس القريب الجرم الذي استودعته الربّة «تانّيت» سرّها، فدبّ بين الناس مسكوناً بروحها، ليتحوّل زهرةً يانعةً في الصحراء حام حولها طويلاً، ولكنه لم يقتطفها. لم يقتطفها، لأنه لم يشأ أن يستبيحها. لم يشأ أن !يدنّسها. وما لم يخطر له على بال أنه سيفقدها إن لم يقتطفها. سيفقدها إن لم يدنّسها

ظلّ يحوم حولها طوال الزمن الذي استغرقته الحملة على العشبة المشؤومة في كل الشريط المتاخم للسواحل الذي عرف في أرضه هيمنة الجنيّة منذ الأزل قبل أن تغدو البلاء الذي جلب للأرض أعداءً.

لم يصدّق أن ما فعله يمكن أن يسبّب في صفوف القوم زلزالاً، تماماً كما لم يصدّق أن حملة الظلف يمكن أن تجدي نفعاً. ولكن ما لم يقرأ له حساباً حقّاً هو سرعة نفاذ المفعول. سرعة فرار القوم من المكان كأنّهم مطاردون من وباء، وليس من غياب عشبة الداء التي كانت لهم بالأمس فقط غنيمةً قادتهم للمقام في أبعد الأوطان. لم يدهشه الفرار وحده، ولكن أدهشه فرار الأخيار في ركاب الأشرار، خلافاً لنبوءة داهية المراعي. وهو ما باغته أكثر من كل شيء، لأنه حرمه المضي قدماً في وقفته في حرم الجمال. في خشعته في حرم الجمال. الجمال الذي ظنّ أنه سيبقى رهين الصحراء إلى الأبد، ولن يختفي منها ما ظلّ وفيّاً لعهد الفقد، خوفاً من بعبع الدنس. أليس الأمر برمّته صفقة؟ صفقة حقيقية حتى وإن كانت خفيّة؟ ألاَ يوجد امتنان للعفاف؟ ألا توجد للطُّهر مكافأة؟ أليس الزهد في امتلاك امرأة بهذه الخصال بطولةً جديرةً بالثمن؟ هل ترى الأقدار في الإبقاء على الجمال أسيراً في مجال البصر ضرباً من محال؟ بأيّ حقّ يكون المنع قدر مَن قنع بالقليل وارتضى لنفسه الحرمان صلاةً؟ أليس الامتناع قرباناً؟ ألاَ يكفي الاكتفاء بالمشاهدة قرباناً حتى يجد نفسه محروماً حتى من المشاهدة التي ظنّها من جناب القدر مجرد حسنة تُلقَى في كفّ متسوّل؟

ولكن.. لماذا يستجوب القدر، ويجادل ربة الأرباب، متجاهلاً فحوى الصفقة التي حُرم بموجبها من الحبّ، لا بسبب الزهد في امتلاك الوديعة المسكونة بروح المعبودة، ولكن بسبب المكوس التي استوجبها الانتصار لنداء معشوقة أخرى هي: الأرض؟

في تلك المرة طاف أرجاء الكيان المهجور. بعض الدور اكتمل للمقام، ولم يفتقد سوى بضع لمسات كالنوافذ أو الأبواب أو الطلاء بالجير الناصع. بل بعض الدور استضافت في جوفها سكّاناً بالفعل، وخلّفوا عند خروجهم بعض الحوائج كأواني الفخّار، وقدور الطّهي، ودمى الأطفال الملفّقة من الطين أو المنحوتة من الأخشاب، كأنّ أهل البيت خرجوا للنزهة، أو لارتياد السوق، أو لزيارة الجيران، ثمّ أصابهم في السبيل مصابٌ حال دون عودتهم إلى ديارهم!

الصغيرة «ثيرا» أيضاً أضاعت دميتها. «آغافون» قال إن نفوق الغزالة تزامن مع بدء الحملة على العشبة، كأنها في عرف القدر نقضٌ للعهد الذي وطّده مع الطفولة في رحلة العام الذي قاد فيه القوم إلى وطنهم الجديد، محاذراً أن يعبر في طريقه الأراضي الخصبة عملاً بوصية الزعيم.

«آغافون» أيضاً كان أول من كشف له عن نيّته في الانسحاب بسبب النكبة التي حلّت بمحصول السلفيوم في موسم ذلك العام. من «آغافون» عرف كم كان المستوطنون

يعوّلون في مجيئهم على ما سيجنونه من محاصيل السلفيوم، لا في المستوطنة فقط، ولكن في طوائف المهاجرين الذين استقرّوا في «قورينا» أيضاً، وفي مختلف المواقع على الساحل. ولهذا قرأ في النكبة لعنةً أخرى من لعنات الآلهة لاحقتهم هنا أيضاً، بعد أن طردتهم من «ثيرا»، ومن بقية الجزر المجاورة لها. وعندما استفهم عمّا سيفعله بانسحابه أجاب بأنه سيفتح حانوتاً في «قورينا» ليرتمي في أحضان مهنته القديمة: النجارة! وإذا لم يحالفه الحظّ فسيحاول أن يبيع الزعفران المستجلب من شقّ الوطن الغربي حيث يتكاثر هناك كما أفاده التجّار. فإن أخفق فليس له إلاّ أن يحمل متاعه ويعبر البحر في طريق العودة إلى الوطن الأم «ثيرا»، لأن الوباء إذا استفحل في أرض، فذاك نذير سوء، لأنه كالورم الخبيث سوف يستشري ليصيب الجميع. وهو ما من شأنه أن يقلّل فرص الكسب في كل الأنحاء.

في تلك المرة اجتنب سؤالاً لجوجاً اختنق في صدره، ولكن «آغافون» الذي خبر طبعه طوال رفقة تلك الأيام قرأ وساوسه فأفاد:

سيراس سترافقني أيضاً بالطبع! عليّ أن أفلح في أن أعثر لها على رجل مناسب برغم أن الحروب في «قورينا» أو في الجزر حصدت الرجال ولم تترك سوى الأرامل!

حدجه خلسةً، فاقتنص في مقلتيه بسمة ماكرة.

.داهية المراعي حدّثه، بعد عودته، عن غياب الأب

كانا قد استودعا القطيع قاع وادٍ واستجارا من حريق القيلولة بشجرة طلح انتصبت فوق المرتفع المطلّ على الوادي الذي يبدو من أعلى جرحاً شقّ استواء العراء إلى نصفين خانقين يهوي بينهما فجٌّ ضيّق، ولكنه عميق بما يكفي كي يستولي على نصيبٍ وفيرٍ من الغيوث الموسمية التي تفيض عن حاجة المرتفعات الأبعد منالاً، فيحتفظ بالبلل في الأحاضيض أمداً طويلاً، لتصير ملجأً تستجير .الأنعام بأعشابه السخيّة في الأصياف التي يتحوّل فيها كلأ الأعالي إلى يبيس بفعل الحريق

:هيمنت الظهيرة فحام حولهما الذباب فخاطب الجليس

ماذا يقول الابن في فَقْدِ أبٍ كان دوماً مفقوداً؟

:فأجاب الداهية

!الأب في عرفنا دوماً شبحٌ مفقود

.«لا أعرف لماذا يقال «ابنٌ ضالّ»، ولا يُقال «أبٌ ضالّ

هشّ الداهية عن وجهه ذبابة بحجمٍ منكر ثمّ تطلّع إلى امتداد الخلاء وهو يطفح بالغمر اللئيم :المنسوج من شعاع السراب

.تقول هذا لأنّك لم تغفر له فعلته التي صنعت منك رجلاً

:رمقه خلسةً قبل أن يحتجّ

.تركُ الابن رهينة لمحراث عبيد الأرض لا يصنع من الشقيّ رجلاً

:ولكن العجوز عاند بفورة حماس لم يعهدها فيه

هذا لو كان المحراث معلّقاً في عنق عبد الأرض، ولكن المحراث عندما يكون معلّقاً في رقبة سليل !الخلاء فسيصنع من الولد رجلاً، وفي بعض الأحيان بطلاً

!ظننت أن اليُتْم وحده هو ما يصنع منّا رجالاً

وما هو المحراث في عنق ابن الخلاء إن لم يكن اليُتم مجسّداً؟

نفثت الحجارة المجاورة ناراً فنزّ من الجسد العرق. تكاثر حولهما الذباب الذي لا يحطّ مخلوق
:رحاله في أكثر الصحاري قسوةً إلاّ وحطّ الذباب في ربعه ضيفاً

يهون يُتْم الأمّ التي لم أعرفها. يهون يُتْم المحراث الذي عرفته، ولكن ما لا يُطاق هو يُتْم أبٍ تعلم
!أنه ما زال قيد الحياة، ولكنه في دنياك مفقود

:الداهية لم يستسلم

.الأب دوماً شبحٌ مفقود

:سكت. طارد السراب المتدفّق في الخلاء، ثم أضاف

!بالأبوّة كلّنا يتامَى

:أطلق أنيناً مكتوماً قبل أن يقول بلهجة يقين مجبولٍ بنبرة حزن

مَن منّا المحظوظ الذي يستطيع أن يقول إنه استمتع في طفولته بوجود الأب؟

توسّد ذراعه وهجع بالجوار. تطلّع إلى أعراف الشجرة الوحيدة التي تتحدّى القيظ فتحتفظ بالنضارة
:حتى لو هيمن الجدب إلى الأبد. همهم

في حضرة الأمّ فقط نحن أطفال. أمّا في حضرة الأب فنحن دوماً غرباء! هل لأننا لا نرى الآباء إلاّ لماماً؟ كلاّ! السرّ ليس في غياب الآباء، لأن الأب يبدو لنا غائباً رغم حضوره بيننا. هو مفقود على نحوٍ مّا بالنسبة لنا. ربما لهذا السبب نرى الآباء أجلاّء! نرى الآباء أرباباً. نحبّ الأمّهات، ولكننا
!نعبد الآباء

توضّح سيماء الشيخ المسكونة بالسكينة، وبإيماءٍ أعظم شأناً من السكينة؛ لأنه كان نقطة ضعفه دائماً دون أن يدري: الطفولة! ربّما لأن الطفولة في حياته هي الحلقة الضائعة، ولم تأسره «ثيرا» على ذلك النحو الخفيّ إلاّ لهذا السبب. فأين هي صغيرته «ثيرا» الآن يا ترى؟ ولماذا حرمه الأب من جنان الطفولة، لتتولّى أمره الصحراء التي لا تعترف بالطفولة، لأن عملها ليس أن تهدهد

طفولةً في الأطفال، ولكن أن تقسو على الأطفال لتربّي فيهم الرجولة، لكي يكفّوا مبكّراً عن أن يظلّوا أطفالاً؟

يستطيع أن يعترف أن خواءً عميقاً سكنه ما أن تلقّى غياب الإنسان الذي كاد ينسى له وجوداً في الصحراء، وها هو النزيف يتدفّق في الأعماق في اللحظة التي علا فيها صوت الداهية بوضوح كأنّ الصوت يتكلّم فيه لا في لسان الحكيم:

تستطيع أن تنكر الأب ما شئت، ولكنّك لا تملك إلاّ أن تعترف بأنّك لم تفقد اليوم أباً، ولكنّك فقدتَ معبوداً!

في مطلع الخريف أحكم السرج على جواده ووقف في حضرة الداهية قائلاً إنه قرر الرحيل لقضاء بعض الحوائج. كان يعاند بعض الحبال فاستفهم دون أن يشيّع نحوه بصراً:

لقضاء بعض الحوائج، أم لارتياد الأطلال مرة أخرى؟

لم يحدّث العجوز عن سيرة الأطلال أبداً، وبرغم ذلك لم يدهشه أن يكتشف سرّه لأنه كان قد أدرك من قديم أن الداهية لا يُخفَى عليه شيء وإلاّ لما كان داهية:

لزيارة الزعيم.

عاند شِباك حباله بيديه النحيلتين كأنهما أعواد حطب، ثم خاطبه دون أن يتوقف عن عمله:

ماذا يمكن أن يريده منك الزعيم بعد أن نال على يديك ما لم يخطر له على بال؟

أنت أعلم بأن الزعماء لا يقنعون بشيء حتى لو جُدْنا بين أيديهم بأنفسنا!

ليس على إيدكران أن يجهل كيف فعلتَ بهذا (نقر بسبابته صدغه الأشيب) ما أعجزه أن يفعله هو بسواعد الرجال في حربين متتاليتين.

ابتسم له وهمّ بالوثوب في جوف السرج، ولكن الداهية استوقفه:

أفضل ما يفعله من أجلك اعترافاً بالإحسان هو أن يهدي لك ابنته، لأن الأوان قد حان منذ زمن كي تُدخِل إلى خبائك امرأةً حقيقية، لا دميةً مزوّقةً بالمراهم كالنساء في مستوطنات الأغراب!

حدّق فيه بفضول، ولكن العجوز تجاهله. ابتسم قبل أن يستفهم:

وهل نزلت مستوطنة أغراب يوماً؟

نزلتُ المستوطنات مراراً.

تردّد قبل أن يسأل:

ولكن لماذا ترى في ابنة الأرض وحدها حقيقية، في حين تصف نساء الغُرباء بالدُّمَى؟

يبلّل راحتيه بالماء ثم انهمك يفتل طرف حبل الليف الذي تصرّم قبل أن يجيب

لأن وجوه بنات الأغراب تلمع، والناموس يحذّرنا من كل الأجرام التي تلمع إذا سطعت فيها الشمس!

حدجه خفيةً لأول مرة قبل أن يضيف:

لأن اللمعان في الجرم دليلٌ على خواء الفحوى!

ظلّ يتفحّصه باسماً إلى أن فرغ من عمله أخيراً لينتصب في وجهه واقفاً. نظر في عينيه عميقاً قبل أن يفصح:

لستَ في حاجة لأن أذكّرك بأن البلهاء وحدهم يستهويهم البريق. أمّا أمثالك فليس لهم إلاّ أن يلتفتوا إلى الفحوى، ويكفّوا عن ارتياد الأطلال، لأن الأطلال، كما تعلم، بيوت الأشباح!

انحنى ليتناول دلواً جفّ فيه الجلد فتغضّن بشدّة. حاول أن يُدخل في فتحة العروة حبل المسد الذي انتهى منه منذ قليل، ولكنه أخفق، في حين خاطبه بسؤال:

ومَن نحن إن لم نكن في هذه الصحراء أشباحاً؟ ألا يقال إن أسلافنا كثيراً ما استسلموا لإغواء حسان الجنّ فأنجبوا من أرحامهنّ ذريّةً؟

غمغم الشيخ وهو ما زال يعاند مستلزمات استخراج المياه من الآبار:

أرضٌ مسكونة، وسلالةُ أرضٍ مسكونة، فكيف تستنكرون أن تُنبت الأرض ثماراً مسكونة؟

ماذا تريد أن تقول؟

انتصب مرة أخرى ممسكاً بطرف الحبل الذي تدلّى من يديه كثعبان:

أردت أن أقول إن الأرض تريد أن يسكنها أناسٌ لا أشباح، وإلاّ لن تكون أرضاً. وما «آسيار» اللعين سوى حيلة لاستدراج الأمم إلى أحضانها، فاحترس!

:تضاحك في وجهه قبل أن يحتجّ

ولماذا عليّ أن أحترس؟

:تطلّع إليه الداهية بفضول، ثم توعّده بسبابته المعقوفة كمنقر الصقر

!عليك أن تحترس لأنك أفسدت على الأرض مكيدتها. والدخول مع الأرض في خصامٍ أمرٌ جلل

:لم يملك إلاّ أن يطلق في وجهه دعابة

!ولكني لم أفعل إلاّ ما أَوْحَى لي به هذا الشيخ المهيب الذي يواجهني الآن

:تضاحك لحظات، ولكن الداهية لم يستسلم

!الأرض لا تُعادي مَن أَوحَى، ولكنها تنتقم ممّن فعل

!كأنّي بك تناصر الأرض في سعيها لاستجلاب الأغراب بصنوف الطعوم

ولماذا لا يحقّ للأرض أن تستجلب الأمم لتسكنها إذا كنا نعترف بأننا في رحابها مجرد أشباح؟

:ابتسم. جادل متخابثاً

!كأنّي بك تتحسّر على فناء العشبة الجنونية طمعاً في نيل الغنيمة المزعومة

:فاستنكر الداهية

الغنيمة المزعومة؟

:حدجه بنظرة ذات معنى قبل أن يوضح

!الخلود

:توقف العجوز عن معاندة حوائجه فجأة. حدّق فيه بدهشة قبل أن يستفهم

!إمّا أن تكون هازلاً، وإمّا أن يكون قد خذلك سوء الظنّ بي

:ابتسم في وجهه كالمعتذر، ولكن الداهية لم يغتفر الزلّة

لم نكن لنتحوّل في الصحراء أشباحاً لولا زهدنا في الخلود، وهو ما تنكره علينا الأرض، لأن الأرض تريد أن تحتضن أناساً تستطيع أن تحيا بحياتهم فيها، لا أن تُؤوي أشباحاً لا يستحون أن يتغنّوا في ربوعها بسيرة «ميدّبياغز» التي تنعي فيها كل شيء؛ لأن ما نراه زهداً نتباهى به، تراه !الأرض حداداً لا تستطيع أن تعترف به

تطلّع نحوه زمناً، ثم انحنى ليعاند حوائجه قبل أن يدمدم في صدره ذلك اللحن الموجع من أنساق «أساهاغ» (أساهو) لأنه اللحن الوحيد من بين سابوع اللحون الذي يترجم فجيعةً لا تطاق: فجيعة نزيف الروح، في إنسانٍ وحيد، يعاني اغتراباً وجيعاً، كثيراً ما انتزع من قلوب الممسوسين أنفاس .النزع الأخير

في إحدى زياراته الأخيرة لواحة الأطلال اكتشف وجود مقبرة في المستوطنة الزائلة. ففي الزيارات الأولى اكتفى بارتياد ساحة السوق حيث طاب له أن يقضي ليلته عندما داهمه المغيب. السوق.. تلك الساحة الرحيبة، المطوّقة من جهتَي الشمال والشرق، بالأبنية، ولكنها ظلّت طليقةً في جانبيها الجنوبي والغربي، لتتواصل في الخلاء المندفع بلا حدود، كأنها تستدرج بهذه الصلة القوافل التي تلفظها الصحراء، من حينٍ لآخر، كي تغذّي هذا الشَّرَك، المسمّى سوقاً، بذخائر السلع، المستجلبة من أبعد الأوطان. في هذه الأحضان الشرهة لاحتواء أغرب المقتنيات، شاهد كيف تحوّل الناس أيضاً إلى سلع تباع وتُشترَى معروضةً، ككلّ بضاعة أخرى، على مصاطب خشبية، شُيّدت في الجانب الشمالي، الملاصق للسور، خصّيصاً لهذا الغرض، ليأتي التجّار ليعرضوا عليها مفاتن الإماء، ومزايا العبيد، في مراسم تتضارب فيها الأصوات، بالأسعار. كم تعجّب لرؤية صنوف الأشياء التي لم يخطر له وجودها يوماً على بال، ولم يجد حرجاً في أن يسائل الباعة عن وظائف مثل هذه الحوائج، إلى حدٍّ شكّكه في انتمائه إلى هذه الأرض التي يحيا فيها أناسٌ يحتاجون إلى استخدام مثل هذه الأشياء، لينتهي إلى يقينٍ يقول إن روح هذا الكيان المشبوه ليس المعبد كما تخيّل دوماً ولكنه هذه الحلقة، المطوّقة بسرّ الدائرة، التي تتقاطع فيها أجناس الأمم من كل الأركان، لتتبادل الأحلام، وآخر الأنباء، إلى جانب أندر السلع، التي لم يخطئ مَن اخترع لها اسم: السوق !الدّال في رطانة القوم، على: العشّ

فليس عسيراً عليه أن يكتشف مع الأيام أن زحام هذه الأبنية التي تلفّق كيان هذا العمران، إنما جرى عجنها من مقتنيات هذا العشّ السحري لتسري في عروق الجدران، وفي بطون الدور، سريان الدّم في البدن، على نحوٍ يدلّ على حقيقتها كروحٍ لكامل الكيان المسمّى: مستوطنة. فأين موقع المعبد من هذه السطوة الجنونية؟

ليس عبثاً أن يقوم بنيان المعبد جانباً، في المرتفع الواقع خارج السور، المؤدّي إلى الخلاء، كأنه منذور للمنفى، بالمقارنة مع وكر المحافل (السوق) الواقع في جوف السور، بحجّة استعصاء المعبد عن عبث الأعداء بوصفه الحرم الذي يُستجار به عادةً، في حين يرى العُرف في احتلال السوق .شؤماً ينذر بهلاك كيان العمران كلّه

كلاّ، كلاّ! السوق هو روح الكيان العمراني، أمّا المعابد فروح الصحاري، بدليل أنه لم يحدث أن عدم وجود مثل هذه الصروح المكابرة، المطليّة في أغلب الأحيان بالبياض، في كل ربوع الصحاري، ليطلقوا عليها اسم الأضرحة أحياناً، تنتشر في البراري كعلامات بارزة يهتدي بفضلها .السابلة إذا ضلّوا

فالضريح كان في سيرة القبائل الوتد الذي ركن إليه القوم بعد احترافهم للسفر الأبدي، كما حدّثه داهية الناموس يوم لقّنه حرف الناموس، ليغدو هذا

الصرح الجليل نواة أول واحة في دنيا أمّة الرحيل في مرحلة تالية. الداهية روى له كيف هجع الزعيم العظيم في أحد الأيام، فأقام له القوم ضريحاً مهيباً ظلّوا يرتادونه طويلاً كي يستلهموا منه النبوءات كلّما حاق بهم بلاء. ومع توالي الأيام استمرأوا إلى جواره المقام، فابتنوا بيوتاً لتكون تلك البيوت نواة واحة «واو» التي سطع صيتها في الأوطان، لأنها ما لبثت أن صارت الأعجوبة التي استجارت بها الأمم لتغدو لها وطناً بديلاً عن أوطانٍ لم يقدّر لها أن توجد بعد، لأن الرحيل كان آنذاك أرجوحة في حياة الأمم، والدّيانة منارة في حياة الإنسان. انتعشت «واو» وتنامت إلى أن جاء اليوم الذي اكتشف فيه السحرة الذين امتهنوا صهر الحديد معدن النحوس، المسمّى أورغ (أورو)، فسكّوه في قطعٍ لئيمةٍ ما لبث أن تداولها التجّار كعملة في صفقاتهم المنكرة، ليعلن مردة الجنّ الحرب على «واو» بسبب خيانة العهد المبرم مع القوم منذ الأزل والقاضي بإبقاء معدن الفضّة رهن قوم هم على الصحراء أضياف بموجب العهد، في حين حرّم عليهم امتلاك معدن الذهب، لأنه وقفٌ على أهل الخفاء وحدهم. وهكذا سلّط دهاة الجنّ على أهل الواحة المجيدة عاصفة مثقلةً بذرّات الغبار استغرقت أجيالاً. ولم تتوقّف إلاّ بعد أن مسحت كيان الواحة المنكوبة من الصحراء، ودفنت كل أثرٍ لها، بعيداً، في جوف المتاهة الرهيبة التي عُرفت في رطانات الأمم تالياً باسم: بحر الرمال العظيم.

انتهى به المطاف لأن يحتمي بالضريح. لأن ما اعتاد أن يطلق عليه أغراب المستوطنة معبداً، ليس «في ناموس القبائل سوى ضريح مسكون بروح المعبود، أو بالأصحّ، بروح المعبودة «تانّيت.

ففي طوال الأشهر الأولى من لجوئه إلى حرم الطلول ظلّوا يحومون حوله بحذر. كان يسمعهم في الأمسيات يهمهمون بأصوات مسموعة، ولكنها مبهمة في الفحوى كعادتهم في المرّات التي تسنّى له أن يخالطهم في الصحاري الجنوبية. أصوات تقترب حيناً حتى يكاد يميّز ما يقال، ثم تبتعد حتى تخرس تماماً. في إحدى الليالي أسمعوه غناءً أيضاً. أغنية شجنيّة لم يسمع لها مثيلاً حتى من حنجرة الشاعرة الخرافية التي لقّنته السحر يوماً، فنزف القلب وَجْداً، وسفحت المقلة دمعاً، ولكن الإنشاد انقطع فجأة. في المرّات التالية لم يستحوا أن ينزلوا على مائدته أضيافاً. كان في تلك الليلة قد أوقد ناراً في الساحة التي كانت في عهد المستوطنين وكراً لتبادل السلع والكيد وكل شأن مستحدث، ولكنها أضحت فراغاً ممزّقاً بالسيوف الرملية، تسرح في أرجائه الحشرات والزواحف وكرات يبيس العشب المتدحرج بفعل الرياح الجنوبية في كتل كروية. عجن دقيقاً ودسّه في أحشاء النار لينضج ببطء في الرمضاء المتخلّفة عن الجمر. تسلّى بمشاهدة النجوم، وترنّم ببعض اللحون، حتى طلع من وراء الأفق القمر، فوقفوا فوق رأسه بقاماتهم المديدة، ووجوههم الوقورة، ومسلكهم المكابر، فحيّاهم ودعاهم للجلوس ومشاركته الطعوم. كانوا ثلاثة، بأجرامٍ نحيلة، وقامات متساوية، ووجوه واجمة، وطبعٍ صموت، مثلهم في ذلك مثل كل المخلوقات الصحراوية التي تبدو أطيافاً متشابهة. سألهم عن أحوال الأرض التي أقبلوا منها، سواء فيما تعلّق بالغيوث، أو الجدب، أو الأوبئة، أو الغزوات المعادية، فأجاب أحدهم، بالإنابة عن رفيقيه، برطانة أهل المكان، بيقين النبلاء، ووقار أكابر لا يخشون شيئاً كما يخشون الزلل في اللسان، لأن الزلل في اللسان، في عرف الأجيال، وصمة عار. استخرج الرغيف من بطن النار الخامدة، ثم كسره إلى قطع، قبل أن يطرحه أمام الأضياف على طبق محبوك من السعف عثر عليه في مدخل إحدى الدور المهجورة. لاحظ كيف تبادلوا نظرات خفية قبل أن يمدّوا أياديهم النحيلة، الموسّمة بالعروق، ليلتقطوا قطع الرغيف. تبادلوا النظرات المشبوهة مرة أخرى قبل أن تومض وجوههم بإيماءٍ كالحياء. أغمضوا ثم التقموا وشرعوا يمضغون ببطءٍ شديد كأنهم يستطعمون طعوماً أكثر مما يمضغون خبزاً. لحظتها فقط اكتشف الشبه المذهل بينهم كأنهم توائم، بل شبه لم يعرفه حتى في التوائم. مضغوا طويلاً ثم توقّفوا. توقّفوا عن المضغ في آنٍ معاً، وعندما حثّهم اعتذروا بإيماءة تقول إنهم استكفوا.

لاذوا بالصمت لحظات ثم هبّوا لينصرفوا. وقف ليشيّعهم فانحنى أحدهم على أذنه وهمس بوضوح:

الملح!

حاول أن يستفهم عن معنى هذه الأحجية، ولكنهم كانوا قد تبخّروا. تبخّروا فجأة كما تبدّوا فجأة. فكّر في مدلول كلمة «ملح» التي نطق بها أحدهم، وعمّا إذا كانت كلمة سرّ لفتح المغاليق المستحكمة، بلا جدوى!

ولكن الإلهام لم يتنزّل إلاّ في اللحظة التي هجع فيها لينام. فما لم يشكّ فيه طوال الوقت هو حقيقة الأضياف كأضياف. أضيافٌ من لحمٍ ودم وأقبلوا ككل العابرين الأبديّين الذين يجوبون الصحراء منذ الأزل دون أن يخطئ أحد في حقّهم فينطق في وجوههم بالسؤال المحرّم: «مَن أنت؟»، لأن لا فرق في ناموسهم بين روح تتقمّص جرماً، أو جرم يستعير روحاً، لا فرق بين إنسيٍّ يبدو جنّياً، وبين جنيٍّ يبدو إنسيّاً، لأن في الصحراء يتداخلون؛ يتداخلون، لأنهم من قديم يتناسلون. والعلاقة مع سحرٍ اسمه الملح وحده يفرّق بينهم. الملح في قوت سليل الإنس بلسم، ولكن الملح في طعوم الجنّ سمّ! هذا ما أوصى به السلف ليكون تميمةً في مذهب الخلف منذ الأزل. ولم يكن له أن ينسى الوصيّة لو لم يسترخِ. الاسترخاء خطيئة أرذل من العار، لأنها زغرودة تبشّر بحلول النسيان.

في اليوم التالي كان قد امتطى جواده ورحل إلى أرباع القطيع. من هناك استقطع جليباً سافر به ليبيعه في أسواق «أوجلة» مقابل بضعة مسكوكات ذهبية متوّجة بشبح الملك أركسيلاي، الذي لم يبخل عليه رعاياه بلقب «السعيد» مكافأةً له على استغلاله لنبات السلفيوم الذي جلب لهم السعادة.

بهذا الكنز يمّم صوب الشمال، صوب الشمال الأبعد منالاً، دون أن ينسى أن يعرّج في طريقه على الطلول، ليتلو في حرمها مناجاته التي تحوّلت مع الأيام صلاةً.

وصل المستوطنة الفانية قبيل المغيب. تجوّل في الأزقّة الخالية كما اعتاد أن يفعل طوال زياراته السالفة، إلى أن انتهى به المطاف في فوهة الهاوية التي احتفرها دهاة الأغراب لتكون مستودعاً يغذّي المستوطنة بحاجتها من المياه. هناك سقى الجواد، وملأ قربته، وانتحى جانباً ليقضي ليلته. استخرج من جرابه لحوماً مجفّفة في اللحظات التي سقط فيها على رأسه أوّل حجر. التقط الحجر ليتوضّحه في العتمة، فانهالت عليه الأحجار. فزّ واقفاً ليطوف المكان بحثاً عن العدوّ الجبان الذي يترصّده بالحجارة من وراء حجاب، ولكن عبثاً. حاول أن يحتمي بالجدار، ولكن وابل الحجارة لاحقه كأنّ الخصم يسقطها من موقعٍ مّا في الأعالي، في السماء. ركض نحو دارٍ مجاورة انتزعت الرياح بابها، ليقفز في جوفها، بوثبةٍ. ولكن جوف الدار لم يجلب له الخلاص، لأن وابل الحجارة ما لبث أن تواصل هنا أيضاً. تحسّس وجهه فوجده مزروعاً بالكدمات. استعاذ من شرور الخافية بتميمة مجهولة الفحوى ومريبة الرطانة، لقّنها له داهية الناموس يوماً، وعندما استفهم عن اللسان قال له إنها منطوقة بلغة الجنّ، لقّنها أحد دهاتهم لسلفٍ من جنس الإنس أحسن لهم مرّةً وحذّره أن يبوح بسرّها لأحد خشية انتقام عتاتهم.

أعاد التميمة مرات، فتوقّف الوابل لحظات. انتهز الفرصة ففرّ نحو الجواد. في اللحظة التي أدرك فيها الجواد استأنف الخصم الرجم من جديد. امتطى الجواد وانطلق في العتمة عبر الفسحة التي كانت يوماً حضناً للكيد واللغو وتبادل السلع واقتناء محظيّات يتنكّرن في أجرام الإماء. ظلّ مطر الحجارة ينهال وفيراً طوال المسافة التي أفضت إلى البريّة، ليعرّج في الخارج شمالاً مستجيباً لوحيٍ طارئ قاده إلى بنيان المعبد، مستعيداً سيرة السعلاة التي لاحقته بمخالبها يوماً، ولم يكن لينجو من شرّها لو لم يستجر بضريح السلف المهيب، لأن الضريح في عرف الناموس ليس سوى المعبد الذي تشبّث بتلابيبه الواجلون، ليكون مع الأيام النواة التي أوجدت واحة الخلود: «واو» الضائعة.

داخل المعبد تساءل مراراً عن الخطيئة التي اقترفها في حقّهم حتّى شنّوا عليه الحرب، لأن الغدر لم يكن يوماً من شيمهم، ولا يخونون العهد إلاّ عقاباً على خيانة عهد!

قبع في ركن المعبد الملفوف بالظلمات، يتحسّس الكدمات في وجهه وأطرافه مستميتاً في استنطاق الذاكرة، ولكن الشرر لم يومض إلاّ في اللحظة التي سقطت من جيبه قطعة النقد الذهبية!

تذكّر حفنة العملات المسكوكة من المعدن الذي حرّمه عليه العهد المبرم بين السلفين القديمين، فاقتناه في غفلةٍ من أمره، لأن ما الهوى إن لم يكن المارد اللئيم الذي لا يعدم أن يختلس حتى الروح، فكيف بالعهد؟

..قورينا

قورينا التي دخلها في ذلك اليوم لم تكن كيان عمران، ولكن قورينا التي شهدها كانت شعراً مجسّداً في بنيان. كانت لحناً شجنيّاً مسبوكاً في الصلد، فيتغنّى به الحجر. آغافون الذي طاف به الأركان :حدّثه عن قورينا، فقال

كل شعبٍ يحمل في قلبه «واوه الضائعة» أينما ذهب، فإذا حطّت به الرحال يوماً، وطاب له المقام في أرض، وسوس وجاس ولم يهدأ له بال حتّى ينفث شجونه بوضع حجر الأساس لمعبودته الفانية، أملاً في أن يستعيدها. ألا تهيمون في الأرض وأنتم تتغنّون باليوم الذي ستستعيدون فيه «واو» التي تسكنكم؟ نحن أيضاً أقبلنا مثقلين بحلمنا الذي أضعناه. مثقلين بـــ «ثيرا» المنسيّة، بـــ «أطلانطس» المفقودة، وعملنا كل ما بالوسع كي نختطّ في الأرض الحلم الذي يسكننا، لأن الإنسان لا يهنأ بالاً بطبعه ما لم يجسّد حلمه الضائع بصمةً يشهد بها الحجر، يشهد بها الأثر، لأنها شهادة إثبات نرميها في وجه الزمن، ذلك البعبع المستهتر الذي لا يعترف بوجودنا على الأرض إلاّ كظلال، إلاّ كأشباح، والأثر المبثوث في الحجر وحده شفيع، وحده التحدّي، وحده الشوكة الموجعة .في حدقة الزمن

قورينا حقّاً أغنية حنين منحوتة في الصلد. منحوتة في أعلى جبل، لتتسلّق السفح كلّه، من قدم الحضيض، حتى الشعفة العليا، مروراً بخاصرةٍ مكابرةٍ، عنيدةٍ، ورحيبة، تتلبّسها الأبنية المحفورة في الصلد، متماهية مع غيران الأوائل، ومدافن الأجيال التي ارتحلت قبل حلول المستوطنين، فتتقاطع في أضرحةٍ مهيبةٍ، مع أبنيةٍ فخيمةٍ، ملفّقةٍ من جلاميد مرمريةٍ مهولةٍ في الحجم، ومدهشةٍ في السطوة، كأنها مستعارة من أبعاد خرافية لا وجود لها في طبيعة المكان، ولكن قوّة خارقة، تسكن بُعداً خارج المكان، استنزلتها تلبيةً لنداءٍ جسيم، لتضعها في متناول الملهوفين بالمجّان، فينتصب معبد «زيوس» الرهيب على ذروة الجبل كأنه دليل امتنانٍ على الهبة. أمّا الهاوية التي تتبدّى لمن اعتلى القمّة فتنتهي في الأسافل النائية، فسحةً بلا نهاية، ملفوفةً بزرقةٍ عميقةٍ كأنها، في .امتدادها الأليم، صحراء، ولكن بمسوحٍ زرقاء

:آغافون صوّب سبّابته إلى المعبد البعيد، الهاجع في الأسافل، ليدلي بشهادة

هل رأيت الشطآن هناك؟ إنه المرفأ حيث تتبعثر السفن. أحتاج إلى يومٍ كامل كي أجلب حاجة الحانوت من الأخشاب، لأني سأحتاج في كل مرة إلى عبور بوابة «أبولونيا» لدخول الميناء. ألاَ ترى كيف يبدو مسرح «أبولونيا» هنا خياليّاً كأنه سقط فجأة من السماء؟

آغافون أفاد في مرافعته أيضاً أن مسرح «أبولونيا» (تلك المستوطنة الفاتنة التي تتوسّد كاحل الساحل) هو المفخرة التي تتباهى بها المستوطنة، لأنه التحفة الوحيدة التي تستطيع أن تنافس مسرح قورينا المتشبّث بأعطاف

السفح الجبلي الغربي، فيبدو للمشاهد كياناً أسطورياً مذهلاً، مشيّداً في الهواء، شديد الشبه بطائرٍ خرافيّ يرفرف بجناحين، تأهّباً لاختراق الفضاء. سعى إلى جانب الرجل مأخوذاً. بل سار مأخوذاً منذ طرق بوّابة المدينة طريداً من محفل الأطلال، مستجيراً بالحصن الذي آوى يوماً الأعجوبة التي خلّفت وراءها الظلال التي نفثت فيها الصحراء من روح عزلتها فانقلبت أشباحاً شقيّةً تدبّ على الأقدام.

!لقد خلّف وراءه الظلّ، وأقبل طلباً للأصل: سيراس

وكي يداري الحياء الذي كان في مسلكه دوماً طبعاً حتى غدا سبباً للخيبة تلو الخيبة، استجار بتلابيب الحلم ما أن وقف في حضرتها. قال لها إنه وقف ليودّع الصغيرة «ثيرا» في المنام قائلاً إن عليها أن تنتظره، لأنه سوف يعود إليها عندما تصير صبيّة ليبني بها بيتاً..

اختنق بغصّة، ومات القول في عضلة اللسان، وهو يترصّد السيماء في وجهها خلسةً، ولم يستعد أنفاسه إلاّ لحظة لاحظ في عينيها إيماءً كالفضول، فاستطلع الوضع في حرف سؤال:

فهل تدرين بماذا أجابت؟

فاض الفضول في المقلتين الموجعتين، فمضى:

!قالت إنها لن تستطيع أن تشاركني البيت الموعود لأنّي تركت قلبي في عهدة امرأة أخرى

فاستفهمت لأول مرة:

هل قالت ذلك حقاً؟

فتمتم:

!في المنام

في سيمائها سرت بسمة غامضة. حدّقت في مقلتيه عميقاً قبل أن تعلن:

سيدهشك ألاّ تجد في «ثيرا» الطفلة التي تتوقّع، لأن شموسكم تعجّل إنضاج الصبايا، كما تُعجّل إنضاج الثمار؛ بالمقابل تعجّل بهرم أمّهات الصبايا، كما تعجّل الإطاحة بالثمار التي اكتمل نضجها وآلت للسقوط!

..قورينا

عنقود الثريّا، المعلّق في أرجوحة تتأرجح بين سماءٍ تتهلهل فيها الغيوم بثقوب تنفَذ منها سهام معبود الأوائل، المجلّل بسيور الشعاع المبلّل بماء الذهب، ليستنزل أنفاس الدفء على حضيض يابسةٍ موسّمةٍ في رطانة أهل المكان الملقّب بـــ «قور» الذي استعارت منه الثريّا اسمها، برهاناً على تساميها عن الحضيض، وتحلّيها بخصال الأجرام السماوية التي لا تعترف بالضِّعَة هويةً لوجودٍ قيد يابسة لم تكن لتغدو يبوسةً لو لم تتمرّد على قيعان اليمّ العظيم قبل الميلاد من بطن .الغمر

ففي بقعةٍ مّا من السفح الموشّى بالنّقش الحميم في جلاميد الصّلد، تفجّر نبعٌ سخيٌّ يتدفّق من أعلى بفيوضٍ كالجوهر ليشكّك في وصايا خدعونا بها يوم قالوا أن لا وجود لشيء بلا ثمن، في حين تغنّت كل حبّة جوهر، في كلّ دفقة يلفظها النبع، المنطلق كالبشارة من صدر الصّلد، بوصيّة أخرى لم تتردّد في أن تردّد: «أثمن الأشياء ليست الأشياء التي ننالها بأغلى ثمن، ولكن الأشياء التي ننالها بلا ثمن: الماء! الماء في ترنيمة الثالوث تاج، ثمّ يأتي الهواء! ثم يليه الضياء!».

منذ يومين طرق بوّابة «قور» الخشبية، المشفوعة بالأحفورة الذهبية التي تجسّم النبتة الخرافية، مطارداً من سدنة الطلول الخاوية، مدجّجاً بالمسكوكات الملكية التي كانت سبباً في استفزاز أهل .الخفاء

طاف السوق بحثاً عن حانوت نجّارٍ باسم «آغافون الثيري» قبل أن يعترض سبيله رجلٌ نحيلٌ ليأخذه من يده إلى الحانوت فيكتشف تالياً أنه ضرير! ضلّله كل السابلة، ولكن الضرير هداه إلى السبيل. مخلوقٌ أعمى يقود مخلوقاً رئيّاً إلى المجهول! أيّهما الرئيّ في عرف الناموس؟ أم أن في دنيا العمران كل شيء معكوس بما في ذلك وصايا الناموس؟ وها هو الآن يقف مبهوراً، يناشد النبع، المنبثق من صدر الصّلد، فيقف فوق رأسه شبح آغافون ليتغنّى:

حقّ لك أن تناجي الغنيمة الوحيدة التي افتقدناها طوال مقامنا في صحرائكم: ماءٌ نقيٌّ كدمعةِ طفل، .يتدفّق كنزيفٍ من قلب الحجر، ليجتاح السفح

:راقته الاستعارة فترنّم

!الماء نزيف الحجر! حقّ لكم أن تتباهوا بحجرٍ ينزف ماءً، ثمّ لا يكتفي فيصنع لكم من جرمه شِعْراً

سَطَع ضياء شمس الصبح في القطرات المتناثرة في سخاء لتبدو في الضوء حفنة وفيرة من الجوهر، فينال نصيباً سخيّاً من الهبة، مع كل فورة تندفع من الفوهة، إلى أن عاد آغافون يتغنّى:

في «ثيرا» أيضاً ينزف من الجبل نبع. كنت في الطفولة أرافق الأقران إلى

هناك لنتراشق بالماء. وأكثر ما حيّرني آنذاك هو لون الماء!

انحنى على السلسبيل. دسّ يده في الغمر النقيّ. تمتم:

ماذا يقول كهنتكم عن لون الماء؟

جلس بجواره على حجرٍ ثم أضاف:

هل يقال إنه بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة كما يدّعي دهاتنا؟

حدّق في الماء. غاب في الماء. غاب بعيداً قبل أن يلتقط الإجابة من لسان الماء:

بلى! للماء لون، للماء طعم، للماء رائحة: الضوء لون الماء! الهواء رائحة الماء! الأرض طعم الماء! فهل يقتنع دُهاتكم بمنطق الماء؟

عاد آغافون يداعب الغمر المسفوح على الصلد، ليحتفر فيه بعناده البطولي، مجرىً أملسَ، وشفّافاً، يتعرّى فيه القاع من فرط النقاء. قال آغافون:

هيهات أن يقتنع دهاتنا بمنطق الماء، لأنهم اغتربوا عن منطق الماء منذ افتتنوا بمنطقهم هم وأنكروا وجود الأمّ المعجونة من ماء، والمسكونة بالماء، برغم أنها تطوّقهم، ولا تتردّد أيضاً في أن تحتضنهم.

تأمّله بفضول حتى أنه لم يستحِ أن يعبّر له عن امتنانه.

لا تتخيّل كم يسعدني أن أسمع إنساناً يتغنّى بحبّ الماء!

في بسمة آغافون تجلّى إيماءٌ كالسعادة:

لا يجب أن تنسى أنّي ابن الماء!

:فترنّم كأنه يستجيب لنداء

عظيمٌ أن يجمع بيننا معشوقٌ اسمه الماء: أعشق الماء، لأنّي في صحرائي افتقدت وجود الماء،
!وتعشق أنت الماء، لأنّك ابن الماء

انطلقا في طريقهما إلى الأسفل. سلكا درباً مدرّجاً بحجارة مشذّبة بعناية، كبيرة الحجم، مستطيلة التشكيل، تحاذي مسيرة الماء، السارح في جدوله الصخري المنيع، مثرثراً بمعزوفته الشهيّة، طوال المسافة الملتوية، المنطلقة من الجرح الفاجع الذي يسكن حجر الشعفة، فيفزّ النزيف المميت الذي يتدفّق لكي يُحيي؛ حتى أنه لا يتردّد في أن ينقشع، وينقطع، إذا عدم وجود ما يُحيي؛ إلى أن وجّه للرفيق سؤالاً دون أن يتخيّل قدرة السؤال، مجرّد السؤال، على الإطاحة بالحلم الذي حوّلته أنشودة :الماء جرماً يدبّ على قدمين، لتعود البلبلة فتهيمن من جديد

!ظننتُ أن أمر الحطام قد استقام

:تغضّن جبين آغافون قبل أن يوضح

أمر النجارة استقام في البداية، ولكن الأيام ما لبثت أن عبست في وجهي تالياً، لأن ما حاجة الناس إلى أبواب البيوت، أو نوافذ الدور، إذا خلت

الساحات من الأبنية؟

ولماذا تخلو الساحات من الأبنية؟

:رمقه بنظرة ماكرة قبل أن يجيب

لا بدّ أن تخلو الساحات من الأبنية عندما يُعدم وجود دخل لأولئك الذين يسكنون الأبنية.
المستوطنات كلّها اختنقت، وأفواج المهاجرين بدأت تبحر عكس التيّار كما سترى غداً عندما سأقلّك لزيارة ميناء «أبولونيا». يدهشني أنّك لم تتوقّع النتيجة يوم دبّرتَ الدسيسة ضدّ السحر الذي أغرى !القوم لكي يُقبلوا عليك من وراء البحار كي يحرثوا لك أرضك بصنوف العمران

توقّفا بجوار مدرّجٍ مستدير، يحوي مصطبات حجرية قال له إن الناس يرتادونها في الأمسيات كي يردّدوا لحوناً في مديح الآلهة ويشاهدوا ألعاباً مسلّية. تبادلا نظرة ذات معنى. أجاب

!لم أفعل شيئاً سوى أنّي قمت بوضع وصيّتك موضع التنفيذ

:استنكر آغافون

وضعتَ وصيّتي موضع التنفيذ؟

:أجابه ببرود

بالطبع! ألم تكرر دوماً وجوب ألاّ تقوم حرب بيننا من جديد؟ ألم تحدّثني مراراً عن هول غياب الرجال وحال الأرامل اللائي خلّفهنّ غياب الرجال بسبب الحرب؟ كلّ ما فعلته أنّي تذكّرت نداءك !يوم سال الدّم بين شعبينا، فاستجبتُ للنداء

استجبتَ للنداء؟

!سحقتُ الشرَرَ قبل أن يشتعل الحريق. ظننتك ستكون ممتنّاً لي، لأني حلت دون نشوب حربٍ بيننا

في مدخل المدرّج الذي تُتلَى فيه الأناشيد في مديح الآلهة توقّفا من جديد. بالجوار تنقّل الخلق. نساءٌ بصحبة صغار تصعد. رجالٌ يتخاطبون بصوت عال في طريقهم إلى الأسفل. أصوات تتقاطع :فتكتم معزوفة الماء وهو يستخدم الحجر وتراً، في حين واصل آغافون

!أيُعقل أن تقطع حبل سرّة ضمن وجود بشرٍ بعدد حبات الرمل ليبقيهم قيد الحياة بضربة طائشة

!كلاّ! لم تكن ضربة طائشة

ماذا يمكن أن نسمّيها؟

ضربة حكيمة! تلك ضربة حكيمة لأنها حقنت دماء أناسٍ كان يمكن أن يهلكوا بالآلاف كما هلكوا !في الحرب التي أفقدتكم سبعة آلاف قتيل بين يوم وليلة

:توضّحه آغافون بذهول

.ولكنك لن تضمن ألاّ يهلك ضعف هذا العدد من شعبنا بعد أن حرمتهم من القوت

!لم أحرمهم من القوت، ولكني أجرتهم من الأسوأ ألف مرّة من انعدام القوت وهو: الحرب

:تفحّصه آغافون طويلاً ثم هتمل بنَفَسٍ مكتومٍ بغصّة

ألاَ تدري أن قبائل كاملة تسير في طريق الرحيل بما في ذلك عائلتي؟

التفت نحوه فالتقت نظراتهما. تبادلا نظرة مزمومة قبل أن يشيح بوجهه نحو الهاوية البعيدة حيث يستلقي الغمر الأزرق كأنه صحراء من ماء. كل ما هنالك أن لونها أزرق. تمتم:

.أعلم ماذا تريد أن تقول

:أشاح آغافون بوجهه أيضاً قبل أن يقول

..لم تجنِ على شعبٍ وحسب، ولكنك جنيت بفعلتك على صديق

:توقف لحظة ثم استدرك

!بل جنيتَ على نفسك

:همس بوشوشة مكتومة

!أدري

تدري؟

:طأطأ ولم يجب، فهرع لنجدته آغافون

أعرف أنّك ستتباهى. أعرف أنك ستقول ما يقوله الأبطال الذين يتشدّقون بالتضحيات في سبيل الأوطان كلما شاءوا أن يتستّروا على جرمٍ اقترفوه في حقّ الأغيار، أو حتى في حقّ أنفسهم. ولكن دعك من الأوهام، واعلم أن كل هذه الأناشيد عن الفداء، وعن الواجب، حُجَجٌ لا تشتري فجيعة !امرأة راهنت يوماً على معشوق، ثم خذلها هذا المعشوق

البيت كان غاراً منحوتاً في صلد الجبل، يقع في هوّة بالجناح الشرقي، متشبّثاً بتلابيب الصرح الصخري العصيّ، الذي يبدو من الأسافل، سقفاً خارقاً ومتعالياً، أعدّته الأرض خصيصاً ليكون سنداً لأساس معبد «زيوس»، المنتصب باستكبار في الأعالي، كأنّه طائرٌ خرافي يتأهّب للالتحاق بوكر المحال، المحتجب في موقعٍ ذي بُعدٍ مفقود، في السماء.

كانت الغيوم قد أحكمت نسج ستورها لتخفي الثقوب المنشودة دوماً في تلك القمّة من المكان، وفي ذلك الوقت العصيب من مناخ كل عام، فتمادت الغيوم في جنونها الموسمي، فاستولت على شعفة المعبد أيضاً، ولم تقنع بالغلبة، ولكنها أبت إلاّ أن تستنزف السماء بحملتها المحمومة، ليسفر النزاع عن تلك الغيوث المذهلة، الناصعة البياض، الشبيهة بريش الغرانيق المهاجرة، التي تتناثر في الفضاء بسخاء، حتى إذا سقطت أرضاً، سكنت، وتراكمت، لتتلبّس اليابسة بكفنٍ منكرٍ لا يلبث أن ينقشع، ليتحوّل بللاً.

لم يكن في حاجة إلى وصايا آغافون الذي حذّره من بطش الصقيع منذ حلوله في ساحة أعلى قمّة في وطن الشمال، لأنه كان قد تحصّن بالفرن، بالعشّ الناري، المنسوج من أنفاس الحُسن، الذي خلعته عليه المعبودة في حرم الجمال، في أحد الأيام، فاستخدمه درعاً في زيارة الحلم الذي هدهده طويلاً، ولم يُكتب له أن يتحقق إلاّ اليوم.

في الوقفة أمام المدخل تطلّع إلى الأعلى، حيث ينهض الكيان المهيب، المتوّج في الواجهة بتميمة ربّة الأرباب «تانّيت» المثلثة الأضلاع، ساحقاً الذروة بأعمدته الرهيبة، المخشوشنة السيقان، المكلّلة بحبكةٍ مجسّدةٍ من نبات الغار، ليقف في كبرياء شاهداً على الأحاضيض الشاسعة، المترامية حتى تتواصل في فتنة صحراء الغمر، بلونها المستعار من سماء تنحني لتلتحم بالبلل في قوس الأفق المزموم، منتصباً، في وقفته الخالدة، حامي حمى المشهد كلّه، بما في ذلك السفح الصخري الذي يحوي الغار، المسكون بضيفٍ أبيٍّ، كان في كل الأعراف قدس أقداس، وهو: الجمال!

جمالٌ ليس ككل جمال. الجمال المعصوم. الجمال الذي إذا لامسه لامس، أو أُصيب فيه ملمس، تدنّس! الجمال خُلق ليبقى نقيّاً، بتولاً، منزّهاً، وإلاّ لما تراءى له، في تجلّيات أحلامه، طيفاً هائماً طوال الأعوام الفانية. فبأيّ حقّ يجرؤ أن يطرق باب داره الآن كي يعرض عليه عقد صفقةٍ وضيعةٍ (كما يقترح آغافون) لن تكتفي بأن تحطّ من قدر كلّ منهما، بل لا ضمان بألاّ تنتهي إلى ذلك المصير الفاجع الذي يجعل من الأحبّاء أعداءً؟ ألم يخطئ شعراء القبائل عندما أطلقوا على هذه الصفقة تبادلاً لضياع القطبين، في حين أصاب دهاة القبائل عندما قالوا إنها باطلٌ سوف ينتهي إلى باطل ما لم تتحوّل قرباناً؟

!القربان

سكنه القربان منذ انتزعه الأب من حضن الغطاء في ظلمة فجر شتوي بارد كي يستعين به في نحر شاةٍ قيل له فيما بعد إنها قربان لرب الغيوث «هرو»، ليجد نفسه غارقاً في الدّم بسبب ذلك الطقس الدموي. لم تتلوّث يداه فقط بالدم، ولكن وجهه وصدره أيضاً، فلم يعرف ماذا يفعل بيديه المبلّلتين بذلك السائل اللزج، الحار، ذي الرائحة المريبة، لأن الصقيع الذي جمّد المياه في القِربة، كاد له أيضاً، فلم يستطع أن يغتسل ليتطهّر من الدّم، فسكنه الإحساس بما سمّوه قرباناً إلى الأبد. سكنه قبل أن يتحوّل في بطن أمّه الكبرى (الصحراء) قرباناً استعادته منه مرة لتلقّنه درس المجهول في جوف التّيه، لتلفظه من جديد في قمقم الواحة البغيض. فما ضرّ الدُّهاة لو تنازلوا عن استعلائهم وسمّوا العقد عهداً؟ هل غاب عنهم أن العقد قيدٌ كريه نرجو منه نفعاً، ولكن العهد ميثاقٌ نرجو من ورائه خلاصاً، لا نفعاً؟ فالعهد وحده هو ما يليق بالجمال. العهد المبهم، المبرم بمشيئة الصمت، المستنكر لأجناس الحفاوة، المكتفي بفعل كل ما بالوسع لكي لا يتسلّل الورم الخبيث إلى الساحة، فينقلب بشؤمه الخلّ عدوّاً.

ولكن الأعراف اعتمدت العقد ديناً، في حين أنكرت العهد. وإنكار العهد بين القطبين المعزولَين، الممسوسَين توقاً للاحتماء ببعضهما البعض، هو ما أحيا الإحساس بوجوب تدخّل القربان، ليقينه القديم، الخفيّ، بأن المحبوب، المجبول بوصمة مُحالٍ اسمه الجمال، لا يُنال إلاّ بقبول القربان قدراً؛ لأن الناموس هو الذي قضى بأن لا ننال إلاّ ما نهب. كما لا ننجو بما نهوى، ولكن بما نخشى.

لم تفصله عن بوّابة الغار الخشبية سوى بضع خطوات عندما ارتدّ على عقبيه فجأة. تراجع عبر الدرب المدرّج الذي يهوي إلى الأسافل وهو يتلقّى على وجهه صفعات العهن الناصع، المتهاوي من سماء كئيبة محتجبة بغيوم سوداء زحفت على الشعفة فابتلعت المعبد. على السفح الحجري بدأت قطع العهن، أو ريش الغرانيق، المتطايرة في الفضاء، تتضعضع وتتحوّل إلى بلل.

بالأمس أخبره «آغافون» أن الوضع تعثّر إلى درجة لم يعد يحتمل فيه البقاء، لأن المدينة تختنق بالمهاجرين الذين تلفظهم المستوطنات الأخرى بسبب الوباء الذي أباد السلفيوم، ولم يبقَ له إلاّ أن يقلع ما أن تتحرّر «تارا» من حملها الثاني، لأنها لن تستطيع أن تحتمل ركوب البحر قبل الوضع. وهو ما يعني أن عليه أن يعجّل بالمغادرة أيضاً، ولكن في الوجهة المعاكسة، بعد أن يكون قد تنازل له عن قلبه، ليحمله معه إلى المجهول، ويعود هو إلى صحرائه الخالدة، حيث يستطيع أن يستجير بشجرة طلحٍ وحيدة، ليلفظ أنفاسه وحيداً أيضاً، حزناً على قلبه المفقود.

في منتصف الطريق إلى أسفل اعترض سبيله «آغافون». كان يصعد الأدراج العصيّة لاهثاً، يتصبّب بالعرق برغم الصقيع المنهال من السماء المعادية. انتظر أن يستفهم منه عن النتيجة التي أسفر عنها ميعاد المحال الذي كان من صنع يديه، ولكنه نفث في وجهه أنفاساً عاصفة قبل أن يعلن له فوزه بالوريث المنتظر:

المولود الثاني أيضاً أنثى! أنثى!

التقط نفَساً قبل أن يضيف:

الأنثى دائماً في عرفنا فأل خير. يكفي أن الأنثى حيلة المرأة لإطفاء نار الحروب، عكس الذكور الذين نقرأ فيهم فألاً ينذر باشتعال نار الحروب!

نفث أنفاساً عاصفة أخرى قبل أن يضيف:

ها أنت ترى أنّي أفعل ما بالوسع كي أساهم بنصيبي في تعويض الأرواح التي فقدناها في الحرب الأخيرة؛ ويسعدني أن أدفع ما توجّب عليّ من مكوس بعملة الإناث، لا بعملة الذكور، لأن الأنثى ليست أجمل وقعاً وحسب، ولكنها أعظم نفعاً أيضاً، والدليل ربّة الأرباب التي تسمّونها «تانّيت»، ونسمّيها «أثينا» التي تخفي وراء قناعها الذي يجمع بين عدوّين لدودين هما: الحبّ والحرب!

أومأ له بمرافقته في الصعود إلى أعلى حيث استقرّ به المقام في أقصى الركن الشرقي من بيت النحل المهول في الحجم، المتقن في الصنع، المدهش في الموقع: الموقع الخرافي، المعلّق في برزخ يتأرجح بين أبعد بعدين في الفراغ الواقع بين السماء والأرض، إلى حدٍّ تبدو فيه هذه الأعشاش المذهلة أقرب إلى السماء منها إلى الأرض، بدليل أن الغيوم استقطعت النصيب الأعظم من الأبنية لتلحقها برحاب السماء، في رحلة عصيّة، تتنكّر فيها لهوية اليابسة، لتستعير هوية البُعْد المفقود.

في الطريق إلى الأعلى عاد «آغافون» يروّض العضلة اللئيمة بكلمٍ سيبقى لغواً في لغو في سمع إنسانٍ عاد للتوّ من المعركة التي هزم فيها نفسه، ومرارتها إنّما تكمن في هذا الإحساس بالذّات، لا في حقيقتها كهزيمة؛ وبرغم ذلك بذل جهداً بطولياً كي ينصت لثرثرة الرفيق:

أعترف لك بأنّي سعيد بالرحيل. سعيدٌ على الرغم من إحساسي بالخيبة، لأن العودة هذه المرة هي عودة الابن الضالّ إلى حضن الأب الذي ليس له إلاّ أن يغفر، لأن الأب لن يكون أباً إن لم يستقبل

في أحد الأيام الابن الضالّ. وما هي الأوطان إن لم تكن في حياتنا آباءً قدرهم أن يستعيدوا من المجهول يوماً أبناء الضلال؟

تطاولا في الصعود إلى أعلى مسافة. كانت العتبات الحجرية جلاميد صخرٍ عظيم الحجم، عتباتٌ كأنها ليست عتبات، ولكنها جدران دور بسبب الارتفاع،

فسيحة في العرض، مشذّبة بإتقانٍ يثير الإعجاب، كأنّ الدهاة الذين اختطّوها يوماً تعمّدوا بثّ الحُسن في صلدها كي يهوّنوا على السابلة عناء الصعود إلى أعلى.

عاد «آغافون» يعاند وصيّته عن الضلال:

الحقّ أن الابن لا يكون ابناً إن لم يسلك يوماً سبيل الضلال، كما الأب لن يكون بحقّ أباً ما لم يستقبل يوماً ابنه الضالّ. أردت أن أقول إن الأوطان أيضاً آباء يسعدهم أن يستعيدوا أبناءهم الذين تابوا وعادوا إلى الوراء طلباً للغفران، بعد أن التقموا الفاكهة المريرة المستقطعة من شجرة اسمها الضلال!

في حشود الغيوم تسلّل ورمٌ ما لبث أن كشف في عتمة السحب عن ثقوب. ثقوب بدأت تتّسع باستحياء كلّما تنفّس اليمّ الرهيب، الجاثم في أبعد حضيض، كأنه الغول الذي تروي سيرته الأساطير، فهبّت على سفح الجبل الأنسام الباردة. المشبعة برائحة الملح، الممزوج بنكهة معادن مجهولة، لتشتّت شمل الغيوم الغازية بطعناتٍ مميتة، مزّقت الحجب، مخلّفةً في البدن الكئيب تلك الثقوب التي تغنَّى بها في ذلك اليوم الذي خرج فيه بقبيلة الأغراب ليُسكنها سكينةً ذات جدرانٍ من عدم، لا تبخل سماؤها بنزيف الضوء المتدفّق من ثقوب تخترق غيوماً تقف سدّاً فاصلاً يغرّب الأعالي عن الأسافل، استهان بوجودها القوم، لأنهم لم يدروا أن بفضل هذه الفصوص الأسطورية فقط وُجدت في الأسافل يابسة، وبفضل وجود اليابسة في الأرض، نبتت في طينة الأرض، كمأة خارقة، تتخاصم فيها طبيعتان متعاديتان، اسمها: الإنسان!

تلاعب الداهية بيديه الموسّمتين بشبكة من العروق النافرة وهو يتوضّحه بفضول شديد كأنه يكتشف وجوده إلى جواره لأول مرّة، ثم تمتم مشدّداً على كل حرف في كل كلمة:

(هل كانت بهيّة إلى هذا الحدّ؟ (تيهوساي تينّغ أمدانت آجّا؟

لم يُجب. كان ما زال يعاند الدوار وما هو أسوأ من الدوار: يعاند الخواء الذي شلّ فيه كل شيء منذ اللحظة التي انقطع فيها الحبل، فعاد الداهية يحتال كي يهوّن عليه:

أوكساض إيتّيتاوَد إينّين تُونتي آتموس، وجّيغ تيمَليت هوند آواتورديد! (إيّاك أن تنسى أنها مجرّد امرأة، وليست معبودةً كما تتوهّم!).

انتصب بينهما صمتٌ عميق استدرج حتى الأنعام التي كفّت عن انتهاكه باجترار العشب وأصاخت السمع بوجل كما تفعل عندما تشتمّ رائحة الذئاب لينشلّ فيها الحسّ، بما في ذلك الفكّ، ولا ينمّ شيء في وجودها سوى تلك الرعدة المزمومة التي تجتاح الشعر الذي يكسو أجرامها، فتُذكّره برعشة الزغب في بدن طير وقع في الفخّ. عاد الداهية ينازل الصمت:

منذ قرأت في الوجه التوق إلى الأطلال توقّعت أن يحدث هذا.

في الموقد انطفأت النار في ما تبقّى من أحطاب، ولكن الجمر ظلّ يومئ بإغواءٍ كأنه يناجي نجوم سماءٍ غاب فيها القمر فتومض أيضاً بشغف. طارده الداهية بعينين لا تُخفى عنهما خافية قبل أن يبصر فيهما قلقاً أفزعه.

تبادلا نظرة طويلة قبل أن يشيح بوجهه جانباً، كأنه يستنجد بالخلاء، أو ينوي أن يلوذ بالفرار، فسمع صوت الداهية كأنه نداءٌ ينطلق من دمه هو، لا من لسان الداهية:

إيّاك، ثمّ إيّاك، أن تفكّر في الترياق!

حدجه خلسة فأدرك أنه قرأ في دمه كل شيء. وكي يضلّل الأثر قرر أن يتظاهر بجهل ما ظنّه سرّ المحال:

الترياق؟

:ولكن العجوز لم يمهله

..كلّنا في حالٍ كهذه نلتجئ إلى الترياق

:سكت لحظة وهو يتفحّصه على إيماء الجمر المتماهي مع إيماء الأنجم، ثم أكمل

!علّنا نجد الخلاص

:مضى يحاصره ببصرٍ لجوج قبل أن يهتمل كأنه يخاطب نفسه همساً

!أقول هذا لكي لا تطلب عوني في أمرٍ كهذا

قعقع الجمر في الموقد الخابي. بجوار الموقد، قبالة الداهية، استلقى على الحجارة رغيف خبز، مستخرج من جوف الموقد، بكراً، مهجوراً، كلقية سبيل. في الجوار انتصب وعاء الماء. عاد :الداهية يبارز السكون

..تذكّر دوماً أنها مجرّد امرأة

:تنهّد بعمق مَن ينفّس عن كرب ليكمل

.هذا ينفع في ترويض الوجع

ثمّ استلقى على ظهره ليشاهد النجوم. دمدم في صدره أنينٌ كأنه مفتتح لأغنية شجن، ولكنه غمغم :كأنه يفكّك طلسم نبوءة غامضة

!لعنة السلفيوم

:لاذ بالصمت فعنّ له أن يستنطقه

؟«هل قلت «لعنة السلفيوم

:عاد الأنين يدمدم في صدره مكتوماً، وجيعاً، قبل أن يتنازل

وماذا ظننت؟ أيعقل أن تتسامح الأرض في شأن عدوانٍ، كاستئصال نباتٍ، وهي التي لا تنتج شيئاً عبثاً؟

تمادى الصمت مرة أخرى. في قطعان تلك الليلة مات الفكّ أيضاً. هيمن الصمت طويلاً قبل أن يبذل جهداً كي يستعجب

ظننت أنّي انتصرت للأرض بحملتي على العشبة التي جلبت للأرض جشع أناسٍ رأيت فيهم أعداء أرض!

هذا ما نظنّه نحن، ولكن لا يظنّه منطق الأرض!

استسلم لرحاب النجوم لحظات ثم تكلم بلهجة من يخاطب نفسه:

مصيبتنا في أننا نحيا غرباء عن أمّنا الأرض، فلا نحسن الاستماع إلى الأرض، ولا قراءة ناموس الأرض، فنخطئ في حقّ أنفسنا بهذا الجهل، لأننا ننسى أنها أقدر منّا إذا تعلّق الأمر بالانتقام لنفسها من كلّ مَن سوّلت له نفسه أن يقترف خطيئة في حقّها!

لحظتها فقط اكتشف أن للصمت صوتاً. صوتٌ عميقٌ من لحن حنين ينطلق من قاعٍ سحيق. شهق كأنه ينوي أن يلفظ النفس الأخير عندما سمع الداهية ينطق بتحذير:

نقترف في حقّ الأرض إثماً عظيماً عندما نتدخّل في شأن الأرض!

المعزوفة تعالت في أذنه وتخلّلته ليستشعرها تسري في دمه أيضاً، فاستعاد موقف العجوز الجريح الذي أقبل عليه يوماً ليشكو عدوان المستوطنين متسائلاً عمّا إذا ابتسم له الحظّ يوماً فسمع الأرض تنادي. ليس هذا وحسب، ولكنه لم ينسَ كيف قعقعت السماء في نيّة لأن تتداعى وتهوي أرضاً، واشتعل الفضاء بالسياط المفتولة من لهب النار، في ذلك اليوم الذي جلس فيه في

حضرة الزعيم ليلقّنه بنود المكيدة ضدّ السلفيوم، كأنّ الأرض استنجدت بالسماء لتكون لها في الاحتجاج حُجةً، وفي دفع البلاء عوناً، فقرعت طبول الحرب التي شنّتها القبائل على النبتة الخفيّة، استجابةً لناموس «ميدّيياغز» المعادي لمعبود الأمم المسمّى خلوداً، لأنهم رأوا منذ الأزل في اعتناق يقين الخلود تجديفاً في حقّ طبيعة الأشياء التي كانت لهم دوماً قدس أقداس، وإلاّ لما سخروا من كل حطامٍ تبنّته بقية الأمم كغنيمة، أو حتّى كقيمة، وارتضوا بقدر وجودهم في الصحراء

كظلال، كأشباح، لأن الأشباح وحدها لا تبيد ولا تفنى، لأن اليقين بحقيقتها كأشباح وحده غياب. وحده.. فناء!

فقد هَدهَد منذ زمن ما علّمه له فرار الأبد عن الإنسان الذي تنكّر للجذور، ولم يكتفِ، ولكنه لم يتردّد في أن يقتلع الجذور، لينطلق في مفازة العجب، حاملاً بيته على ظهره، ممّا يعني أنه بلا بيت، مستمرئاً نزيف الروح الذي يلازم انقطاع الجذور؛ هذا الإنسان وحده لن يعترف لنفسه لا بوجودٍ له في مكان، ولا بحضورٍ له في زمان، وهو ما لم يتردد سدنة الناموس، ودهاة القبائل، في أن يطلقوا عليه اسم: الخلود!

فكيف يهفو إلى الخلود، ذلك الإنسان الذي لم يشكّ يوماً، في أنّه يحيا الخلود؟

.الصحراء ثلاثة أجناس: صحراء سهليّة، وأخرى جبليّة، وثالثة رمليّة

السهل الأول شريطٌ وضيع، يجاور بحر ليبيا، ويلازمه طوال امتداده في مسافة خرافية، متطامناً، كل الوقت في الطول، ولكنه لا يلبث أن يتنكّر لطبيعته في العرض، بعد انقضاء مسافة يومين مشياً على الأقدام، لتعترضه أول طبقة جبلية عالية، عارية، مسبوكةٍ من جلاميدٍ صخريةٍ مشوبةٍ بمسحةٍ فاتنةٍ تستعير لون الدم. وهي جبالٌ ليست ككل جبال، لأنها سلسلة مسطّحة القمم، مستوية في فرارها الوجيع، لتكوّن سدّاً منيعاً يفصل الحضيض السهلي، الواقع في الهاوية، الملاصق للساحل البحري، اللانهائي، ليبدو هذا السدّ الصلب لانهائياً في امتداده أيضاً؛ قد ينقطع حبل السلسلة في بعض المواقع، كاشفاً عن فجوات خرافية الحجم، ولكنه لا يلبث في مسافة تالية أن يلتئم من جديد، مستعيداً ذات المستوى في الارتفاع، وفي تسطّح الشعاف، وفي مسحة السيماء المعتمة كأنها بشرة محتقنة بالدم، وفي مهابة الوطأة كأنّ الكيان الخرافي المرصوص، في وقفته التي يسحق فيها الأسافل بكلكله الشنيع، هوى يوماً من السماء كي يكتم أنفاس الأرض. ولكن ليس عسيراً على شاهد العيان، إذا تأمّل السلسلة مليّاً، أن يكتشف أن الطوق الشديد الجاذبية، المحفور في عنق الامتداد، ليفصل القمّة المستوية عن جرم الجبل، فيتبدّى عن بُعْد كجرحٍ حقيقي، ما هو إلاّ الأثر الذي احتفره غمر الدهور في رقبة السلسلة، قبل أن تنحسر المياه في دهورٍ أخرى، لتهوي بقوّة في تلك المراحل، وفي أمدٍ فجائي أقصر إذا قيس بما سبق، كأنّ الانحسار حدث بفعل كارثةٍ مهولةٍ امتصّت .الأرض المياه بموجبها امتصاصاً

فوق هامة هذه السلسلة تنطلق بيداء فسيحة، تستميت في فرارٍ عنيد، باستواءٍ عنيد، مكسوّة بطبقةٍ ملفّقةٍ من حجارة متوسطة الحجم، مفروشة بعناية لتبدو سجّادة هائلة تنزّلت لاستضافة الآلهة، أو مخلوقات خارقة، لا تقلّ شأناً عن الآلهة، مثبّتة على سطحٍ طينيٍّ مستوٍ، مصبوغٍ بحمرةٍ قانيةٍ، .كأنّها ارتوَت من نهر دمٍ سخيّ، نزفهُ قربانٌ أسطوريّ

يتخلّل هذا المدى المنبسط منخفضات جرّدتها الغيوث الموسمية من حجارتها، فتعرّى في الجرم المديد بدن الطين في مسافاتٍ متباعدة، لتتحوّل هذه الفجوات حقولاً لمختلف أجناس النبوت، تتّخذها الأنعام مراتع لها، تغزوها أسراب الطيور المهاجرة لتتزوّد منها بحاجاتها من زادٍ مكوّنٍ من الديدان والفقع والجذور وأندر أنواع الكمأ في الفصول التي تفوز فيها التربة بمواسم أمطار سخيّة، في حين تتخلّل هذه المنخفضات وديان مختلفة: بعضها مجرّد شعاب هزيلة، تتضامن في مسيرها إلى الأسافل، لتحتفر بمياهها الوضيعة القيعان المغمورة بالوعوثة، المستجلبة من رياح الصحاري الجنوبية، حيث يجثم الشقّ الأوسط من بحر الرمال العظيم. ولكن هذا البساط المتجالد، الذي يتوسّط الصحراءَين الصخرية والرملية، لا يحتفظ طويلاً بالسيوف

الرملية الطارئة، القادمة من رحاب الأراضي الوسطى، فلا تلبث أن تندثر من قيعان الوديان، بفعل الرياح الجنوبية التي تذهب بها، بالحيَل الماكرة نفسها التي استخدمتها عندما أتت بها، لا لشيء إلاّ لأنها من طينة أخرى، نزلت تراباً غريباً عن طبيعتها، متخطّيةً حدوداً صارمة، اختطّها ناموس البريّة منذ الأزل، واجتيازها، بموجب هذا الناموس، عدوانٌ منكر، إذا لم يكن بمثابة الخطيئة التي تستوجب قصاصاً، ولكنها لا تملك، بحكم عرف الجوار، إلاّ أن تغتفرها، لأنها هي أيضاً كثيراً ما اشتطّت في مسيرها، لتقتحم، في حمّى فرارها، تخوماً غريبة عن طبيعتها.

في هذا المجال الفسيح تتبعثر مقابر في مسافاتٍ متباعدة، مهجورة، تناثرت حجارتها حتى كادت تستوي بالأرض من فرط القدمة، وبسبب غزارة الأمطار في الأزمنة الغابرة التي كانت فيها الصحراء حديثة العهد بالطور المطير، قبل أن تنحسر الغيوم من سمائها فتتعرّى تماماً.

الصحراء الطينية، المقنّعة بستور الحجارة الفطحاء، تتواصل تالياً في صحراء أخرى، ذات طبيعة رملية في مجملها، تحجب أنهاراً كبرى فانية، وبحيرات عظمى غزتها رياح الجنوب بأنفاسها الحارقة، فتوارت تحت الكثبان الشرهة، دون أن تبخل بفيوضها الجوفية على الأراضي السفلية، لتغذّي أشجار النخيل والتين والرمّان، في بساتين ثريّة، صارت تالياً مواقع مغرية، يقصدها أهل المكان، فتستدرجهم إلى الاستيطان، لتنشأ الواحات المنتشرة على مسافة يستغرق عبورها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب عدّة شهور سفراً على الدواب.

في متاهة الفضاء الذي يلي الصحراء الرملية تنتصب قامات السلسلة الجبلية من جديد، مكابرةً، مستويةً، كأنّها قُطعت بنصلٍ خرافيّ، مرصّعة بالغيران، وملتحفة بذلك اللون الخفيّ، المجبول بمسوح الغيوب، الذي يكاد من فرط احتقانه أن ينزف دماً. فوق هامة السلسلة المسطّحة تبدأ الصحراء الحجرية في التدافع حتى تغيب في أفقٍ مستنيرٍ دوماً، يلد أفقاً أعظم عناداً، يفرّ، ثمّ يفرّ، عبر مسافاتٍ يستغرق قطعها الشهور والشهور، قبل أن يستولي الإعياء على المدى، فيتوقّف ليلتقط أنفاسه عند تخوم أرضٍ تتنكّر لوصيّتها، فتتحوّل أدغالاً.

هذه هي المنازل التي توهّم أنها سوف تهوّن عليه إذا انطلق ليعبرها في اليوم الذي بدأ فيه يختنق، ويعاند، يعاند ليلتقط الأنفاس. ففي الأيام الأولى استعان على المحنة بالصيام عن الطعام، وفي الأيام التالية صام أيضاً عن الكلام. حام حوله شبح الداهية طوال هذا العراك، ولكن ظهور «أساهو»، في تلك الليلة التي استسلم فيها لجيوش النجوم، هو الذي أوْحَى بأن يستعين على البلبال بالانطلاق. أساهو كان في النبوءة رسولاً، تأمّله، وهو مستلقٍ على ظهره، في تلك الليلة التي غاب فيها القمر، فوهب نفسه لهذه الدّرر التي تتلامع بلا انقطاع، وتتوالد وتتوالد، بلا نهاية، في حين يظلّ سجيناً في قمقمه، مشدوداً إلى حضيضه الذي لم يستحِ بأن يحوّله معبوده، مغترباً عن

الوطن الحقيقي، عن «أساهو» المجيد، أساهو البعيد، الذي احتضن السّلَف الأول يوماً، قبل أن ينزلوا الأسافل، قصاصاً لهم عن إثمٍ مجهول، أعجز سرّه حتى الناموس المفقود، فلم يجد الخلَف ما يشفي به الغليل سوى التغنّي بسيرته في لحن الحنين الملقّب باسم: أساهو، أو كما يُنطق في رطانة بعض القبائل: أساهغ. فلم يملّ دهاة القبائل أن يستوصوا مغنّيات النجوع بتلقين فرسان العشائر لحون «أساهو»، لأنها وحدها، في يقينهم، تُربّي في الرجال الشجاعة، تماماً كما تحقن أرواح النساء بالعفاف. ليس لهذا السبب وحده شاعت في القبائل عبادة لحن «أساهو»، أو أساهغ، ولكن سلطانه على النفوس بلغ حدّاً لم يحدث فيه أن سقط فارسٌ في نوبة وَجْد إلاّ بسبب تلك المعزوفة التي تروّض التوق لاسترداد الوطن الضائع، منطوقاً بحرف الوتر المزموم الذي لم يُخلق إلاّ ليتغنّى بسيرة «أساهو». أساهو الذي ينفي فينا الإحساس بالجسد، ينفي فينا حضورنا في الجسد، ليُيَسّر فرارنا إلى أحضان الوطن الضائع. الوطن الذي لم يكن ليحتمل البقاء سجين القمقم، أسيراً في قبضة الحضيض، لو لم ينتظر اليوم الذي سيتحرّر فيه ليستعيده. فالمجد لـــ «أساهو» لأنه إذا تجلّى في محفل الدرر الهائل، فذاك فأل خير، لأن خروجه، في عُرف القوم، كان دائماً إنذاراً بحلول الخلاص.

فالسرّ كلّه في الانسلال من الوزر، والدخول في الصقر، أو في السنونو، بل الأنسب على الإطلاق الدخول في جوف الطّيف. لأن الأطياف التي شاهدها في المفازات مراراً تستطيع أن تتحرّر لتقف شاهد عيان في حضرة الجمال دون أن يصرعها الجمال.

كم مرّة قيل له إن الجمال هو ما لا يُشاهَد إلاّ من وراء حجاب؟

وكيف الفوز بالحجاب الذي يلائم أن يُشاهد الجمال من ورائه دون وَجْدٍ يحرّر من القمقم، كما حدث له مرّة عندما صرعه لحنٌ مميت فانسلّ ليحلّ ضيفاً على وطن «أساهو»، تاركاً وراءه ما ظنّه بدناً ليكتشف عندما رآه من عليائه كيف يبدو قناعاً قبيحاً، بل مجرّد ثوب جلديّ بائس ومثير للسّخرية، حتى أنه كابر ولم يكن ليتنازل فيعود إليه لو لم تحتل عليه شاعرات القبيلة بأجناس اللحون الجنونية التي استدرجنه بها ليقع في الشّرَك من جديد؟

ولكن كيف له أن يحقّق وَجْداً في بلائه الجديد في ظلّ غياب لحون الجنون التي تتردّد في حناجر الحسان في صحراء لا وجود فيها إلاّ لداهية المراعي الذي لا يخشى عليه هذه المرّة من شيء كما يخشى عليه من الوَجْد. ولم يجد في مصابه معيناً سوى الصيام عن الطعوم، ثم الصيام عن استخدام اللسان، والاستنجاد بالنّجم الأعلى الذي لم يبخل بالغَوث عندما ألهمه الترياق الذي لن يتحقق إلاّ بالفرار؟

..الفرار

الفرار هو ما استهواه منذ الطفولة. ورحلة التّيه لم تكن إلاّ استجابةً لنداء الفرار. وحياته في صحاري الأعوام التالية لم تكن أيضاً سوى تجسيدٍ لحلم

الفرار الأبدي. ولا يدري لماذا لم يستسغ صيغة السلفيوم في الفرار. هل اشمأزّ من فرار السلفيوم لأنه تزويرٌ للفرار؟ هل استنكر فرار السلفيوم لأنه أشعل فيه نار إقبالٍ، لا نار إدبار؟

هل ناصب السلفيوم العداء لأن ناره المزيّفة لا تتوق إلى الخلاص، ولكنها شهوةٌ إلى القصاص: القصاص الذي يجعل من الانطلاق مجرّد سباق، وليس فرار الترياق؟ إنه الفرق بين رحلة وَجْدٍ تحققتْ بمشيئة اللحون، وبين شطحة صرَعٍ تحققت بفعل عُقار الجنون.

أحد عُتاة العَدْوِ أخبره أن في الفرار يكمن إفيون العجب. قال إن النشوة في العَدْو تزداد كلّما طال أمد الفرار. فإن طال أكثر مما ينبغي فإنها تبلغ حدّاً لا يعود فيه مريد الفرار يستشعر وجود الجسد، فإن تواصل الفرار بعد هذا الحدّ، فقد المريد الإحساس بحضوره في جوف الجسد، فإن تواصل الفرار بعد هذا الحدّ أيضاً، أحجم المُريد عن المضي قُدماً، لأنه لا يدري أن في هذا البُعد يبلغ الإحساس بالنشوة حدوده القصوى فيحدث ما لم تُحمد عقباه يوماً.

هذا البُعْد المجيد يتحاشاه دهاة العدو لأنهم لم يجرّبوا لذّة ما يراه بلهاء القوم بعبعاً مفزعاً، ويسمّيه سفهاء النجوع موتاً، وإلاّ لما حرّموا على عشّاق السباق بلوغ الحدّ، حتى لا يتحوّل عدوَهم فراراً.

في تلك الليلة التي حلّ فيها ضيفاً في محفل «أساهو» قرّر أن يستغفل الداهية ويسري ليلاً. تظاهر بالخروج إلى الخلاء لقضاء حاجته، ثمّ انسلّ ميمّماً صوب الصحراء الوسطى، مهدهداً يقيناً يقول إن الداهية لن يدركه، لأن ليلة كاملة كافية بأن تفصلهما في المسافة بأمنع سدّ. وما لم يخطر له على بال أبداً هو أن يستعين الداهية برعاة النجوع المجاورة في المطاردة.

والرعاة تنادوا وتناصحوا، كما قيل له تالياً، ثم استنجدوا بالمخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يسابق الطير بسبب مواهبه الخارقة، المستعارة من أخواله أهل الخفاء، لأن أحد أشياخ القبيلة كان قد أنجبه من قرينته الجنيّة. هذا الشبح هو الذي أطلقوه وراءه في صباح اليوم التالي، لينتزعه من الحلم: حلم الحلول في بُعْد الحدود القصوى، مشفوعاً بنَيْل النشوة القصوى.

.بعد تلك الإخفاقة المريرة مرّت أسابيع، قبل أن يفاتح الداهية بنيّته في التخلّص من القطيع

الداهية لم يستجب، كما لم يحتجّ أيضاً. كل ما لاحظه في مسلكه منذ عودته إلى منفاه القديم هو: الوجوم. لم ينطق في سيمائه اللّوم، كما لم يومئ بما يدلّ على نيّة في أن يفعل أو يقول ما يمكن أن .يقرأ فيه رغبته في أن يهوّن عليه، أو أن يوحي بحاجته إلى استشفاء

في تلك المرحلة حام حولهما رعاة القبائل المجاورة، كأنهم تعمّدوا أن يحذّروه بوجودهم من اقتراف أيّة حماقة أخرى. وكان الداهية يحتفي بزياراتهم، كأنه يريد أن يعبّر لهم عن امتنانه على تعاطفهم، واستعدادهم لعمل المستحيل للحيلولة دون تكرار البليّة مرة أخرى. الداهية تجنّب أيضاً أن ينطلق في محادثتهم عند قدومهم، ووجد الحجّة في كل مرة ليجرجرهم إلى العراء كي يختلي بهم هناك. ولكن هذا الحرص لم يحل دون أن يسمعه مرة يخاطب أحد الرعيان باعتراف يقول: «أيقنت أن ليس من حقّنا أبداً أن ننقذ إنساناً استهوته التهلكة!». مع ذلك خانه الحرص في معاملته، كعليلٍ يحيا نقاهة الاستشفاء، فتحدّث في حضوره مرة عن الأرض التي لا تتسامح أبداً مع مغتصبيها، فتلاحقهم بالقصاص أينما فرّوا. ولا يدري ما إذا تعمّد أن يعود إلى هذه السيرة كي يذكّره بجرمه في حقّ السلفيوم، أم أن الوصية كانت مجرّد زلّة لسان؛ على الرغم من يقينه بأن الداهية أقسى على نفسه من أن يقول أي شيءٍ عبثاً. ولكن ليس من عادة الداهية، الذي استهجن الإيضاح دوماً، أن يلتجئ إلى الحرف أيضاً وهو الذي لم يؤمن يوماً إلاّ بالإيماء لغةً. وهو لم يشكّ يوماً في أن الهيبة في جنابه إنّما تكمن في قدرته على أن يكتم ما يُضمر، وفي قدرته أيضاً على الإيحاء بأن ما يُضمر أعظم شأناً، بما لا يُقاس، ممّا يُظهر. فبعد المرّة التي جاهر له فيها برغبته في بيع القطيع لاذ بالصمت بضعة أيام، ولكنه لم يتردّد في أن يحدّث الرعاة، بلهجة مريبة عن الرّعي، في حضوره. قال في جلسة تلك الليلة إن الكلّ رعاة. الآباء يرعون أبناءً، والقنّاصون يرعون الطرائد، والزعماء يرعون القبائل، والرعيان يرعون القطعان، لينتهي إلى أن الصحراء مرعى هائل، والرعي في أرضها قدر إنسانها، لأنه ليس مجرد عمل لضمان وجود القُوت، ولكنه .بمثابة صلاة امتنان لاسترضاء الآلهة

أيدرون يا ترى أن الموجع أكثر من الوجع هو معاملتهم له كجريح؟

:الداهية أيضاً خذله حرصه المعتاد عندما واجهه في إحدى الليالي قائلاً

لا أعرف بماذا ستجيب غداً عندما ستقول القبائل إن البطل الذي هزم أمّةً كاملة دون أن يسفح في !حملته قطرة دم، هزمته امرأة من سلالة الأمّة المهزومة

لم يتوقّع أن يتخلّى الداهية عن حذره الذي يبدو أحياناً كاللامبالاة، في زمنٍ

كان في العرف قدس أقداس، لأن الجرح لم يلتئم، والنزيف فيه لم يتوقّف، مما يعني أن الداهية
:قرر، لأمرٍ مّا، أن يتحدّى الناموس، ويضع حدّاً للهدنة التي قامت بينهما منذ سلّم زمام أمره للفرار

!لم يبقَ إلاّ أن تقترف خطيئة أخرى في حقّ وصايا الناموس المفقود، فتركب البحر طمعاً في نيْلها

تطلّع نحوه بفضول، ولكن هيهات أن يفلح في اقتناص ما يخفيه في سيمائه المبهمة دوماً. كان يعاند حوائج المراعي بالجوار، ويطوف حول شجرة الطلح هنا وهناك، مع حلول المغيب، بعد أن انتهى للتوّ من حصر القطيع في الساحة التي اتّخذها، في الأيام الأخيرة، للأنعام مهجعاً. تنقّل في المكان، في المسافة الواقعة بين المربد وطلحة المتاع، متمتماً من حينٍ لآخر بتمائمه المجهولة، التي ورثها عن أسلافه باللغة المنسيّة، فاغترب فيها المعنى، ولكن الأجيال مضت تستعين بها في قضاء حوائجها برغم جهلها بالمعنى. ليس هذا وحسب، ولكنه لاحظ دوماً أن الوجل، ومراسم الإجلال، التي يعاملون بها مثل هذه الوصايا الخفيّة التي سطا عليها النسيان ليختلس منها الفحوى، يفوق الإكبار الذي يعاملون به كنوز اللغة السائدة، كأنّ قدم العهد يدسّ فيها سحراً مغرياً لا يُقاوَم، لتتحوّل .القِدمة نفسها مع انقضاء الآجال، معبوداً في منطق الأجيال

سعى في المكان كما تسعى العساعس التي يعثرون على آثارها كلما استيقظوا في الصباح، دون أن
:ينسى صلواته الصامتة في حضرة الغروب. تابعه لحظات من موقعه تحت الطلحة قبل أن يتوسّل

!كل ما أريده منك هو أن تعينني في التخلّص من القطيع

طاف لحظات. بل طاف أمداً كان كافياً لكتم أنفاس الضياء في الأفق، وميلاد الغيهب من رحم
:الغروب. قال أخيراً

أعدك بأنّي سأخلّصك من القطيع رغم يقيني بأن الإنسان إذا سار في سبيل الخطأ، فإنه سوف .يستمرئ الآثام، ليرتكب إثماً جديداً في كل خطوة

:فعاد يردّد كأنه يتلو تعويذة

!كل ما أريده هو أن تعينني في التخلّص من نصيبي من القطيع

:هيمن السكون الذي يتمادى في الصحراء كلما حلّ المساء، فانتصب الداهية فوق رأسه كالشبح

كل ما أريد أن أقوله لك هو أننا أمّةٌ تفضّل أن يغرق أبناؤها في المياه بمنتصف الطريق، على أن يعبروا المياه إلى الشطآن الأخرى!

حرص طوال الوقت أن يحتمي بنزيفه، ويجتنب الدخول مع الداهية في جدل، لا بسبب الإعياء وحده، ولكن بسبب الإحساس بفقدان الجدوى. وبرغم هذا اليقين اضطرّ أن يعترض:

لا أحد يغترب بلا سبب!

فاستنكر الداهية:

السّبب؟

تطلّع إلى الأفق المغمور بنزيفٍ دامٍ، مغلولاً بفلول سحابٍ عابر، قبل أن يحتجّ:

متى كان الناموس معنيّاً بالسبب؟

زفر بضيقٍ ليواصل:

الناموس شاهد عيان، يعاند شؤون ظلالٍ اسمها الأنام، أما الأسباب فعلمها شأنٌ يعني الأرباب التي إذا أرادت أن توقع بالمخلوق الفاني، وتجعله في نظر الأغيار أضحوكةً، أوقعته في حبّ معبودة!

لم يتساءل يوماً عمّا إذا كانت حقاً معبودة، ربما لأن الحظوظ لم تبتسم له كي تريه معبودةً يوماً، فلم يدرِ شيئاً عن خصال المعبودة. ربّما لهذا السبب استفهم بلهجة لم تخلُ من استنكار:

معبودة؟

كان الداهية قد تنحّى وقطع في العراء خطوات ميمّماً صوب الشمال عندما استفهم، فاستدار ليجيب:

ألا تدري أن الأسوأ من الوقوع في حبّ المعبودة، هو الوقوع في حبّ المعبودة التي نصنعها بأيدينا، لننصّبها على أنفسنا معبودةً؟

انتصب في مواجهةٍ تُنذِر بالتحدّي قبل أن يتوعّده بسبابة يده المحروثة بالعروق:

هل تدري لماذا؟

:لم ينتظر منه جواباً عندما أضاف

لأننا إذا كنّا لا ننال المرأة التي نحبّ في المخدع، وإنّما في الموت، فإننا لا نستطيع أن ننال المرأة ..التي نصّبناها على أنفسنا معبودةً حتى في الموت، لأننا خُلقنا في حضرتها لكي نصلّي

:فوافقه بلهجة كالهتاف

..بالطبع خُلقنا لنصلّي

عاد يهجع تحت الطلحة الظليلة. أغمض عينيه، لأنه ملّ منذ عودته من مرأى أيّ شيء، ومن سماع أيّ شيء، ومن التفكير في أيّ شيء، لأن الفشل حفر فيه جرحاً ظلّ ينزف، وسوف ينزف، دون أمل في أن يتوقّف النزيف يوماً. الهزيمة اقتلعت الفتنة في ورود السهول، وأطفأت الوهج في النجوم، وشلّت في النفس الإرادة، وسحقت في الروح الحُلم، ولم تُبقِ فيه سوى الغثيان، وطلعة الطلحة التي استجار بها هي العزاء الوحيد. الطلح الذي لا يتوق لشيء كما يتوق لأن يتوحّد: شجرة الطلح تقف في المدى اللامتناهي دوماً وحيدة، كأنّها تريد أن تؤكد بهذا التوحّد اكتفاءها بنفسها. ليس هذا وحسب،

ولكن شجرة الطلح تؤكّد اكتفاءها بنفسها باستغنائها عن الماء! وهي الفضيلة التي لا تجرؤ أي نبتة أخرى أن تنافسها فيها. لا تكتفي بهذه الأعجوبة، ولكنها تأبى إلاّ أن تجود بأعجوبةٍ أعجب عندما تستعير سطوتها من الريح الجنوبية المعادية، الريح الناريّة التي جرّدت اليابسة من بساتينها يوماً، وحوّلتها صحاريَ أبديّةً مميتةً، لتبدع لنفسها خلوداً من متون هذا الحريق المندفع في الفضاء كأنه عنقاء مغرب ذات الألف جناح التي لا تبعث نفسها ناراً حامية إلاّ من أتون نارها. خلودٌ يتحقّق بفضل القوّة المجهولة التي تسكن الريح، لتتمثّلها بإعجازها لتعتصر منها نداوة المحال التي تجعلها تحتفظ بنضارتها من دون كل نباتات الخلوات. ولكن هذا الإعجاز ليس كل ما تخفيه هذه الجنيّة في جعبتها السحرية. فهي الشجرة الوحيدة في كل الصحاري التي تجود بهِبَةٍ لم تخطر يوماً ببال بشر. تجود بثمارٍ مدهشة، متواضعة الحجم، دامية اللون، مشحونة بجنس عسلٍ فريد، أسطوريّ المذاق، أصاب بالخبل جلّ الذين حالفهم الحظّ وذاقوا له طعماً يوماً، لأنه عصارة فاكهة لا تنمو عادةً في كل شجرة طلح، ولا في كل موسم، ولكنها، ككنوز الصحراء، عطية حظوظ! ويقال إن الطلح لم يكن ليتسلّح بهذه الدروع الشوكية التي يتحصّن بها لو لم يكن ذلك تدبيراً لحماية كنوزه السحرية. وقد اعتادت القبائل أن تسخّر الصغار، كلما حطّت بها الرحال، في بيداء تتناثر في أرجائها شجيرات الطلح الوحيدة، علّ النفوس البريئة تشفع للقوم في الفوز بالثمار الأسطورية. ولا ينسى كيف نزل في إحدى الرحلات ضيفاً على أحد مثل هذه المنتجعات التي خيّمت في فلاة نبتت في رحابها بضع أشجار طلح، متباعدةً، متناثرة على مدى البصر. وقد سمع في إحدى الليالي عقلاء

النجع يتهامسون بسيرة فاكهة الطلح التي جلبها الصغار في إحدى الغزوات، فانتوى أن يجرّب حظّه أيضاً، لأنه لم يرَ نفسه يوماً سوى طفل، كل ما هنالك أن صغار النجع وُلدوا من بطون أمّهاتٍ من لحمٍ ودم، ووُلد هو من بطن أمٍّ اسمها الألم! في مساء اليوم التالي غادر النجع، ولكنه حطّ رحاله في عراءٍ يتوسّط الأشجار المتباعدة التي تتناثر في الفراغ المديد كأنّها تتنكّر للجوار، وتأبَى إلاّ أن تفرّ من بعضها البعض. هجع حتى هزيع الليل الأخير، ثم هبّ في نيّةٍ لارتياد ساحة الصيد.

استطلع المكان تحت ضياء النجوم ليقع اختياره على أكثر الطرائد استكباراً، وأوفرها فروراً، فطاف ليستكشف الموقع، ليكتشف وجود وعوثة حول الشجرة، فتوقّف. توقّف لأن الخبثاء سوف يكتشفون الأثر في الغد. ووجود الأثر يعني أنه لن يضمن ألاّ يسمع من أفواه الفضوليين، في القبيلة التي سينزلها تالياً، سيرة الضيف النّهم الذي نزل أرباع النجع، مبثوثةً في أبيات قصيدة لئيمة جرت على لسان شاعرة القبيلة التي لا شأن لها سوى اقتناص مثل هذه الفرص للتشنيع بأمثاله المستهترين بجلالة الناموس، فلا يستحون أن يتطاولوا في أشجار الطلح كقِرَدَة الأدغال، ليلقموا بطونهم الجشعة ثماراً في حجم حبّة خرز!

حام بالجوار ليلتقط حجارة مناسبة. ملأ حجره بالحجارة ثم تقدّم من

الحرم. ألقى قبل كل خطوة بحجر ليكون له شفيعاً في محو الأثر، إلى أن بلغ الشجرة. اندسّ في فروتها وجنى حبّات دسّها في كم جلبابه. ثم انسلّ راجعاً مستخدماً السبيل المفروش بالحجارة ذاته الذي قاده إلى موقع الشجرة.

عاد إلى موقع المتاع ليلتقم السحر الذي استهواه طويلاً، وسمع عن مفعوله الأساطير. ترنّح ليلتها من فرط اللذّة. ولكنه.. ترنّح من فرط لذّةٍ أكبر، لأن اللقية أعادت له الثقة بوجود الطفولة التي ظنّها أضحت مفقودة.

طعم اللقية كان سعادة ليلة. ولكن طعم الثقة بوجود الطفولة كانت سعادة العمر كلّه.

فكيف لا يقيم العهد مع ملّة الطلح لتكون في حياته درساً في كل شيء: في الاحتماء بالعزلة، في الاكتفاء بما في النفس، في إبداع كل شيء من لا شيء، في الجود باللقية الوحيدة التي تصنع العجب: الحبّ! والحرص كل الحرص على الاحتفاظ بـــ طفولة في القلب؟

في الليلة التي سبقت الفراق تجالسا تحت شجرة طلح مهجورة ككل أشجار الطلح. ظلّ يتطلّع نحو الداهية بفضولٍ كأنه يريد أن يملأ عينيه من هذا الإنسان الذي سخّره له ربّ الحظوظ كي يكون له أباً بدل الأب الضائع، ورفيقاً بدل رفقاء عاش محروماً منهم، وخلاً بدل خلاّن كانوا في عرف الناموس بهتاناً، وساعداً أيمن في معاندة كائنات هي الأعند في دنيا الأنام، كما هو الحال مع الأنعام!

كانا قد عادا من رحلة الواحة التي تخلّصا فيها من نصيبه في القطيع، وعادا على عقبيهما ليحطّا الرحال في المنزلة المشرفة على الطريق المؤدّي إلى الشمال.

كان الداهية قد ترك نصيبه من القطيع وديعةً في عهدة أحد الرعاة في الصحراء المجاورة، وسار في ركبه أياماً ليشيّعه في رحلته إلى المجهول.

كانت الشمس قد قطعت الشوط الأعظم في رحلتها إلى المجهول أيضاً، فاعتصما بأول شجرة طلح اعترضتهما ليقضيا ليلتهما الأخيرة قبل أن يدركهما الغروب.

تسكّع الداهية في فسحة الجوار ليستجلب أحطاباً، في حين تولّى هو استخراج الكلأ من المتاع ليطعم مطيّتيهما.

ولم يعرف ما إذا كان الزّند هو الذي خذل الداهية، عندما تربّع ليشعل النار، أم كوم القشّ الذي دسّه طُعماً لاستدراج الشّرَر، لأن كل محاولاته الباسلة في إشعال النار، كانت تنتهي في كل مرة إلى الفشل.

ولا يدري لماذا استشعر متعةً في مشاهدة الداهية وهو يستميت في قدح الزند، ثم في نفخ القشّ اللعين، دون جدوى، لأن في عناده في مثل هذه الأحوال قرأ دائماً شقاوة جذّابة تليق بهذا الإنسان الذي لم يره يوماً سوى طفلٍ صغير، يتنكّر في جرم شيخٍ جليل.

في الأفق شرعت شمس الخريف تجود بأنفاس النزع الأخير، لتدمغ يبيس العشب الشحيح بضياءٍ باهت يستعير لون العراء المديد، المستسلم لمشيئة فراغٍ سماويّ لامبالٍ، تلوح في أفق عليائه الشمالية فلول سحبٍ خاوية.

في الجوار استشعر عراك الداهية مع شظية الصوّان الشرسة، محاولاً استجداء الشرر بإيقاعٍ رتيب، ولكن بلا جدوى. من بين أصابع الداهية النحيلة، كأنّها أعواد حطب من فرط اليبوسة،

.لاحظ كيف فزّ خيط دم

هبّ لنجدته: انتزع من يديه الزّند، واقتطع من أغصان الطلح أوراقاً يانعةً، مشفوعةً بنضارةٍ خالدة. سحقها بين راحتيه حتى نزّ منها النزيف، ثمّ ضمّد بها الأصابع الجريحة: كانت الشظية الشرهة قد .افترست، في الحملة، ثلاثة أصابع: الخنصر والبنصر والسبّابة

:طأطأ الداهية ليداري خجلاً قبل أن يبوح بشكوى

!هذا ذنبي! الرعدة في اليدين خذلتني! الشيخوخة كما ترى

:تفقّد يديه المعصومتين برحيق شجرة الخلود ثم أضاف

إذا أعجزنا أن نُخضع أيدينا لمشيئتنا، فليس لنا إلاّ أن نذهب لنهجع طوعاً في الحفرة التي لا عودة !منها

كان ما زال مطأطئاً، دافناً هزيمته في حجره، عندما تطلّع إليه، ففجعه أن يرى في عينيه انكساراً بسبب هزيمةٍ لم تكن الشيخوخة علّتها، ولكنه يعلم يقيناً أن علّتها الانفعال. الداهية لم يخذله وهن !الجسد، ولكن ما خذله هو وهن القلب في مواجهة بعبعٍ اسمه: الفراق

كان يدري أن الوداع قصاصٌ آخر. مكوسٌ أخرى لا تختلف عن المكوس المستحقّة عن الإساءة .للأرض. لأن العلاقة استهتارٌ بناموس الصحراء التي لا تعترف بغير العزلة ناموساً

علاقة الإنسان بأخيه الإنسان عهدٌ مبرم بموجب الإغواء الذي نستسلم له لندفع ثمن هذا الاستسلام .وجع الوداع

انتهى أخيراً من استدراج المعجزة الكمينة مستخدماً في المبارزة القشّ اللميس طُعماً، لتنبثق الشعلة المذهلة التي لا يستطيب الحميم أن يجلس في حضرة الحميم في غيابها، لأن بدفئها فقط يذوب جليد الصلد في الأعماق، فيستسقي زهرة الغيوب التي تسكن القلب، لتكون زاداً يغذّي المنطق في عضلة :اللسان التي لا تعود بفضل هذا المنطق مجرد عضلة، ولكنها تغدو صوت المعبود

!في مثل هذه الساعة في الغد، سوف تحلّ ضيفاً على أشباحك في الأطلال

:علا بينهما لسان النار، فانتقلت العدوى إلى اللسان الأعظم شأناً من لسان النار

!أشكّ أن تقبلني أشباح الأطلال في حرمها غداً

:تنقّل الشيخ بين أصابعه الملفوفة بأوراق شجرة الأبود، وبين وجه الجليس

ما الذي يمنع أشباح الأطلال من احتضان الحميم الضالّ؟

:حدّق في عينيه بفضول قبل أن يعترف

!المسكوكات الذهبية

المسكوكات الذهبية؟

في المرة الماضية رجمتني الأشباح بالحجارة لأنّي نسيت وجودها في جيبي، عند مروري بالأطلال، في طريقي إلى أمّ المستوطنات لقضاء الحوائج، ولا أدري ماذا كان سيحلّ بي لو لم !أعتصم بالمعبد

:ابتسم الداهية. تفقّد أصابعه الجريحة في ضوء النار. اختلس صوبه نظرة قبل أن يقول

كنت سأشكّ فيما إذا كانت أرواح الأسلاف ستهبّ لنجدتنا في عراكنا مع أضيافنا الأغراب لو لم !يقتنوا هذا المعبد الخبيث

هل تريد أن تقول إننا انتصرنا بفضل عون أهل الغيوب؟

:طعن جوف النار بعود حطب قبل أن يجيب

.لو حدّثتك عن الحملات التي شهدتها هذه الأرض لما صدّقت

:سكت لحظات قبل أن يضيف

ما لا يجب أن تشكّ فيه هو أن أولئك الذين نسمّيهم أشباحاً، أو أرواحاً، أو جانّاً، هم في الحقّ عسس !هذه الأرض، لا نحن

انتصب واقفاً. ذهب إلى المتاع واستخرج منه كيس الدقيق ووعاء الخشب. عاد بهما ليتربّع في :مواجهته، فاضطرّ أن يستوقفه

!جاء دوري لتولّي أمر الرغيف الليلة

:حدجه مستفهماً، فأوضح

!ستكون ممتنّاً للزند الذي حرّرك الليلة من أداء هذا الواجب

ابتسم الداهية ودفع نحوه عدّة العشاء. تنفّس الشمال بزفرةٍ مشحونةٍ بصقيعٍ ينذر بخريفٍ قاسٍ. تناول الداهية من كوم الحطب عوداً سميكاً وألقى به في الموقد. استغاث العود بفحيحٍ وجيعٍ ونزف :منه سائلٌ قانٍ كالدم، في اللحظة التي هتف فيها مبشّراً

!لا تنسَ أن تضاعف حجم الرغيف لأن في ربوعنا حلّ ضيف

في ضوء النار، في الجانب المؤدّي إلى الخلاء، أقبل فأرٌ أغبر، ضئيل الحجم، بحدَقتين شقيّتين، ظلّ يقترب بحرصٍ شديد، مشمشماً بخيشومه المديد، يجوس متردّداً، مرتعش الزغب من فرط .الخوف، والطمع في الفوز بقوتٍ يسدّ الرّمق وحده يدفعه لركوب الخطر وطرق أبواب البشر

لاحظ كيف استيقظت روح الطفولة في سيماء الداهية وهو ينكفئ إلى الأمام ليتأمّل الفأر كأنه يراه لأول مرة. ثمّ دسّ يده في جيبه واستخرج حبّة تمر، شيّعها في وجه المخلوق الصغير مداعباً، فكان الفأر يقترب مشمشماً بخيشومه النّهم، ثمّ يرتدّ إلى الوراء وجلاً. استمرّت مناورة الكرّ والفرّ .لحظات قبل أن يتشجّع الضيف فيختطف الثمرة من بين أصابعه ليفرّ بها بقفزة في الظلام

:تبادلا ابتسامة صامتة. علّق الداهية

!لا تخف! سوف يخفي اللقية في جحره ثم يعود ليشاركنا طعام العشاء

:في تلك الليلة، بعد أن هجعا متجاورين، طلباً للنوم، سمع الداهية يقول

لا أريدك أن تنسى أمراً واحداً: إيّاك أن تنسى أن الأحبّ من المكان الذي نسكنه هو المكان الذي يسكننا، والأنبل من وجودنا في أوطاننا هو

!الاحتفاظ بأوطاننا في قلوبنا، لأننا بهذا فقط نضمن أنها سوف ترافقنا أينما حللنا في رحلتنا

كانت تلك الوصية الأخيرة التي سمعها من فم الإنسان الذي كان له الأب والرفيق والخلّ الوفيّ، لأنه عندما نهض في الفجر، ليستعد للانطلاق، وجد مكان الداهية خاوياً. ظنّ في البداية أنه خرج

لقضاء حاجته في الخلوة المجاورة، ولكنه اكتشف عندما استطلع غياب أمتعته، وكذلك جواده، أن الحكيم العظيم، المجبول بروح الطفولة الأبدية، تسلّل في قلب الليل، فراراً من شبح الطاغية الذي أعجز حتى الأبطال: الوداع!

..قورينا من جديد

على القمّة التي يتوّجها المعبد هيمن غيمٌ أسود ظلّ يتسكّع في طرقات الشعفة العليا فيحجب الرؤية، ولكن العصارة التي تهوي من الأعالي لتتحوّل إلى قطع عهنٍ ناصع، محمّلةً بالماء، لم تتنزّل بعد، .كما في الزيارة الأخيرة

بات ليلته في نزلٍ يؤمّه البحّارة، يتشبّث بركنٍ قصيّ في خاصرة الجبل الغربية. في الصباح ارتاد السوق ليتخلّص من الجواد، كما تخلّص قبلها من القطيع، ليضيف نصيباً جديداً إلى ثروته من المسكوكات الذهبية، المشفوعة بشبح الملك، وهو يتربّع في جوف عرشه، ينتصب في مواجهة .الميزان الملآن بحزمة النبتة السحرية الزائلة، ليشرف بنفسه على بيعها للرعيّة

يمّم صوب جناح الجبل الشرقي. عَبَر أبنية مشيّدة من الحجر في صفوف، وأخرى مبعثرة على طول السفوح. ولكن أكثر البيوت فتنةً هي الأبنية المنحوتة من صلد الجبل المهول، فتبدو من خارج مثل الكهوف المحفورة في جبال الصحراء الوسطى، ولكنها، في الجوف، تنتحل طبيعة الأبنية، وتتعدّد فيها غرف فسيحة تستهوي الأكابر، لأنها تمتاز عن دور الأبنية باحتفاظ جدرانها بالدفء في فصل الشتاء، في حين تتكتّم على البرودة صيفاً. في كل المسافة الشاسعة، الفاصلة بين خاصرتَي الجبل، تتناثر أضرحة أسلافٍ سكنوا المكان في عهدٍ سبق وصول المستوطنين بزمنٍ طويل، ولكنّهم هجروا المقام فراراً من قراصنة ظلّ البحر يلفظهم دوماً، وتدفّقوا نحو الدواخل، .تاركين حلمهم ليخلّفوا وراءهم مدافن موتاهم المترفة، وبيوتاً متقنةً منحوتةً في صلب الصّلد

في منتصف الطريق اعترضه النهر المندفع من أعلى. كان نقيّاً على نحوٍ موجع. وقف يحدّق في النزيف الثريّ بدهشة مَن يراه لأول مرة. ينثر اللسان اللجوج في اندفاعه الباسل رذاذاً بارداً على جانبي الجدول الحجري، يلقّن السابلة درساً في السخاء، إلى جانب الدرس في النقاء، فلا يكتفي، .ولكنه يضيف إلى فتنة المشهد، بثرثرته، أنشودة شعر

وقف زمناً، مستعيداً في تلك الوقفة، ذكرى وقفة أخرى، رافقه فيها في أحد الأيام الإنسان الذي علّمه معنى أن يجاور الإنسان أخاه الإنسان بالحسنى، ويفعل الإنسان كل ما بالوسع كي لا تنشب .بينه وبين الإنسان حرب

استخرج من جرابه اللقية النفيسة التي وهبتها له الصحراء في طريقه إلى الساحل لتكون له، في رحلة فراره الجديد، تميمة الأبد: كانت تلك كمأة. كمأة حقيقية، ولكنها حجريّة! هذه أول مرة يعثر فيها على كمأة تحوّلت إلى حجر. كمأة من طينة مريبة. طينة ليست بيضاء، ولا سوداء، ولا

خضراء، ككل صنوف كمأ الصحراء، ولكنها من طينة حمراء، بحجمٍ يملأ الكفّ، ذات سطح مخشوشن، موسّمة الرأس بغضونٍ خفية اعتاد الريح في حلفه مع الشمس

أن يختطّها في شعاف الكمأ الذي شقّ عصا الطاعة على أمّه الأرض فانبثق من الجوف، وأطلّ برأسه كما يطلّ فرخ الطير من بطن البيضة، فلا مجير عندها من القصاص: الشقوق ختم الميلاد! الرموز الغامضة على الجبين بصمة الخلاص من باطن المجهول، والوقوع في شرك اليبوسة! أمّا الأسفل، المشدود إلى القيعان بحبل السرّة، فقد احتفظ ببرهان الانتماء إلى الجذور المجبولة بالبلل. احتفظ بنداوة مبثوثة في لطخة طين تشبّث بالقعر في مسحة داكنة، مبهمة، كأنّها وُجدت لتخفي لغز البذرة الوحيدة في دنيا النبوت قاطبة التي تنكّرت لطبع العشب بالتحرر من الجذور.

ولكن أكثر ما أدهشه هو وزن الكمأة عندما تحوّلت حجراً. كانت ثقيلة على نحوٍ يفوق ثقل ما لا يقلّ عن الثلاثين حبّة كمأ طازجة متوسطة الحجم!

انحنى وأغرقها في الجدول العامر بذلك الفيض، الذي يبدو في ضوء نهارٍ بدأ يتحرّر من الغيم، جوهراً ذاب وتحوّل سلسبيلاً.

كان المارّة يتوقّفون ليشاهدوا ابن الدخلاء الذي أقبل على مدينتهم ليمارس في مياه النهر صلواته المنكرة، مستخدماً حجراً غريباً ليكون وسيطاً بينه وبين معبوده الشرّير!

استعاد الكمأة من قلب الغمر النفيس. جفّفها بكمّ ثوبه، ثم استودعها الجراب من جديد. ركع فوق الجدول، مستسلماً لإغواء الماء. اعترض اندفاع النبع بفمه وتجرّع الماء الفضّي المنطلق عبر السفح كأنّه ينوي أن يستعير أجنحةً من ضياء الشمس، ليرفرف عالياً مخترقاً الفضاء.

كانت السماء قد تعرّت تماماً من حُجُبها عندما انتصب في مواجهة البيت المنحوت في الصخر الذي استحال أطلالاً أيضاً منذ تخلّى عنه الجمال. هنا، في وجه هذا الجلمود الشامخ، الذي صار للمعبد ركيزةً، وقف في أحد الأيام لتكون الوقفة بمثابة مفترق طرق. لم يختر أن يُقبل في ذلك اليوم لأنه لم يشأ أن يدنّس الحرم، ولكنه أدبر. لم يُدبر وحسب، ولكنه فرّ. لم يفرّ من المكان، ومن المستوطنة، ومن الشمال، وحسب، ولكنه فرّ إلى الصحراء في نيّة للفرار من الصحراء كلّها. وها هو يعود إلى الوراء، لأن جنيّاً شقيّاً لاحقه إلى رحاب فراره ليستعيده في أحد الأيام من هناك، ليقرأ في العودة من الرحاب دعوة للعودة إلى الأطلال. دعوة للعودة إلى روح الأطلال. روح الأطلال التي لا وجود لها بغياب ربّة الأطلال.

ناشد الجدران أمداً ثم ارتدّ. تطلّع إلى الأسافل حيث يرابط في البُعْد بحرٌ بلا نهاية كأنه صحراء زرقاء. هناك، في مرافئ أبولونيا، تتزاحم سفن أقبلت لتتخلّص من شحناتها، وتأهّبت سفن أخرى لنشر أشرعتها، استعداداً للانطلاق بعد أن شحنت حمولاتها. هناك سوف يلج في الغد جوف إحدى هذه المطايا لتقلّه إلى المجهول. بالأمس زار حانوت آغافون للنجارة فوجد فيه الرجل الذي استخدمه في الماضي كمساعد له في الحانوت فَوَرَثَ عنه الحانوت. استفهم منه عمّا إذا تلقّى أخباراً عن حال ربّ عمله القديم فقال ضاحكاً إن حال الابن

الضالّ في أحضان الأب دوماً أفضل من حاله في متاهة الضلال، وآغافون ابتسم له الحظّ في المكان الذي أنكره أكثر مما ابتسم له في المكان الذي استجار به كي يكون له في غربته ملاذاً.

كان رجلاً قصير القامة، أمْيَل إلى البدانة، في العقد الرابع أو الخامس، يتكلّم رطانة أهل المكان بطلاقة، يجوس حوله صبيّ من أهل المكان ليكون له عوناً في قضاء حوائج الحانوت، يتقن التخاطب بلغة الأغراب أيضاً. وريث آغافون وقف في وجهه وخاطبه قائلاً إن الناس كالريح التي تهبّ اليوم من الشمال، ولكن ليس لأحد أن يضمن ألاّ تعود أدراجها بعد حين لتهبّ من الشرق نحو الغرب. الناس في هجراتهم أيضاً يحاكون الريح، لأنهم في سعيهم مستسلمون لبسمة شبح متذبذب المزاج اسمه الحظّ، فيذهبون وراءه أينما ذهب. لقد هجر هذا الشبح اللئيم في أحد الأيام جزيرة «ثيرا» وجاء ليقيم هنا، فهاجر القوم في ركابه، وها هم يعودون اليوم أدراجهم، لأن الشبح اللئيم قرّر أن يتخلّى عن قورينا، ويعود أدراجه إلى «ثيرا»، فلم يملك الناس إلاّ أن يمتثلوا لمشيئته ويسيروا في ركابه إلى هناك. وها هي الجزيرة تحيا بفضل حكمته من جديد، فتزدهر فيها التجارة، وتنتعش حرفة كالنجارة، لأن أفواج الناس العائدة تحتاج إلى تشييد بيوت تُؤويها، والبيوت تحتاج إلى أبواب ونوافذ تحمي سكّانها من جشع ضعاف النفوس، وإلى أثاث يوفّر الراحة لأرباب البيوت. أضاف فقال إن وضع أمثال آغافون في «ثيرا» أفضل ممّا كان عليه في «قورينا»، كل ما ينقص الناس هناك هو الأخشاب التي بدأوا يستجلبونها الآن من المكان الأغنى بالغابات كـ «قورينا»، ولكنهم اضطرّوا أن يهجروا «قورينا» أيضاً تلبيةً لنداء الشبح المحموم الذي لا يسكن إلى حال.

انتصب الشراع، وانقطع حبل السرّة الذي شدّ جرم السفينة إلى المرفأ، فانساب الجوف الخشبي على الماء.

صباح نهار الخريف كان ساطعاً، وهيكل الجبل، المرصّع بالأبنية التي تتسلّق السفوح، يبدو جليّاً ومدهشاً، من موقعه على سطح السفينة المنزلقة على مياه البحر.

تطلّع مأخوذاً بالمشهد الفاتن كأنّ المدينة المنحوتة في الصخر لم تنبت من أرضٍ، ولكنها هبطت هبةً من السماء، بمعجزةٍ مّا. هبةٌ أحسن صنعها الآلهة، ففتنهم ما صنعوا، فقرروا أن يتخلّصوا منها، بدفعها إلى الهاوية، قطعاً لدابر الفتنة! وها هي تنتصب في البُعْد باستكبارٍ يليق بصنيعة الآلهة، لتتجلّى تحت شعاع شمس الخريف فتنةً للفانين. فكيف لا تستدرج بحُسنها المغامرين، أو شذّاذ الآفاق، أو كل مُريد جمال، فيتسابقوا، منذ الأزل، ليتشبّثوا بتلابيبها، كي يرتّلوا صلواتهم في حرمها؟

هو أيضاً تلا بوقفته الصلاة في حرمها، وهو يعاند النزيف، لأنه لا يريد أن يصدّق أنه سيفارقها، وصلاته ليست تدشيناً للمثول في حرمها، ولكنها تتويجٌ لخطيئة التخلّي عنها، لا لأنها أعجوبة الحُسن وحسب، ولكن لأنها وجهُ وطنٍ اسمه ليبيا، لقّن أجيال الأمم درساً في السّخاء، فحرم نفسه دوماً كي يُطعم الأغيار، وضحّى بأبنائه دوماً كي يُجير الأغراب. وها هي زهرة الوطن الذي كان زهرة الأوطان، تتوارَى، فيُحسّ أن قلبه هو الذي يتوارَى معها، لأن ما جدوى قلبٍ خلا من عشق وطن، فكيف إذا كان هذا الوطن هو ليبيا التي تخفي خلف هذه الجبال، جمال صحراء الشمال، تليها صحراء وسطى كانت في ألسنة الأجيال دوماً مضرب الأمثال، تتشبّث بتلابيبها صحراء أخرى تتواصل وتتواصل، فلا تقنع بحدود أرضيّة، لتلتحق بالسماء في أفق اللانهاية، لأنها لا تعترف بالأسافل وطناً؟

إنها الصحراء التي لقّنته أوّل درس يوم ضيّعته خصيصاً كي يجد في الرحلة نفسه. وألهمته أن يلوذ بالشاعرة كي تلقّنه الأشعار، لأنها تدري أن لا سعادة للإنسان الفاني في رحلة الوحشة ما لم يهدهد في القلب أشعاراً. ثم قادته من يده، كما تفعل الأمهات مع كل الأطفال إذا أردن بهم خيراً، إلى حكيم الناموس، لأن «آنهي» المقدّس سيصير كتاباً ضائعاً حقّاً في حال أخفت الأمّهات ذريّتهنّ عن الدُّهاة، خوفاً على الذرية من قسوة الحكمة وسطوة الناموس، فتعلّم في لسان الحكيم الوجع، ليقينه بأنه مفتاح الفلاح، لأن من لا يتوجّع لا يفلح. لم تكتفِ الأمّ التي لم يعرف أُمّاً سواها، ولم يعترف في دنياه بأمٍّ سواها (الملقّبة في لسان الأجيال باسم الصحراء) بهذا، فساقته إلى الحسناء المسكونة بروح الجنون، ليتلقّى على يديها درساً آخر، هو وجودٌ في الأشياء لوجهٍ آخر، فيحترس في رحلته

أن يثق بالأغيار، فيخذله الأغيار بعد أن يكون أوان اليقظة قد فات. بعدها ألقت في طريقه بالخِلّ لئلاّ يفقد الثقة مطلقاً بالأغيار،

فلا يجد في رحلة الوحشة عزاءً. خصّته بداهية المراعي ليكون له الدليل إلى إعجازٍ اسمه: الحُب! فهل بلّغت في شأنه أمّه الصحراء، أم بخلت عليه بما يستحقّ أن يسمّيه ذخيرةً، أو ما يسمّيه البلهاء: غنيمةً؟

.كلاّ! كلاّ، بالطبع

ألم تُضِفْ إلى كل هذه النعم فتزوّده في رحلة المجهول بالزاد أيضاً؟

بلى! ففي الجيب ترقد اللقية النفيسة، الكمأة الحجرية، النبتة الوحيدة في ممالك النبوت التي استغنت لأمرٍ جلل عن الجذور، لأن الصحراء شاءت بهذه المعجزة أن تقول إن أقصى المُنَى في حياة الأمّة الفانية هي أن يجرؤ السليل الفاني يوماً على قطع الجذور، لأن لا وجود للخلاص الذي نسمّيه حريةً بوجود الجذور! ورحلته كلّها كانت قطعاً للجذور. وها هي تبلغ الحدود القصوى بقطع الجذور الأقسى والأعظم شأناً من كل الجذور: الوطن، فلا يملك إلاّ أن يتغنّى بوصيّة داهية المراعي المبثوثة في كلمته الأخيرة، ليلة العشاء الأخير: إيّاك أن تنسى أن الأحبَّ من المكان الذي نسكنه هو المكان الذي يسكننا، والأنبل من وجودنا في أوطاننا، هو الاحتفاظ بأوطاننا في قلوبنا، !لأننا بهذا فقط سنضمن أنها سوف ترافقنا أينما حللنا في رحلتنا

سالو شمال شرق شبه الجزيرة الإيبيريّة

تبليسي جورجيا (القوقاز) 20. 07. 2017 م

مؤلّفات إبراهيم الكوني

. – الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م1

. – جرعة من دم (قصص) 1983م2

. – شجرة الرتم (قصص) 1986م3

.رباعية الخسوف 1989م—

.(– البئر (رواية4

.(– الواحة (رواية5

.(– أخبار الطوفان الثاني (رواية6

.(– نداء الوقواق (رواية7

. – التبر (رواية) 1990م8

. – نزيف الحجر (رواية) 1990م9

. – القفص (قصص) 1990م10

. – المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م11

. – المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م12

. – ديوان النثر البري (قصص) 1991م13

. – وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م14

. – الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م15

. – خريف الدرويش (رواية ـــ قصص ـــ أساطير) 1994م16

. – الفم (رواية) 1994م17

. – السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م18

. – السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م19

.فتنة الزؤان (رواية) 1995م – 20

. – برّ الخيتعور (رواية) 1997م21

. – واو الصغرى (رواية) 1997م22

. – عشب الليل (رواية) 1997م23

. – الدمية (رواية) 1998م24

. – صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م25

. – الفزاعة (رواية) 1998م26

. – الناموس (الجزء الأول) 1998م27

. – في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م28

. – سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م29

. – أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م30

. – سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م31

. – سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م32

. – وصايا الزمان 1999م33

. – نصوص الخلق 1999م34

. – ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م35

. – الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م36

. – نزيف الروح (نصوص) 2000م37

. – أبيات (نصوص) 2000م38

. – بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م39

. – رسالة الروح40

. – بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م41

. – بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م42

. – بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م43

.(– بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي44

5. – بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء45

. – منازل الحقيقة 2003م46

. – أسطورة حب إلى سويسرا 2003م47

. – لحون في مديح مولانا الماء 2002م48

. – البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م49

. – أنوبيس (رواية) 2002م50

. – الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م51

. – مراثي أوليس (رواية) 2004م52

. – صحف إبراهيم (متون) 2005م53

. – المحدود واللامحدود (متون) 2002م54

. – ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج 6، 2005م55

. – ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م56

. – لون اللعنة (رواية) 2005م57

. – هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م58

. – ملحمة المفاهيم ج 3، (موسوعة البيان) ج 7، 2006م59

. – نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م60

. – في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م61

. – يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م62

. – قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م63

. – الوَرَم (رواية) 2008م64

. – يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م65

. – من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م66

. – رسول السماوات السبع (رواية) 2009م67

. – جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م68

. – فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م69

. – ناقةُ الله (رواية) 2015م70

. – معزوفة الأوتار المزمومة (نصوص) 2016م71

. – أهل السُّرَى (نصوص) 2016م72

. – موسم تقاسم الأرض (رواية) 2017م73

. – سِلْفيُوم (رواية) 2017م74

مؤلّفات إبراهيم الكوني النظرية

. – نقد ندوة الفكر الثوري 1970م75

. – ثورات الصحراء الكبرى 1970م76

. – ملاحظات على جبين الغربة 1974م77

. – وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م78

. – ثوبٌ لم يُدنَّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م79

. – عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م80

. – عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثانٍ 2013م81

. – عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثالث 2014م82

. – عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء رابع 2015م83

[1] في ما نهوى يسكن ما نخشى

[2] يوساس المعذّب الشقي (في اللغة الليبية القديمة)